@ketab_n
12.5.2015

لاورا إسكيبيل

ترجمة: صالح علماني

كالماء للشوكولاتة

رواية على حلقات شهرية مع الوصفات،
وغراميات، وعلاجات منزلية.

@ketab_n

لاورا إسكيبيل

ترجمة: صالح عاماني

كالماء للشوكولاتة

@ketab_n

دار بلومزبري - مؤسسة قطر للنشر
BLOOMSBURY
QATAR FOUNDATION
PUBLISHING

مؤسسة قطر
Qatar Foundation

كالماء
للشوكولاتة

صدرت الطبعة العربية الأولى عام ٢٠١٤ عن
دار بلومزبري ـ مؤسسة قطر للنشر
مؤسسة قطر
صندوق بريد ٥٨٢٥
الدوحة، دولة قطر
www.bqfp.com.qa

Como Agua Para Chocolate
Copyright © Laura Esquivel, 1989

الحقوق الفكرية للمؤلفة محفوظة
حقوق الترجمة © صالح علماني ٢٠١٤

جميع الحقوق محفوظة
لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب بأي طريقة بدون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر باستثناء في حالة الاقتباسات المختصرة التي تتجسد في الدراسات النقدية أو المراجعات.

الترقيم الدولي: 9789992195543

الدعوة إلى المائدة وإلى الفراش

تكون لمرة واحدة فقط.

المحتويات

١. يناير

فطائر عيد الميلاد ٩

٢. فبراير

قالب حلوى «تشابيلا» ٢٩

٣. مارس

طيور السمان مع بتلات ورد ٥١

٤. أبريل

«موليه» الديك الرومي باللوز والسمسم ٦٩

٥. مايو

سجق شمالي ٩١

٦. يونيو

عجينة لصنع الكبريت ١١١

٧. يوليو

مرق عصعص عجل ١٢٧

٨. أغسطس

«تشامباندونجو» ١٤٩

٩. سبتمبر

شوكولاتة وكعكة عيد الملوك المجوس ١٦٩

١٠. أكتوبر

أقراص «توريخاس» بالقشدة المحلاة ١٩١

١١. نوفمبر

فاصوليا عريضة بالفلفل على الطريقة «التيثكوكانية» .. ٢١٣

١٢. ديسمبر

فلفل بصلصة الجوز ٢٣٣

١

يناير

فطائر عيد الميلاد

المُكونات:

١ علبة سردين
١\٢ كج سجق
أوريجانو
١ علبة فلفل جبلي حار
١ بصل
١٠ رغيف خبز صمون (فينو)

طريقة التحضير

يجب تقطيع البصلة تقطيعًا ناعمًا. أقترح عليكن وضع قطعة بصل صغيرة على قمة الرأس لتجنب انسكاب الدمع المزعج الذي يُحدثه البصل حينَ تُقطعه إحدانا. السيئ في البكاء عند تقطيع البصل ليس مجرد البكاء بحد ذاته، وإنما لأن المرء يبدأ أحيانًا بالتقطيع، فيصيبه الولع كما يقال، ولا يعود قادرًا على التوقف. لستُ أدري إن حدث لكم ذلك يومًا، أما أنا فأقول إنه حدث لي، وقد حدث مرات لا حصر لها. أمي تقول إن السبب هو أنني في حساسيتي للبصل مماثلة تمامًا لجدتي «تيتا».

يقال إن جدتي «تيتا» كانت شديدة الحساسية حتى إنها، وهي في بطن أمها، كانت تبكي وتبكي كلما قطعت أمها بصلًا، وكان بكاؤها قويًّا بحيث إن «ناتشا»، طاهية المنزل نصف الصماء، تسمعها دون صعوبة. وكان النحيب قويًّا في أحد الأيام إلى حدٍّ أدى معه إلى تقديم موعد ولادتها. ومن دون أن تتمكن جدة أمي من أن تقول آه، حطَّتْ جدتي «تيتا» في هذا العالم قبل

موعد ميلادها، فوق منضدة المطبخ، وسط رائحة حساءِ شعيرية كانت أمها تطهيه، وروائح الزعتر والغار والكزبرة والحليب المغلي والثوم، وكذلك البصل بالطبع. وكما يمكن لكم أن تتصوروا، لم تكن ثمة حاجة إلى تلك الضربة المعهودة على إليَتي الوليدة، لأن «تيتا» كانت تبكي مسبقًا، ربما لأن نبوءة غيبها قد قررت لها أنه محظور عليها الزواج في هذه الحياة. وروت «ناتشا» أن «تيتا» قد دُفعت، حرفيًّا، إلى هذا العالم بسيل دموع مذهلة فاضت على منضدة المطبخ وأرضيته.

وفي المساء، بعد أن تلاشى الذعر، وكانت مياه تلك الدموع قد تبخرت بفضل أشعة الشمس، كنست «ناتشا» مخلفات الدموع المتبقية على بلاط الأرضية الأحمر. فملأت بذلك الملح كيسًا يزن خمسة كيلوجرامات، استخدموه في الطبخ لزمن طويل. تلك الولادة غير العادية حددت واقع إحساس «تيتا» بحُبٍّ كبير للمطبخ وبأنها سوف تقضي معظم حياتها فيه. وقد بدأ ذلك عمليًّا منذ ولادتها؛ فحين كان عمرها يومين مات أبوها، أي جد أمي، بسكتة قلبية. فانقطع حليب ماما «إيلينا» من التأثر. وبما أنه لم يكن هناك في تلك الأزمنة مسحوق حليب مجفف أو أي شيء مشابه، ولأنهم لم يتمكنوا من الحصول على مرضعة في أي مكان، وجدوا أنفسهم في مشكلة حقيقية من أجل تسكين جوع الطفلة. «ناتشا» التي كانت تعرف كل ما له علاقة بالمطبخ ـ وأشياء كثيرة أخرى ليس من المناسب الحديث عنها الآن ـ عرضتْ أن تتولى مسؤولية تغذية «تيتا»، فقد كانت تعتبر نفسها الأكثر كفاءة على «تهيئة معدة المخلوقة البريئة»، على

الرغم من أنها لم تتزوج ولم تنجب أبناءً قطُّ. بل إنها لم تكن تعرف القراءة والكتابة، ولكنها تمتلك في شؤون المطبخ معارف عميقة لا تضاهى. وافقت ماما «إيلينا» بامتنان على الاقتراح، إذ كان لديها ما يكفيها من الحزن ومن المسؤولية الهائلة في إدارة المزرعة بصورة سليمة بحيث تتمكن من أن توفر لأبنائها الغذاء والتعليم الذي يستحقون، فما بالك بأن تضاف إلى ذلك كله مسؤولية تغذية الوليدة الجديدة كما يجب.

وهكذا نُقلتْ «تيتا»، منذ ذلك اليوم، إلى المطبخ، وفيه ترعرعت، مفعمة بالصحة والحيوية، على شايات أعشاب متنوعة وأصناف من «الأتوليه»[1]. وهذا ما يفسر تطور حاسة سادسة لديها بشأن كل ما له علاقة بالطعام. فعاداتها الغذائية، على سبيل المثال، كانت تتوافق مع مواعيد المطبخ: حين تشم «تيتا» في الصباح أن الفاصوليا قد سُلقت، أو حين تشعر في منتصف النهار أن الماء صار جاهزًا لنتف الدجاج، أو حين يُخبز الخبز في المساء من أجل العشاء، تدرك أن موعد طلب طعامها قد حان.

كانت تبكي أحيانًا من دون مسوغ، عندما تقطع «ناتشا» البصل مثلًا، ولكن كلتيهما لم تكونا تأخذان تلك الدموع على محمل الجد، لأنهما تعرفان سببها. بل كانت تتحول إلى مسوغ للدعابة، وقد بلغ الأمر بـ«تيتا» في طفولتها حدَّ عدم التمييز جيدًا

---

(١) مشروب مكسيكي قديم ترجع أصوله إلى ما قبل وصول الإسبان إلى العالم الجديد. قوامه الماء أو الحليب ومسحوق الذرة، وقد يضاف إليه بعض المواد الأخرى لتحسين المذاق. وبعد طبخه يتحول إلى هلام يشبه العصيدة. (المترجم).

بين دموع الضحك ودموع البكاء. فالضحك في نظرها مجرد طريقة أخرى في البكاء.

وبالطريقة نفسها كانت تخلط بين متعة العيش ومتعة الطعام. لم يكن من السهل على شخص مثلها، عرف الحياة من خلال المطبخ، أن يفهم العالم الخارجي. ذلك العالم الفسيح الذي يبدأ من باب المطبخ نحو داخل البيت، لأن العالم المتاخم لباب المطبخ الخلفي الذي يؤدي إلى الفناء، وإلى البستان، ثم إلى حقل الخضراوات، ينتمي إليها بكامله، وتتحكم فيه، خلافًا لأختيها اللتين يُخيفهما ذلك العالم وتريان أنه يغص بأخطار مجهولة. ويبدو لهما اللعب في المطبخ أمرًا غير معقول وينطوي على مجازفة، وقد تمكنت «تيتا»، مع ذلك، من إقناعهما في أحد الأيام بروعة رؤية مشهد قطرات الماء تتراقص وهي تسقط على صفيحة حديد ساخن.

ولكن بينما كانت «تيتا» تغني وتهز يديها المبتلتين بحركة إيقاعية كي تتساقط قطرات الماء على صفيحة الحديد و«تتراقص»، ظلت «روساورا» في أحد الأركان، مشدوهة مما تراه. أما «خيرترووديس» بالمقابل، ومثلما يحدث لها مع كل تداخل إيقاعي أو حركي أو موسيقي، وجدت نفسها منجذبة بشدة إلى اللعبة وانضمت إليها بحماسة. عندئذ لم يبق أمام «روساورا» خيار آخر إلا محاولة المشاركة. وبما أنها لم تكد تبلل يديها بالماء، وراحت تفعل ذلك بكثير من الخوف، فإنها لم تتوصل إلى التأثير المرجو. فحاولت «تيتا» عندئذ مساعدتها على تقريب يديها من صفيحة الحديد الساخنة. قاومت

«روساورا» ذلك، ولم يتوقف الصراع إلا عندما عمدت «تيتا»، بحنق شديد، إلى أن تفلت يدي أختها اللتين سقطتا، بفعل العطالة، على الصفيحة المتوقدة. وفضلًا عن أن ذلك تسبب لـ«تيتا» بتلقي الضرب، فقد حُرمتْ من اللعب مع أختيها في عالمهما. عندئذ تحوَّلت «ناتشا» إلى رفيقتها في اللعب والتسلية. وقد انهمكتا معًا في اختراع ألعاب وأنشطة مرتبطة بالمطبخ دائمًا. مثلما حدث يوم رأتَا في ساحة القرية رجلًا يصنع أشكال حيوانات ببالونات طويلة فخطر لهما محاكاة تلك الآلية، ولكن باستخدام قطع سجق بدلًا من البالونات. ولم تقتصرا على استخدام السجق في تركيب أشكال حيوانات معروفة وحسب، بل اختلقتا كذلك حيوانات نقتصر على ذكر واحد منها له رقبة بجعة وقوائم كلب وذيل حصان.

كانت المشكلة تظهر حين يكون عليهما تفكيك تلك الحيوانات من أجل قلي السجق. ففي معظم الأحيان ترفض «تيتا» ذلك. والطريقة الوحيدة لجعلها تتقبله طوعًا هي قيامهما بتفكيك السجق لتحضير فطائر عيد الميلاد التي تفتنها. فلا تكتفي بالسماح عندئذ بإتلاف أحد حيواناتها وحسب، بل تبتهج أيضًا برؤيته يُقلى.

يجب الحرص على قلي سجق الفطائر على نار هادئة جدًّا، من أجل أن ينضج جيدًا، ولكن من دون المبالغة في تحميره. وحين يصبح جاهزًا يُرفع عن النار ويضاف إليه السردين الذي يكون قد انتُزع هيكله العظمي. ولا بد كذلك من كشط البقع السوداء التي على جلد السردين بسكين. ويُخلط مع السردين

البصل والفلفل المقطَّع والأوريجانو المطحون. وتترك هذه التتبيلة لترتاح قبل حشو الفطائر بها.

«تيتا» تستمتع كثيرًا بهذه الخطوة، فبينما الحشوة ترتاح، يكون مبهجًا جدًّا الاستمتاع بالرائحة التي تفوح منها، لأن للروائح خاصية إعادة إنتاج أزمنة غابرة جنبًا إلى جنب مع أصوات وروائح لا مثيل لها في الحاضر. كان يروق لـ«تيتا» الاستنشاق بعمق والرحيل مع الدخان والرائحة شديدة التميز التي تشمها في ثنايا ذاكرتها. كانت تحاول، من دون طائل، أن تستذكر المرة الأولى التي شمت فيها رائحة واحدة من تلك الفطائر، ولكن من دون أن توصلها إلى نتيجة، لأن ذلك قد يعود إلى ما قبل مولدها. ربما كانت توليفة السردين والسجق الغريبة قد لفتت انتباهها بقوة جعلتها تقرر التخلي عن سلام الأثير واختيار بطن ماما «إيلينا» لتكون أمها وتنضم بهذه الطريقة إلى عائلة «دي لا جارثا» التي تأكل اللذائذ وتُحضر سجقًا بالغ الخصوصية.

تحضير السجق في مزرعة ماما «إيلينا» يشكل طقسًا متكاملًا. فعليهم في اليوم السابق البدء بتقشير الثوم وتنظيف الفلفل وطحن التوابل. وعلى نساء الأسرة جميعًا المشاركة: ماما «إيلينا»، وبناتها «خيرترووديس» و«روساورا» و«تيتا»، والطاهية «ناتشا»، والخادمة «تشينتشا». يجلسن جميعهنَّ في المساء إلى منضدة قاعة الطعام، ووسط تبادل الأحاديث والمزاح يمر الوقت سريعًا حتى بدء حلول الظلام. عندئذ تقول ماما «إيلينا»:

ـ نكتفي اليوم بهذا.

يقال إن حسن الفهم بقلة الكلام، وهكذا بعد أن يسمعنَ هذه

الجملة يعرفن جميعهن ما عليهن عمله. لا بد لهن أولًا من تنظيف المنضدة، ثم يتوزعن بعد ذلك الأعمال: إحداهن تُدخل الدجاج إلى الخمِّ، وأخرى تُخرج ماءً من البئر وتجهزه للاستخدام في الفطور، وأخرى تجمع الحطب للمدفأة. وفي ذلك اليوم لا يقمن بالكيِّ أو التطريز أو خياطة ملابس. ثم يذهبن بعد ذلك إلى غرف نومهن للقراءة والصلاة والنوم. في إحدى تلك الأمسيات، وقبل أن تقول ماما «إيلينا» إنه يمكنهن النهوض من حول المنضدة، أخبرتها «تيتا» بصوت مرتجف، وكانت آنذاك في الخامسة عشرة من عمرها، بأن «بيدرو موثكيث» يريد المجيء للتحدث معها...

قالت ماما «إيلينا» بعد صمت غير نهائي أصاب روح «تيتا» بالانقباض:

ـ وما الذي يريد هذا السيد المجيء للتحدث فيه؟

فردَّت «تيتا» بصوت يكاد لا يُسمع:

ـ لا أعرف.

صوبت إليها ماما «إيلينا» نظرة بدت لـ«تيتا» أنها تتضمن كل سنوات القمع التي تطفو فوق الأسرة وقالت:

ـ من الأفضل أن تخبريه ألا يأتي إذا كان مجيئه من أجل طلب يدك، لأنه سيضيع وقته ووقتي. أنت تعرفين جيدًا أن كونك أصغر بناتي يفرض عليك تولي رعايتي حتى وفاتي.

قالت ماما «إيلينا» ذلك ونهضت واقفة بتمهل، ثم خبأت نظارتها في مريلتها وكررت كأمر أخير:

ـ لقد اكتفينا اليوم بهذا!.

كانت «تيتا» تعرف أن الحوار غير وارد ضمن قواعد التواصل في البيت، ولكنها حاولت مع ذلك، لأول مرة في حياتها، أن تعترض على أمر صدَر عن أمها.

ـ لكن رأيي أنه...

ـ أنت لا رأي لك في أي شيء، وانتهى الأمر! لا أحد في أسرتي، طوال أجيال، اعترض على هذه العادة، ولن تكون إحدى بناتي مَن تفعل ذلك.

أحنت «تيتا» رأسها، وانقض عليها قدرها بالقوة نفسها التي انسكبت بها دموعها على المنضدة. وعرفتْ هي والمنضدة، منذ تلك اللحظة، أنه لا سبيل إلى حدوث أدنى تعديل في توجه تلك القوى المجهولة التي تجبر المنضدة على مشاركة «تيتا» المصير بتلقيها دموع مرارتها منذ لحظة مولدها، وتجبر «تيتا» على الرضوخ لذلك القرار غير المعقول.

ومع ذلك لم تكن «تيتا» راضية عن قدَرها. وكان قَدْر كبير من الشكوك والقلق يتوارد إلى ذهنها. فهي ترغب، مثلًا، في أن تعرف مَن الذي بدأ ذلك التقليد العائلي. لأنه سيكون من المناسب جعل ذلك الشخص العبقري يعلم أن خطته المحكمة لتأمين شيخوخة النساء تتضمن عيبًا صغيرًا. فإذا كان لا يمكن لـ«تيتا» أن تتزوج وتنجب أبناء، من سيعنى بها إذًا في شيخوختها؟ وما الحل الصائب في هذه الحالات؟ أم إنه لا يُؤمل أن تعيش البنات اللاتي يرعين أمهاتهن طويلًا بعد وفاة الأمهات؟ وأين تبقى النساء اللاتي يتزوجن ولا ينجبن أبناء، من سيتولى رعايتهن؟ وكانت تريد أن تعرف أيضًا ما الأبحاث التي قادت إلى نتيجة أن

الابنة الصغرى، وليست الكبرى، هي المناسبة أكثر من سواها للسهر على أمها؟ وهل أُخذ في الاعتبار ذات مرة رأي البنات المتضررات؟ وهل يسمح لها، ما دامت لا تستطيع الزواج، أن تعرف الحب على الأقل؟ أم إن ذلك غير ممكن أيضًا؟

كانت «تيتا» تعرف جيدًا أن مصير كل هذه التساؤلات هو الانتقال بلا مفر إلى أن تشكل جزءًا من ملف الأسئلة التي لا جواب لها. فلا بد في عائلة «دي لا جارثا» من الطاعة وحسب. تجاهلتها ماما «إيلينا» تمامًا، وخرجت من المطبخ غاضبة جدًّا، ولم تتوجه إليها بكلمة واحدة طوال أسبوع.

تَجَدَّدَ شبه التواصل ذاك بينهما حين كانت ماما «إيلينا» تتفحص الفساتين التي تخيطها كل واحدة من البنات، واكتشفت أنه على الرغم من أن ما خاطته «تيتا» هو الأكثر إتقانًا، إلا أنها لم تُسَرِّج الثوب قبل خياطته. قالت لها:

ـ أهنئك. الغُرَزُ متقنة، ولكنك لم تُسرِّجيه، أليس كذلك؟

أجابت «تيتا» مذهولة من رفع قانون الصمت عنها:

ـ أجل.

ـ سوف تفككينه إذًا، ثم تُسَرِّجينه وتخيطينه مجددًا، وبعد ذلك تأتيني به لأفحصه. كي تتعلمي أن الخسيس يدفع الثمن مضاعفًا.

ـ ولكنَّ هذا يقال حين يخطئ المرء، وأنت نفسكِ قلت منذ لحظة إن شغلي هو...

ـ هل سنبدأ في التمرد مرة أخرى؟ يكفي أنك تجرأت على الخياطة منتهكة القواعد.

ـ سامحيني يا مامي، لن أعود إلى عمل ذلك.

تمكنت «تيتا» من تهدئة غضب ماما «إيلينا» بتلك الكلمات. فقد أبدت كثيرًا من الحرص وهي تنطق «مامي» في اللحظة وبالنبرة المناسبتين. ذلك أن ماما «إيلينا» ترى أن لكلمة «ماما» وقعًا مهينًا، لهذا أجبرت بناتها منذ الطفولة على استخدام كلمة «مامي» عند توجههم إليها. كانت «تيتا» هي الوحيدة التي تقاوم ذلك أو تنطق الكلمة بنبرة غير لائقة، فكان هذا سبب تلقيها ما لا حصر له من الصفعات. ولكن يا للروعة التي نطقت بها الكلمة في تلك اللحظة! لقد أحست ماما «إيلينا» بالنشوة وهي تفكر في أنها ربما تكون قد تمكنت من ترويض طبع أصغر بناتها. ولكن المؤسف أنها لم تحتفظ بهذا الأمل إلا لوقت قصير. ففي اليوم التالي حضر إلى البيت «بيدرو موثكيث» يرافقه السيد والده بنية طلب يد «تيتا». لقد أحدث وجودهما في البيت ارتباكًا كبيرًا. لم يكونوا ينتظرون زيارتهما. فمنذ أيام أرسلت «تيتا» إلى «بيدرو» تطلب منه، من خلال أخي «ناتشا»، أن يتخلى عن نواياه. وقد أقسم لها الرسول بأنه قد أوصل الرسالة إلى «دون بيدرو»، ولكن المسألة أنهما حضرَا إلى البيت. استقبلتهما ماما «إيلينا» في الصالون، وتصرفت بلطف شديد وشرحت لهما سبب عدم استطاعة «تيتا» الزواج.

ـ وطبعًا، إذا كان تزويج «بيدرو» هو ما يهمكما، فإنني ألفت انتباهكما إلى ابنتي «روساورا»، وهي أكبر بسنتين فقط من «تيتا»، ولكنها مؤهلة ومهيأة تمامًا للزواج...

حين سمعت الخادمة «تشينتشا» هذه الكلمات، كادت أن تلقي على ماما «إيلينا» صينيةَ القهوة والبسكويت التي حملتها إلى

الصالون لضيافة «دون باسكوال» وابنه. فاعتذرت وانسحبت بسرعة متجهة إلى المطبخ حيث كانت «تيتا» و«روساورا» و«خيرترووديس» ينتظرنها لتقدم لهن تقريرًا مفصلًا عما يجري في الصالون. دخلت مندفعة وتوقفن جميعهن فورًا عن أعمالهن كيلا يضيعن كلمة واحدة من كلامها.

كنَّ مجتمعات هناك من أجل تحضير فطائر عيد الميلاد. وتُصنع هذه الفطائر، كما يشير اسمها، في فترة أعياد الميلاد، ولكنهنَّ كنَّ يحضرنها هذه المرة للاحتفال بعيد ميلاد «تيتا». ففي الثلاثين من سبتمبر ستكمل ستة عشر عامًا، وتريد الاحتفال ببلوغها هذا العمر بتناول أحد أطباقها المفضلة.

ـ آه، أجل، كيف لا؟ أُمكنَّ تتكلم عن الجهوزيَّة للزواج كأنها تتكلم عن وجبة خفيفة من «الإنتشيلادا»! بل أسوأ من ذلك، فليس هذا مثل ذاك، ولا يمكن لأحد أن يستبدل بكل بساطة طبق «تاكوس» بقليل من «الإنتشيلادا»!

لم تتوقف «تشينتشا» عن تقديم هذا النوع من التعليقات بينما هي تخبرهن، على طريقتها طبعًا، بالمشهد الذي شهدته للتو. كانت «تيتا» تعرف ما يمكن أن تكون عليه المبالغة والكذب في كلام «تشينتشا»، ولهذا لم تسمح للغمِّ بأن يسيطر عليها. رفضت تقبُّل أن يكون ما سمعته حقيقيًّا. وواصلت تقطيع أرغفة خبز الصمون متظاهرة بالهدوء، كي تقوم شقيقتاها و«ناتشا» بحشوها.

يُفضل أن يُخبز خبز الصمون في البيت، ولكن إذا تعذر ذلك يكون من المناسب التوصية من المخبز على بعض الأرغفة الصغيرة، لأن الطويلة ليست ملائمة لهذه الوصفة. بعد حشو قطع

الخبز توضع في الفرن عشر دقائق وتُقدم ساخنة. والمثالي هو تركها ليلة كاملة ملفوفة بقطعة قماش كي يتشرب الخبز بدهن السجق.

حين كانت «تيتا» تنهي لفَّ الفطائر التي سيأكلنها في اليوم التالي، دخلت ماما «إيلينا» المطبخ لتخبرهن بأنها وافقت على زواج «بيدرو»... إنما من «روساورا».

ما إن سمعت «تيتا» تأكيد الخبر حتى أحست كما لو أن الشتاء قد تغلغل فجأة وبقوةٍ في بدنها: كان شديد البرودة وبالغ الجفاف إلى حدٍّ أنه أحرق خديها وصبغهما بالحمرة... حمرة لها لون التفاح الذي أمامها. وسيرافقها ذلك البرد المباغت لوقت طويل من دون أن يتمكن أيُّ شيء من التخفيف منه، ولا حتى عندما أخبرتها «ناتشا» بما سمعته حين رافقت «دون باسكوال موثكيث» وابنه حتى مدخل المزرعة. كانت «ناتشا» تمشي في المقدمة بين الأب وابنه. وكان «دون باسكوال» و«بيدرو» يسيران ببطء ويتحدثان بصوت خافت، يكبحه الغيظ:

ـ لماذا فعلتَ ذلك يا «بيدرو»؟ لقد بَدَوْنا مضحكين بقبول الزواج من «روساورا». أين ذهب الحب الذي أقسمت عليه لـ«تيتا»؟ ألا تحترم كلمتك؟

ـ إنني أحترم كلمتي طبعًا، ولكن إذا أنكروا عليك بصورة حاسمة الزواج من المرأة التي تحب، وتبين أن المخرج الوحيد الذي تركوه لك لتكون قريبًا منها هو الزواج من أختها، ألن تتخذ القرار نفسه الذي اتخذتُه؟

لم تتوصل «ناتشا» إلى سماع الرد لأن «بولكيه»، كلب المزرعة، خرج راكضًا ينبح على أرنب ظنه قطًّا.

ـ هل ستتزوج إذًا بلا شعور بالحب؟

ـ لا، يا أبي، سوف أتزوج بشعور حب هائل ودائم لـ «تيتا».

كان سماع الصوتين يتضاءل أكثر فأكثر لأن ضجة وطء الأحذية للأوراق الجافة راحت تُخمده. لقد كان غريبًا أن «ناتشا» التي ازدادت صممًا آنذاك، هي التي تقول إنها سمعت المحادثة. ومع أن روايتها تلك قد أسعدت «تيتا» إلا أنها لم تغيِّر من الفتور الذي اتخذته منذ ذلك الحين تجاه «بيدرو». يقال إن الأصم لا يسمع، وإنما يؤلف. وربما تكون «ناتشا» قد سمعت فقط الكلمات التي صمت عنها الجميع. كان مستحيلًا، في تلك الليلة، أن تجد «تيتا» سبيلًا إلى النوم. لم تكن قادرة على تفسير ما تشعر به. والمؤسف أن الثقوب السوداء في الفضاء لم تكن قد اكتُشفت بعد آنذاك، وإلا لكان من السهل جدًّا عليها حينئذٍ إدراك أن لديها ثقبًا أسودَ في منتصف صدرها تتسرب إليها منه برودة غير متناهية.

كلما أغمضت عينيها كان بإمكانها أن تعيش من جديد، وبوضوح تام، مشاهدَ ليلة عيد الميلاد من العام السابق، حين دُعي «بيدرو» وعائلته، أول مرة، للعشاء في بيتها، وكان البرد يشتد عليها. وعلى الرغم من الزمن الذي انقضى، يمكنها أن تتذكر على أكمل وجه الأصوات والروائح وحفيف أذيال فستانها الجديد على الأرضية المُشَمَّعة حديثًا؛ ونظرة «بيدرو» من فوق كتفيه... يا لتلك النظرة! كانت تتوجه إلى المائدة حاملة صينية حلوى صفار بيض عندما أحست بها متأججة تحرق بشرتها. أدارت رأسها فالتقت عيناها بعيني «بيدرو». وفي تلك اللحظة

أدركتْ بالضبط ما لا بد لعجينة الزلابية أن تشعر به عند ملامستها الزيت المغلي. كان حقيقيًّا جدًّا الإحساس بالحرارة التي اجتاحت جسدها كله إلى حدٍّ خشيت معه أن تبدأ فقاعاتٌ بالتقافز، مثل عجينة الزلابية، من بدنها كله ـ الوجه، البطن، القلب، النهدين ـ لم تستطع «تيتا» تحمُّل تلك النظرة، فخفضت بصرها واجتازت الصالون بسرعة حتى الطرف المقابل، حيث «خيرترووديس» تدير بذراع البيانولا «فالس» «عيون شابة». وضعتِ الصينية على منضدةِ وسطٍ صغيرة وتناولت ساهيةً كأس «ليكور» «نويو» وجدته في طريقها، وجلست إلى جانب «باكيتا لوبو»، جارتهن في المزرعة. ابتعادها لمسافة بعيدة عن «بيدرو» لم يفدها شيئًا. كانت تشعر بالدماء تجري متوقدة في أوردتها. غطت حمرة حياء كثيفة خديها، وعلى الرغم مما بذلته من جهد لم تجد مكانًا تستقر بنظرها عليه. لاحظت «باكيتا» أن شيئًا غريبًا يحدث لها، فسألتها وهي تبدي قلقًا كبيرًا:

ـ يا للذة هذا «الليكور»، أليس كذلك؟

ـ ماذا تعنين؟

ـ أراكِ شاردة جدًّا يا «تيتا»، هل تشعرين أنك على ما يرام؟

ـ نعم، شكرًا جزيلًا.

ـ لقد صرتِ في سن مناسبة لتناول قليل من «الليكور» في بعض المناسبات الخاصة أيتها الماكرة؛ ولكن أخبريني، هل حصلت على إذن من أمك لعمل ذلك؟ إنني أراك مضطربة ومرتجفة...

ثم أضافت بنبرة مؤثرة:

ـ من الأفضل ألا تشربي، كيلا تتسببي بمشهد متهور وغير لائق.

هذا ما كان ينقصها! أن تظنها «باكيتا» مخمورة. لا يمكنها السماح بأن تُبقي لديها أدنى شك، وإلا عرَّضت نفسها إلى تقولات تحملها «باكيتا» إلى أمها. جعلها الخوف من أمها تنسى للحظاتٍ وجود «بيدرو»، وحاولت بكل الوسائل إقناع «باكيتا» بصحو وعيها ويقظتها الذهنية. تبادلت الحديث معها ببعض النمائم والترهات. بل إنها زودتها بوصفة لتحضير شراب «النويو» الذي يقلقها كثيرًا. فهذه «الليكور» تُصنع بوضع أربع أوقيات من لوز المشمش الدراقي ونصف رطل من لوز المشمش العادي في مقدارِ مكيال «أثومبري» من الماء لأربع وعشرين ساعة، كي تلين القشرة؛ بعد ذلك يُقشر اللوز ويُفتت وينقع في لِترين من خمر عادي لخمسة عشر يومًا. بعد ذلك يبدأ التقطير. وبعد إذابة تامة لرطلين ونصف رطل سكر مطحون في الماء يضاف إليه أربع أونصات من زهر البرتقال، ثم يخلط كل ذلك ويُصفى. وكيلا يظل لدى «باكيتا» أي شك بشأن سلامتها الجسدية والذهنية، ذكرتها، بصورة مواربة، بأن مكيال «أثومبري» للسوائل يعادل ٢,٠١٦ لترًا من دون زيادة ولا نقصان.

وهكذا حين اقتربت منهما ماما «إيلينا» لتسأل «باكيتا» إن كانت تلقى حسن الضيافة، أجابتها هذه بحماسة:

ـ إنني على ما يرام! لديك بنات رائعات. والتحدث معهن فاتن!

أمرت ماما «إيلينا» ابنتها «تيتا» بأن تذهب إلى المطبخ لإحضار

بعض الشطائر لتوزيعها على جميع الحاضرين. فما كان من «بيدرو» الذي مر قريبًا منها في تلك اللحظة، ولم يكن مروره مصادفة، إلا أن عرض عليها أن يساعدها. مشت «تيتا» متعجلة باتجاه المطبخ، من دون أن تقول كلمة واحدة. فقُرب «بيدرو» منها يجعلها عصبية جدًّا. دخلت ومضت مسرعة لتناول إحدى صواني الساندويتشات اللذيذة التي تنتظر بصبر على منضدة المطبخ.

لن تنسى أبدًا تلامس يديهما العرضي عندما حاول كلاهما، بارتباك، تناول الصينية نفسها في آن واحد. وكان أن باح لها «بيدرو» حينئذٍ بحبه.

ـ آنسة «تيتا»، أريد أن أنتهز فرصة التحدث إليك على انفراد كي أقول لك إنني مغرم بك من أعماقي. أعرف أن في هذا التصريح جرأة وتسرعًا، ولكن صعوبة الاقتراب منك جعلتني أتخذ القرار بالبوح لك هذه الليلة بالذات. وما أريده فقط هو أن تخبريني إن كان بإمكاني التطلع إلى نيل حبك.

ـ لا أعرف بم أُجيبك؛ أعطني وقتًا للتفكير.

ـ لا، لا يمكنني، أحتاج إلى جوابٍ الآن بالذات. الحب لا يحتاج إلى التفكير، إما أن نشعر به أو لا نشعر. وأنا رجل قليل الكلام، ولكن كلماتي حاسمة. أقسم بأن حبي لك سيكون إلى الأبد. ماذا عن حبك؟ هل تشعرين أيضًا به نحوي؟

ـ أجل!

أجل، أجل وألف مرة أجل. لقد أحبته منذ تلك الليلة وإلى الأبد. ولكن عليها أن تنكر ذلك الآن. فمن غير الحشمة اشتهاء زوج أختها المقبل. عليها أن تزيحه من ذهنها بطريقة ما كي

تستطيع النوم. حاولت أن تأكل فطيرة الميلاد التي تركتها لها «ناتشا» فوق منضدة المكتب مع كأس حليب. وقد كان لها في مناسبات كثيرة أخرى نتائج باهرة. فـ«ناتشا» تعرف بخبرتها الطويلة أنه ما من غم تعانيه «تيتا» إلا ويتلاشى حين تأكل فطيرة ميلاد لذيذة. ولكن ليس في هذه المناسبة. فالفراغ الذي تشعر به في معدتها لا يهدأ. بل على العكس، فقد انتابها شعور بالغثيان. اكتشفت أن ذلك الفراغ ليس جوعًا؛ بل هو أقرب إلى إحساس جليدي مؤلم. كان لا بد من التخلص من ذلك البرد المزعج. وكإجراء أولي تدثرت بغطاء ثقيل وملابس صوفية. ظل البرد ثابتًا من دون تبديل. عندئذٍ انتعلت خفًّا محاكًا من صوف وتدثرت بغطاءين آخرين. لا جدوى. وأخيرًا أخرجت من سلة خياطتها الخاصة لحافًا كانت قد بدأت حياكته يوم حدثها «بيدرو» عن الزواج. لحاف كهذا، مشغول بالصنارة، ينتهي عمله في عام تقريبًا. وهذا هو بالضبط الوقت الذي فكر «بيدرو» و«تيتا» بتركه ينقضي قبل الزفاف. قررت «تيتا» الاستفادة من صوف الغزل ذاك بدلًا من تبديده، وراحت تحوك بغيظ وتبكي وتحوك، إلى أن أنهت اللحاف عند الفجر، فألقت به على جسمها. لم يفد في شيء. لم تتوصل في تلك الليلة ولا في ليال كثيرة أخرى في حياتها إلى السيطرة على البرد.

يتبع...

الوصفة التالية: قالب حلوى «تشابيلا» (لحفلة الزفاف)

٢

فبراير

قالب حلوى «تشابيلا»

المُكونات:

١٧٥ ج من السكر العادي، نوع أول
٣٠٠ ج دقيق، نوع أول، منخول ٣ مرات
١٧ بيضة
بَشْر ليمونة

طريقة التحضير

يوضع في القِدر صفارُ خمس بيضات، وأربع بيضات كاملة والسكر. يخفق ذلك كله إلى أن يصير كتلة كثيفة متماسكة، ثم تضاف إليه بيضتان أخريان كاملتان. يتواصل الخفق وعندما يصبح الخليط كثيفًا من جديد تُضاف إليه بيضتان كاملتان أخريان، وتتكرر العملية على هذا النحو حتى الانتهاء من خفق البيض كله، بيضتان فبيضتان. من أجل تحضير قالب حلوى زفاف «بيدرو» و«روساورا»، كان على «تيتا» و«ناتشا» أن تضاعفا كميات هذه الوصفة عشرة أضعاف، أي إنه بدلًا من صُنع كعكة لثمانية عشر شخصًا، كان عليهما صنعها لمائة وثمانين. أي إن المحصلة مائة وسبعين بيضة! وهذا يعني أنه لا بد لهما من اتخاذ التدابير لجمع هذه الكمية من البيض، وأن تكون بحالة ممتازة، في اليوم نفسه.

وللتوصل إلى ذلك بدأتا، قبل عدة أسابيع، بحفظ البيض الذي تضعه أفضل الدجاجات. وهذا أسلوب مُستخدم في المزرعة منذ أزمنة لا ترقى إليها الذاكرة من أجل التَّموُّن للشتاء

بهذا الغذاء الضروري المغذي. وأفضل وقت لهذه العملية يكون في شهري أغسطس وسبتمبر. ويجب أن يكون البيض المخصص للحفظ طازجًا جدًّا. وتفضل «ناتشا» أن يكون من بيض اليوم نفسه. يوضع البيض في إناء مملوء بشحم خراف مذاب حين يكون على وشك أن يبرد، بحيث تكسو البيض تمامًا طبقة من الدهن. وهذا يكفي لضمان جودة حالته عدة شهور. وإذا ما رغبنا في حفظه لأكثر من عام، يوضع البيض في خابية من الخزف ويغطى بسائل لبني من كمية كلس مذابة في عشرة أمثالها من الماء. ثم يغطى جيدًا لمنع تسرب الهواء ويحفظ في القبو. اختارت «تيتا» و«ناتشا» الخيار الأول، لأنهما لم تكونا بحاجة إلى حفظ البيض لشهور طويلة. وإلى جانبهما، تحت منضدة المطبخ، كان يقبع الوعاء الذي وضعتا البيض فيه، ومنه كانتا تتناولانه لصنع قالب الحلوى.

الجهد الهائل الذي يتطلبه خفق كل ذلك البيض بدأ يؤثر على عقل «تيتا» عند وصولهما إلى خفق نحو مائة بيضة. وبدا لهما مستحيلًا الوصول إلى الرقم ١٧٠.

كانت «تيتا» تخفق البيض بينما تقوم «ناتشا» بكسر قشرته وإضافته إلى الخليط. اجتاحت قشعريرةٌ بدنَ «تيتا»، أو صارت بشرتها مثل جلد دجاجة كما يقال بالعامية، مع كسر كل بيضة. كانت تربط في ذهنها بين خليط البيض المخفوق وخصي فراخ الديكة التي أُخصيت قبل شهر. الديوك المخصية هي التي تُخصى لتسمينها. وقد اختير هذا الطبق لتقديمه في حفل زفاف «بيدرو» و«روساورا» لأنه من أشهر الأطباق في المآدب المتميزة، سواء

بسبب الجهد الذي يتطلبه تحضيره أم بسبب مذاق الديوك المخصية الاستثنائي.

منذ حُدِّد موعد الزفاف في الثاني عشر من يناير، طُلب شراء اثني عشر فرخ ديك أُجريت لها عملية إخصاء وبُدئ بتسمينها فورًا.

وقد كُلفت «تيتا» و«ناتشا» بتلك المهمة. «ناتشا» لخبرتها و«تيتا» عقابًا لها لأنها لم تشأ الحضور يوم جاؤوا لطلب يد أختها «روساورا»، وتذرعت بأنها تعاني صداعًا.

قالت لها ماما «إيلينا»:

ـ لن أسمح بتمردك، ولن أسمح لك بأن تقوضي زواج أختك بتصرفك كضحية. سوف تتولين منذ الآن الإعدادات للمأدبة، وحذار أن أرى في وجهك لمحة استياء أو دمعة واحدة، هل سمعتِني؟

حاولت «تيتا» عدم نسيان هذا التنبيه بينما هي تتأهب لبدء أول عملية. تتلخص عملية الإخصاء بإحداث شق في الجزء الذي يغطي خصيتي فرخ الديك، ثم يُدس الإصبع للبحث عنهما وتنتزعان. بعد تنفيذ ذلك يخاط الجرح ويُدلك بزبد طازج أو بشحم طيور. أوشكت «تيتا» على فقدان وعيها حين دست إصبعها وانتزعت خصيتي أول ديك. كانت يداها ترتجفان، وكانت تتصبب عرقًا غزيرًا ومعدتها تتقلب عليها مثل طيارة ورقية في الفضاء. وجهت إليها ماما «إيلينا» نظرة ثاقبة وقالت لها:

ـ ماذا أصابك؟ لماذا ترتجفين؟ هل سنبدأ بالمشاكل؟

رفعت «تيتا» بصرها ونظرت إليها. أحست برغبة في أن

تصرخ بها أن أجل، توجد مشاكل، وأنها أساءت اختيار الشخص المناسب لإخصاء الديوك، لأنها هي نفسها الشخص المناسب، فبهذه الطريقة يمكنها أن تجد مسوغًا حقيقيًّا، على الأقل، لإنكارها عليها الزواج واتخاذ «روساورا» مكانها إلى جانب الرجل الذي أحبته هي. قرأت ماما «إيلينا» نظرتها، فاستشاطت غضبًا ووجهت إلى «تيتا» صفعة مدوية أسقطتها أرضًا إلى جانب الديك الذي نفق بسبب سوء إجراء العملية.

كانت «تيتا» تخفق البيض وتخفقه بهياج، كما لو أنها تريد التخلص مرة واحدة وإلى الأبد من العذاب. لم يبق عليها سوى خفق بيضتين أخريين لتصبح عجينة قالب الحلوى جاهزة. كان هذا هو ما ينقصها، وكلُّ ما عداه، بما في ذلك أطباق المأدبة المؤلفة من عشرين صنفًا والشطائر التي ستقدم مسبقًا، كانت كلها جاهزة للوليمة. لم يبق أحد في المطبخ إلا «تيتا» و«ناتشا» وماما «إيلينا». بينما كانت «تشينتشا» و«خيرترووديس» و«روساورا» يضعن اللمسات الأخيرة على فستان العروس. تناولت «ناتشا» بارتياح عظيم البيضة قبل الأخيرة لتكسرها، لكن «تيتا» أطلقت صيحة منعتها من عمل ذلك:

ـ لا!

توقفت «تيتا» عن خفق البيض وأخذت البيضة بين يديها. كانت تسمع بوضوح أن فرخًا يزقزق داخل القشرة. قرَّبت البيضة من أذنها وسمعت الزقزقة بقوة أكبر. أوقفت ماما «إيلينا» عملها وسألت بصوت متسلط:

ـ ماذا حدث؟ ما هذه الصرخة؟

ـ هنالك فرخ في هذه البيضة! لا يمكن لـ«ناتشا» بكل التأكيد أن تسمعه، أما أنا فسمعته.

ـ فرخ؟ أأنت مجنونة؟ لم يحدث مثل هذا قط بالبيض المحفوظ!

وبخطوتين واسعتين وصلت إلى حيث تقف «تيتا»، وانتزعت البيضة من يديها وكسرتها. أغمضت «تيتا» عينيها بقوة.

ـ افتحي عينيك وانظري فرخك!

فتحت «تيتا» عينيها ببطء. وفوجئت وهي ترى أن ما ظنته فرخًا لم يكن سوى بيضة، وبيضة طازجة جدًّا في الواقع.

ـ اسمعيني جيدًا يا «تيتا»، إنك تُفقدينني الصبر، لن أسمح لك بأن تبدئي بحماقات. ستكون هذه أول وآخر حماقة! وإلا فإنني أؤكد لك أنك ستندمين!

لم تستطع «تيتا» أن تفسر أبدًا ما حدث في تلك الليلة، وما إذا كان ما سمعته نتيجة الإرهاق أم إنه هلوسة من ذهنها. والأنسب لها الآن أن تعود إلى خفق البيض، لأنها غير راغبة في تقصي ما هي حدود صبر أمها.

عند الانتهاء من خفق البيضتين الأخيرتين، يضاف بَشْر الليمونة؛ وعندما تصبح كثافة العجينة كافية، يتوقف الخفق ويضاف الدقيق المنخول شيئًا فشيئًا بملعقة خشبية إلى أن تضاف الكمية كلها. وأخيرًا يُدهن قالبٌ بالزبد، ويُرش بالدقيق وتسكب فيه العجينة. ثم يُطهى في الفرن لثلاثين دقيقة.

بعد أن أعدتْ، في ثلاثة أيام، عشرينَ صِنفًا مختلفًا من

المأكولات، أنهِكت «ناتشا» إلى حدٍّ كادت تموت من التعب، ولم تعد تنتظر إلا أن يحين موعد إدخال قالب الحلوى إلى الفرن كي تتمكن أخيرًا من الذهاب للراحة. ويمكننا القول إن «تيتا» لم تكن في هذه المرة مُساعِدة جيدة. فهي لم تتذمر في أي لحظة، ربما لأن نظرة أمها المتفحصة لم تكن تسمح لها بذلك، ولكنها ما إن رأت ماما «إيلينا» تخرج من المطبخ وتتوجه إلى حجرتها حتى أطلقت زفرة طويلة. فانتزعت «ناتشا» التي كانت بجوارها الملعقة الخشبية من يدها برفق وعانقتها قائلة لها:

ـ لم يعد أحد في المطبخ يا صغيرتي، ابكي الآن، لأنني لا أريد لأحد أن يراك تبكين غدًا. وبخاصة «روساورا».

أوقفت «ناتشا» خفق البيض لأنها أحست بأن «تيتا» على شفا انهيار عصبي، حسن، لم تكن تعرف الحالة بهذا الاسم طبعًا، لكنها كانت تدرك بحكمتها الكبيرة أن «تيتا» ليست قادرة على تحمل المزيد. والحقيقة أنها هي نفسها أيضًا لم تعد قادرة على تحمل المزيد. فالعلاقة بين «روساورا» و«ناتشا» لم تكن حسنة قط. إذ إن «ناتشا» تتضايق كثيرًا من أن لـ«روساورا» نزواتها في الطعام منذ الطفولة. فقد كانت تترك طعامها في الطبق من دون أن تمسه، أو تقدمه خفيةً إلى «تيكيلا»، أبي «بولكيه» (كلب المزرعة). فكانت «ناتشا» تقدم لها «تيتا» كمثال يحتذى، لأنها تأكل جيدًا وتأكل أي شيء على الدوام. حسن. هنالك صنف واحد من الطعام فقط لا يروق لـ«تيتا»، إنه البيض نصف المسلوق الذي كانت ماما «إيلينا» تجبرها على تناوله. وما عدا ذلك، ولأن «ناتشا» هي من تولت تعليمها الطبخ، فإنها تعرف أن

«تيتا» لم تكن تأكل الأطعمة المعهودة وحدها، بل كانت تأكل كذلك البق البري، ديدان الصبَّار وبرغوث الماء وقوارض الباكا والمدرع... وغيرها، مما كانت تستفظعه «روساورا». ومن هنا تولد نفور «ناتشا» من «روساورا» والخصومة بين الشقيقتين التي تُوجت بهذا الزفاف الذي ستتزوج فيه «روساورا» من الرجل الذي تحبه «تيتا». وما لم تكن «روساورا» تعرفه، وإن كانت تراودها الشكوك بشأنه، هو أن «بيدرو» يحب «تيتا» حبًّا لا حدود له. وبهذا يصبح مفهومًا انحياز «ناتشا» إلى «تيتا» ومحاولتها تجنيبها المعاناة بكل السبل. كانت «ناتشا» تمسح بمريلتها الدموع التي تسيل على وجه «تيتا» وتقول لها:

ـ كفى يا ابنتي، لقد أوشكنا على الانتهاء.

ولكنهما تأخرتا أكثر مما هو معهود لأن عجينة قالب الحلوى لم تتماسك بسبب دموع «تيتا».

وهكذا، بينما هما متعانقتان، واصلتا البكاء إلى أن لم تبق دموع في عيني «تيتا». عندئذ بكت بكاء جافًّا بلا دموع، وهو بكاء أشد ألمًا كما يقال، مثله مثل الولادة الجافة، ولكنه لم يعد يبلل على الأقل عجينة قالب الحلوى، ما أتاح الانتقال إلى الخطوة التالية، وهي الحشوة.

الحشوة:

١٥٠ ج مربى المشمش

١٥٠ ج سكر عادي

طريقة التحضير

توضع ثمار المشمش على النار في قليل من الماء، تُترك حتى تغلي ثم تُصفى بغربال أو منخل، وإن لم يتوفر يمكن استخدام مصفاة عادية. توضع هذه العجينة في قدر، ويضاف السكر وتوضع على النار من دون التوقف عن تحريكها إلى أن تتخذ قوام المربى. ترفع عندئذ عن النار وتترك لتبرد قليلًا قبل وضعها في وسط الكعكة التي تكون قد قُسمت مسبقًا بالطبع إلى قسمين.

لحسن الحظ أن «ناتشا» و«تيتا» كانتا قد أعدتا، قبل شهر من موعد الزفاف، عدة برطمانات من مربى المشمش والتين وهلام الأناناس. فجنَّبهما ذلك مشقة إعداد المربى في اليوم نفسه.

كانتا معتادتين على تحضير كميات هائلة من المربيات في قدر كبيرة توضع في الفناء، للاستفادة من فاكهة الموسم. تضعان القدر الكبيرة على موقد، ومن أجل تحريك المُربى في القدر تضطران إلى تغطية ذراعيهما بملاءات قديمة. فهذا يحول من دون تطاير فقاعة منه وحرق بشرتيهما.

عندما فتحت «تيتا» البرطمان أحالتها رائحة المشمش إلى مساء اليوم الذي صنعتا فيه المربى. كانت «تيتا» آتية من البستان حاملة الثمار في تنورتها لأنها نسيت إحضار السلة. وكانت ترفع أطراف التنورة حين دخلت المنزل، وكم فوجئت عندما التقت مواجهة مع «بيدرو» في المطبخ. كان «بيدرو» يتوجه إلى الفناء الخلفي لتهيئة العربة. إذ عليهم الذهاب إلى القرية لتسليم بعض الدعوات، وبما أن السائس لم يحضر في ذلك اليوم إلى

المزرعة، فقد اضطر هو نفسه إلى تولي ذلك العمل. حين رأته «ناتشا» يدخل المطبخ خرجت شبه راكضة متعللة بالذهاب لإحضار بعض زهر «اللأيباثوتية» لتضيفه إلى الفاصوليا. أما «تيتا» فأوقعت منها المفاجأة بعض ثمار المشمش على الأرض، فهرع «بيدرو» لمساعدتها في جمعها. وعندما انحنى استطاع رؤية جزء من ساقي «تيتا» المكشوفتين.

وحين حاولت «تيتا» تجنب نظرات «بيدرو»، أفلتت تنورتها.

وما إن فعلت ذلك حتى تدحرجت بقية ثمار المشمش على رأس «بيدرو».

ـ المعذرة يا «بيدرو». هل آلمتكَ؟

ـ ليس بالدرجة التي آلمتكِ أنا بها، دعيني أخبرك بأن غرضي...

ـ لم أطلب منك أي تفسير.

ـ من الضروري أن تسمحي لي بأن أوجه لك بعض الكلمات...

ـ فعلتَ ذلك مرة ووجدتُ أنها كانت كذبة، لا أريد سماع كلمات أخرى...

قالت «تيتا» ذلك وخرجت مسرعة من المطبخ باتجاه الصالون، عبر الباب الآخر، حيث كانت «تشينتشا» و«خيرترووديس» تطرزان ملاءة الزفاف. إنها ملاءة من الحرير الأبيض، تعكفان على تطريز دقيق لحواف ثقب في منتصفها. ذلك الثقب مكرس لإظهار الأجزاء النبيلة وحدها من جسد

العروس في لحظات الزوجين الحميمة. والحقيقة أنهن كن محظوظات بتمكنهن من الحصول على حرير فرنسي في تلك الفترة من انعدام الاستقرار السياسي. فالثورة لم تكن تتيح للمرء السفر بطريقة آمنة عبر البلاد؛ ولولا وجود صيني يحترف التهريب لما أتيح لهن الحصول على القماش، لأن ماما «إيلينا» ما كانت ستسمح لأيٍّ من بناتها بمجازفة الذهاب إلى العاصمة لشراء ما هو ضروري لفستان «روساورا» وجهاز عرسها. لقد كان ذلك الصيني على قدر كبير من الدهاء؛ فهو يبيع في العاصمة متقبلًا أوراق نقد جيش الشمال الثوري الشمالي، وهي نقود عديمة القيمة هناك وغير متداولة. وكان يتقبلها بأسعار زهيدة طبعًا، ثم يسافر بتلك الأموال إلى الشمال، حيث تكتسب أوراق النقد سعرها الحقيقي، فيشتري بها بضاعة.

وفي الشمال، كان يقبل أوراق النقد الصادرة في العاصمة بأسعار بائسة، وقد أمضى مرحلة الثورة كلها على تلك الحال إلى أن تحول في النهاية إلى مليونير. ولكن المهم أن الفضل له في تمكن «روساورا» من الحصول على أفخر الأقمشة وأروعها من أجل زفافها.

ظلت «تيتا» كالمنوَّمة، تتأمل بياض الملاءة؛ كان ذلك للحظات فقط، ولكنها كافية لأن تسبب لها نوعًا من العمى. فحيثما وجهت نظرها لا تميز سوى اللون الأبيض. أما «روساورا» المنكبة على كتابة بعض الدعوات بخط يدها، فبدت لها شبحًا ثلجي البياض. وقد تمكنت من أن تخفي جيدًا ما حدث لها، فلم يلحظه أحد.

لم تشأ استدراج ماما «إيلينا» إلى توجيه تعنيف آخر لها. وهكذا، حين حضر آل «لوبو» ليقدموا هديتهم للزفاف، حاولت شحذ حواسها لتتبين من تصافحهم، ذلك أنهم كانوا يبدون لها أشبه باستعراض أشباح خيال ظل مغطاة بملاءة بيضاء. ولحسن الحظ أن صوت «باكيتا» الزاعق وفَّر لها مفتاح حلٍّ واستطاعت مصافحتهم من دون مشكلة تُذكر.

وفيما بعد، حين رافقتهم إلى مدخل المزرعة، لاحظت أن الليل نفسه يتبدى لها مثلما لم تره من قبل قطُّ: مشعًّا بضياء فجر.

شعرت بالخوف من أن يحدث لها الشيء نفسه في تلك اللحظات؛ فمهما حاولت عندئذٍ التركيز على تحضير «الفوندان» لتغطية قالب الحلوى، لم تكن تستطيع ذلك. كان بياض السكر يبث فيها الذعر، وتشعر بأن اللون الأبيض سيهيمن بين لحظة وأخرى على عقلها، من دون أن تتمكن من الحيلولة دون ذلك، وهي تستحضر في ذهنها صور طفولتها البريئة حين أخذوها في شهر مايو مرتدية ثوبًا أبيض لتقدم زهورًا بيضاء للسيدة العذراء. رأت نفسها تدخل وسط رتل طفلات يلبسن البياض، حتى الوصول إلى المذبح المترع بشموع وزهور بيضاء والمضاء بنور سماوي أبيض آتٍ من زجاج الكنيسة البيضاء. لم تدخل مرة إلى الكنيسة إلا وحلمت بأنها ستدخلها يومًا متأبطة ذراع رجل. لم يكن عليها أن تكبح هذه الذكرى وحدها، وإنما كل تلك الذكريات التي تؤلمها: عليها أن تنهي «الفوندان» لتزيين كعكة زفاف أختها، وببذل جهد فائق بدأت بإعداده.

مكونات «الفوندان»:

٨٠٠ ج سكر

٦٠ قطرة ليمون والماء الكافي لبلل السكر

طريقة التحضير

يوضع السكر والماء على النار في قِدر من دون التوقف عن تحريكه حتى يبدأ بالغليان. يُصفى في قِدرٍ أخرى ويعاد وضعه على النار مع إضافة الليمون إليه إلى أن يتخذ هيئة كتلة رخوة، مع تنظيف حواف القِدر بين حين وآخر بخرقة رطبة كيلا يتسكَّر الخليط. وحين يتخذ الحالة المذكورة أعلاه يُفرغ في قِدر أخرى رطبة، يرش سطحه بندى خفيف ويترك ليبرد قليلًا.

يُخفق بعد ذلك بملعقة خشبية إلى أن يتحول إلى عجينة.

ومن أجل استعماله تضاف إليه ملعقة حليب ويعاد وضعه على النار مرة أخرى كي يتحلل قليلًا، ثم تضاف إليه قطرة من مادة ملوِّنة ويطلى به الجزء العلوي من قالب الحلوى فقط.

لاحظت «ناتشا» أن «تيتا» ليست على ما يرام حين سألتها هذه إن كانت لا تريد أن تضيف المادة الملوِّنة.

ـ لقد أضفتها للتوِّ يا صغيرتي، ألا ترين اللون الوردي الذي صار إليه؟

ـ لا...

ـ اذهبي للنوم يا صغيرتي، سأنهي أنا إعداد كريمة «التورُّون»

اللازمة. القدور وحدها تعرف ما يعنيه غليان الحساء فيها، ولكنني أحدس ما بك. وتوقفي عن البكاء لأنك تبللين لي «الفوندان» ولن يعود ينفع، هيا، اذهبي.

غمرت «ناتشا» «تيتا» بالقبلات ودفعتها خارج المطبخ. ليس معروفًا من أين أخرجت دموعًا جديدة، ولكنها أخرجتها على أي حال وبدَّلت بها قوام «التورُّون». وستكلفها استعادةُ قوامه الآن مجهودًا مضاعفًا. وحين صارت وحدها، انهمكت بمهمة إكمال «التورُّون» بأسرع ما يمكن كي تذهب للنوم. يُحضَّر «التورُّون» من زلال عشر بيضات و٥٠٠ جرام سكر وخفق الخليط جيدًا بقوة.

عندما انتهت، خطر لها أن تتذوق «الفوندان» بطرف إصبعها لترى إن كانت دموع «تيتا» قد أحدثت تبدلًا في مذاقه. لا، لم يتبدل مذاقه ظاهريًّا، ولكن من دون أن تدري «ناتشا» السبب، أحست فجأة بحنين عظيم يهيمن عليها. تذكرتْ، واحدة فواحدة، كل مآدب حفلات الزفاف التي أعدتها لآل «دي لا جارثا» وهي تأمل أن تكون المأدبة التالية هي مأدبة حفل زفافها. وبعد بلوغها الخامسة والثمانين الآن لم يعد البكاء مجديًا ولا التحسر على عدم مجيء تلك المأدبة ولا حفل الزفاف المنتظر، على الرغم من أن العريس قد جاء حقًّا، يا لمجيئه من مجيء! وكل ما جرى أن ماما «إيلينا» تولت إقصاءه ودفعه إلى الهروب. ومنذ ذلك الحين ارتضت الاكتفاء بالاستمتاع بحفلات زفاف الآخرين، وهذا ما فعلته طوال سنين من دون تململ. لم تكن تعرف لماذا تفعل ذلك الآن. كانت تشعر أنها حماقة كبيرة ولكن لا يمكنها التوقف عن عمل ذلك. غطت قالب الحلوى بكريمة

«التورُّون» بأفضل ما استطاعت وذهبت إلى حجرتها وهي تشعر بألم شديد في صدرها. بكت طيلة الليل، ولم تجد في اليوم التالي ما يكفي من حماسة لحضور حفلة الزفاف.

كان يمكن لـ«تيتا» أن تقدم أي شيء مقابل أن تكون مكان «ناتشا»، لأنها ليست مجبرة مثلها على أن تكون حاضرة في الكنيسة وحسب، مهما كان ما تشعر به، بل عليها أيضًا أن تكون متيقظة إلى عدم ظهور أي انفعالات على وجهها. وكانت تظن أن بإمكانها التوصل إلى ذلك طالما نظرتها لا تلتقي بنظرة «بيدرو». لأن حدوث ذلك قادر على تقويض الطمأنينة والهدوء اللذين تتظاهر بهما.

كانت تعلم أنها هي من ستكون محط الاهتمام أكثر من أختها «روساورا». فما يريده المدعوون، أكثر من رغبتهم في القيام بواجب اجتماعي، هو التلذذ بفكرة معاناتها وعذابها، ولكنها لن تتيح لهم تلك المتعة، لا. يمكنها أن تشعر بوضوح كيف يخترق ظهرها تهامس الحاضرين لدى مرورها.

ـ أرأيتِ «تيتا»؟ يا للمسكينة، أختها ستتزوج من حبيبها. لقد رأيتهما معًا ذات يوم في ساحة القرية، وكل منهما يمسك بيد الآخر. ويا للسعادة التي كانت تبدو عليهما!

ـ حقًّا؟ و«باكيتا» تتحدث عن كيف أنها رأت في أحد الأيام «بيدرو»، في أثناء القداس في الكنيسة، وهو يعطي «تيتا» خفية رسالة حب... رسالة معطرة وكل ما إلى ذلك!

ـ يقولون إنهما سيعيشان في البيت نفسه! لو أنني مكان «إيلينا» لما سمحت بذلك!

ـ لا أعتقد أنها ستسمح به. فأنت ترين كيف تنتشر التقولات!

لا تروقها بأي حال مثل هذه التعليقات. فدور الخاسرة لم يُكتب لها. كان عليها أن تتخذ موقف انتصار واضح! وكممثلة قديرة أدت دورها بجدارة، وحاولت ألا يكون ذهنها منشغلًا بتقدم العريسين ولا بكلمات الكاهن ولا بخاتمي الزفاف.

حولت تفكيرها إلى اليوم الذي كانت فيه في التاسعة من عمرها وذهبت بمظهر صبي مع أطفال القرية. كان محظورًا عليها اللعب مع ذكور، ولكنها كانت ضجرة من اللعب مع أختيها. وقد ذهبوا يومئذ إلى ضفة النهر الكبير ليروا من هو القادر منهم على عبوره سباحة في أقصر وقت. ويا للسعادة التي شعرت بها في ذلك اليوم حين فازت.

وانتصار آخر من انتصاراتها حدث في يوم أحد هادئ في القرية. كان عمرها أربعة عشر عامًا، وكانت تتنزه في عربة برفقة أختيها حين أطلق بعض الصبية سهمًا ناريًّا. فانطلقت الأحصنة تعدو مذعورة، وجمحت خارج القرية وفقد الحوذي السيطرة على العربة.

أزاحته «تيتا» جانبًا بدفعة قوية وتمكنت بمفردها من السيطرة على الخيول الأربعة. وعندما لحق بهن بعض رجال القرية على خيولهم لمساعدتهن، قدروا عاليًا مأثرة «تيتا».

وقد استقبلوها في القرية كبطلة.

هذه الذكريات وذكريات كثيرة أخرى مماثلة استبقتها مشغولة خلال طقوس الزفاف، وجعلتها تبدي ابتسامة هادئة كقطة راضية،

إلى أن حان موعد معانقات التهنئة وكان عليها أن تهنئ شقيقتها. فقال لها «بيدرو» الذي كان إلى جانب أختها:

ـ ألن تهنئيني أنا أيضًا؟

ـ بلى، كيف لا. أتمنى لك السعادة كلها.

وبينما «بيدرو» يعانقها بصورة أقرب مما تسمح به الأعراف الاجتماعية، انتهز الفرصة الوحيدة المتوافرة ليتمكن من أن يهمس لها بشيء في أذنها:

ـ كنت متأكدًا من أن هذا سيحدث، لقد توصلتُ بهذا الزواج إلى ما كنت أتلهف إليه بشدة: أن أكون قريبًا منك، من المرأة التي أحبها حقًّا....

الكلمات التي انتهى «بيدرو» من التلفظ بها كانت لدى «تيتا» أشبه بنسمة مبردة تؤجج بقايا الفحم الموشكة على الانطفاء. ووجهها المُكره منذ شهور على عدم إظهار مشاعرها تعرض فجأة لتغيير لا يمكن التحكم فيه، وعَكَس راحة وسعادة كبيرتين. بدا كما لو أن كل ذلك الهيجان الداخلي شبه المنطفئ قد تأجج فجأة بنار أنفاس «بيدرو»، وبيديه المتوقدتين، وصدره المندفع بتهور نحوها... كان يمكن لها أن تبقى على تلك الحال إلى الأبد لولا النظرة التي صوبتها إليها ماما «إيلينا» وجعلتها تنفصل عنه بسرعة. اقتربت ماما «إيلينا» من «تيتا» وسألتها:

ـ ما الذي قاله لك «بيدرو»؟

ـ لا شيء يا مامي.

ـ لا يمكن لكِ خداعي، إن كنت تظنين أنك ذاهبة فأنا قد

ذهبتُ ورجعت. فلا تتظاهري بأنك مجرد ذبابة ميتة مسكينة. يا لبؤسك إن رأيتك مرة أخرى قريبة من «بيدرو».

بعد كلمات ماما «إيلينا» المتوعدة هذه، حاولت «تيتا» البقاء بعيدة عن «بيدرو» قدر استطاعتها. أما المستحيل بالنسبة إليها فكان محو ابتسامة رضا صريحة عن محياها. لقد صار لحفلة الزفاف منذ تلك اللحظة معنى آخر في نظرها.

لم تضايقها بأي حال رؤية «بيدرو» و«روساورا» ينتقلان من مائدة إلى أخرى ليتناولَا نخبًا مع المدعوين، ولا رؤيتهما يرقصان «الفالس»، ولا رؤيتهما بعد ذلك يقطعان قالب الحلوى. فهي تعرف الحقيقة الآن: «بيدرو» يحبها. كانت ترغب حتى الموت في أن تنتهي المأدبة لتهرع إلى حيث «ناتشا» وتخبرها بكل شيء. وانتظرت بفارغ الصبر أن يأكل الجميع قطعة حلواهم لتتمكن من الانسحاب. فمرجع «كارينيو»[٢] يمنعها من المغادرة قبل ذلك، ولكنه لا يحظر عليها أن تطفو في السحاب بينما هي تأكل قطعة حلواها بتعجل. كانت مستغرقة في أفكارها إلى حد لم يُتح لها الانتباه إلى أن شيئًا غريبًا يحدث حولها. حنين عظيم كان يستحوذ على جميع الحاضرين فور تناولهم أول لقمة من الحلوى. بمن فيهم «بيدرو»، المعتد بنفسه على الدوام، كان يبذل مجهودًا عظيمًا لكبح دموعه. وماما «إيلينا» التي لم تذرف ولو دمعة بائسة

---

(٢) مرجع كلاسيكي في التمدن ومحاسن السلوك، ألفه الفنزويلي «مانويل أنطونيو كارينيُّو» على حلقات عام ١٨٥٣، ونال شهرة واسعة وأعيدت طباعته لمرات لا حصر لها في مختلف البلدان الأمريكية اللاتينية، وكان مرجعًا تعليميًّا لأجيال عديدة. (المترجم).

واحدة عند وفاة زوجها، كانت تبكي بصمت. ولم يكن هذا هو كل شيء، فقد كان البكاء العارض الأول لتسمم غريب له علاقة ما بكآبة عظيمة وإحباط سيطرا على جميع المدعوين الذين انتهى بهم الأمر إلى الخروج إلى الفناء والحظائر ودورات المياه وكل منهم يحن إلى حُبِّ حياته. لم يفلت أي منهم من السحر، وتمكن بعض المحظوظين فقط من الوصول إلى دورات المياه في الوقت المناسب؛ ومن لم يتمكنوا من ذلك شاركوا في حفلة التقيؤ الجماعي التي أقيمت وسط الفناء. حسن، الوحيدة التي فعلت بها الحلوى ما فعلته الريح بـ«خواريث»[٣] هي «تيتا». فما إن انتهت من تناول قطعتها حتى غادرت الحفلة. فهي تريد أن تخبر «ناتشا» بأسرع وقت بأنها كانت محقة عند قولها إن «بيدرو» يحبها هي وحدها فقط. ولأنها كانت تمضي متخيلة السعادة التي ستبديها «ناتشا»، لم تتنبه إلى تعاسة المدعوين المتعاظمة في طريقها والتي بلغت مستويات مقلقة بصورة مؤثرة.

وكان على «روساورا»، وسط نوبات غثيان، أن تغادر منضدة الشرف في المأدبة.

حاولت بكل الوسائل السيطرة على الغثيان، ولكنه كان أكثر تسلطًا منها. وكانت تبذل كل اهتمامها لإنقاذ فستان زفافها من فضلات وقيء الأهل والأصدقاء، ولكنها حين حاولت اجتياز الفناء انزلقت ولم ينج ولو شبر واحد من فستانها من القيء.

---

(٣) قول مكسيكي شائع للإشارة إلى عدم تأثر مدينة «خواريث» بقوة الرياح التي تهب عليها. (المترجم).

أحاط بها نهر كبير وشاحب وجرفها بضعة أمتار، وأدت عدم قدرتها على مزيد من التحمل إلى إطلاقها، كاندفاعات بركان ثائر، دفقات قيء مدوية أمام نظرات «بيدرو» المذعورة. ندبت «روساورا» كثيرًا هذا الحدث الذي دمر حفل زفافها ولم يكن هناك سلطة بشرية قادرة على أن تنتزع من عقلها أن «تيتا» قد أضافت مادة ما إلى قالب حلوى الزفاف.

أمضت الليل كله وسط الأنين والعذاب الذي تسببه لها فكرة التغوط على الملاءات التي أمضت وقتًا طويلًا في تطريزها. اقترح «بيدرو» عليها، بتعجل، أن تترك إنجاز ليلة الزفاف ليوم آخر. ولكن شهورًا انقضت قبل أن يشعر «بيدرو» بواجب فعل ذلك. وقبل أن تتجرأ «روساورا» على القول له إنها تشعر بأنها في أحسن حال، كان «بيدرو» قد أدرك في أثناء ذلك أنه لا يستطيع الامتناع لمزيد من الوقت عن أداء عمله كفحل. وفي تلك الليلة بالذات، مستخدمًا ملاءة الزواج، جثا أمام سريره وقال على سبيل الصلاة:

ـ رباه، ليس من أجل الرذيلة ولا الجماع وإنما من أجل إنجاب ابن يكون في خدمتك.

لم تتصور «تيتا» قط أنه كان لا بد من انقضاء كل ذلك الوقت من أجل أن يكتمل الزفاف المذكور. بل إنها لم تهتم بكيف جرى الأمر، وأقل من ذلك كان اهتمامها بكون إتمام الزفاف قد حدث في يوم إقامة الطقوس الدينية أو في أي يوم آخر.

لقد كانت مشغولة بأن تنجو بجلدها أكثر من اهتمامها بأي شيء آخر. فقد تلقت في ليلة الزفاف ضربًا مبرحًا من ماما

«إيلينا» لم تتلق مثله من قبل ولن تعود لتلقيه من بعد. أمضت أسبوعين في الفراش لتتعافى من ذلك الضرب. وسبب هذا العقاب الفظيع هو يقين ماما «إيلينا» بأن «تيتا»، بالاشتراك مع «ناتشا»، قد خططت بتعمد لتقويض حفل زفاف «روساورا»، وذلك بإضافة مقيئ إلى قالب الحلوى. لم تستطع «تيتا» قطُّ إقناعها بأن العنصر الوحيد الغريب في الحلوى هو الدموع التي ذرفتها وهي تُعدُّه. ولم تستطع «ناتشا» الشهادة لمصلحتها، لأن «تيتا» حين جاءت في طلبها يوم الزفاف وجدتها ميتة، وعيناها مفتوحتان، وعلى صدغيها لزقات علاج الصداع، وفي يدها صورة عريس قديم.

يتبع...

الوصفة التالية: طيور السمان مع بتلات ورد

٣

مارس

طيور السمان مع بتلات ورد

المُكونات:

١٢ وردة، وتفضل الحمراء
١٢ حبة كستناء
٢ ملعقة زبد
٢ ملعقة نشاء ذرة
٢ قطرة من خلاصة الورد
٢ ملعقة يانسون
٢ ملعقة عسل
٢ فص ثوم
٦ طيور سمان
١ حبة صبار

طريقة التحضير

تُنتزع بتلات الورد بحذر شديد مع مراعاة عدم وخز الأصابع، لأن الوخز، فضلًا عن كونه مؤلمًا جدًّا، يمكن له أن يضمخ بتلات الورد بالدم، وإضافة إلى أن ذلك سيُحدث تبدلًا في مذاقها، فإنه قد يتسبب في تفاعلات كيميائية خطيرة أيضًا.

لم يكن بإمكان «تيتا» أن تتذكر هذا التفصيل الصغير بسبب شدة انفعالها لدى تلقيها باقة ورد من يدي «بيدرو». إنه أول انفعال عميق تشعر به منذ يوم زفاف أختها، حين سمعت التصريح بالحب الذي يشعر به «بيدرو» نحوها ويحاول إخفاءه عن أعين الآخرين. كانت الشكوك تساور ماما «إيلينا»، بما تتمتع به من سرعة التفكير وحِدَّته، فيما يمكن أن يحدث إذا ما توافرت الفرصة لالتقاء «بيدرو» و«تيتا» على انفراد. وهكذا كانت تتباهى بفنون شعوذة مذهلة أبدعتها على أحسن وجه، حتى الآن، لتخفي كلًّا منهما عن عيني الآخر. إلا أن تفصيلًا ضئيلًا قد فاتها. فبعد موت «ناتشا»، صارت «تيتا»، بين نساء البيت كلهن،

هي الأقدر على شغل الموقع الشاغر في المطبخ الشاغر، وفيه تفلت من مراقبة ماما «إيلينا» الصارمة الطعوم والروائح والمركبات وما يمكن لها أن تستثيره.

لقد كانت «تيتا» الحلقة الأخيرة في سلسة طاهيات تناقلن منذ الحقبة ما قبل الإسبانية أسرار المطبخ جيلًا بعد جيل، وكانت تُعتبر أفضل ممثلة لهذا الفن العجيب، فن الطبخ. وبالتالي قوبلت تسميتها كطاهية رسمية للمزرعة بترحيب الجميع. وقبلت «تيتا» المنصب بطيبة خاطر على الرغم من مشاعر حزنها على غياب «ناتشا».

تلك المِيتة المؤسفة أوصلت «تيتا» إلى حالة من الاكتئاب الشديد. فقد خلَّفتها «ناتشا»، بموتها، وحيدةً جدًّا. بدا كما لو أن أمها الحقيقية قد ماتت. وفي محاولة من «بيدرو» لمساعدتها على الخروج قُدمًا، فكر في أنها ستكون لفتة جيدة منه أن يحمل إليها باقة ورد بمناسبة إتمامها عامها الأول كطاهية للمزرعة. ولكن «روساورا» ـ وكانت تنتظر ولادة طفلها الأول ـ لم يكن لها الرأي نفسه. فحين رأته يدخل حاملًا باقة الورد بكلتا يديه، ويقدمها إلى «تيتا» وليس إليها، غادرت الصالة أسيرة نوبة من البكاء.

وبنظرة واحدة، أمرت ماما «إيلينا» «تيتا» بأن تغادر الصالون وتتخلص من الورود. انتبه «بيدرو» لوقاحة تصرفه بعد فوات الأوان. لكن ماما «إيلينا» وجهت إليه النظرة المناسبة، وجعلته يعرف أنه ما زال بإمكانه إصلاح ما سببه من ضرر. وهكذا استأذن وخرج بحثًا عن «روساورا». كانت «تيتا» تضم الورود

إلى صدرها بقوة إلى حدٍّ أن الورود التي كانت وردية اللون في البدء، تحولت لدى وصولها المطبخ إلى اللون الأحمر من دماء يدي وصدر «تيتا». وكان عليها أن تفكر بسرعة ما الذي يمكنها أن تفعله بها. لقد كانت ورودًا جميلة جدًّا! ولم يكن ممكنًا أن تلقي بها إلى القمامة، أولًا لأنها لم تتلق أزهارًا من قبل قطُّ، وثانيًا لأن من قدمها إليها هو «بيدرو». وفجأة سمعت بوضوح صوت «ناتشا» يملي عليها في أذنيها وصفة تعود إلى ما قبل العهد الإسباني، وتُستخدم بتلات الورد في تحضيرها. كانت تلك الوصفة شبه منسية لدى «تيتا»، إذ إن تحضيرها يتطلب طيورًا تُدْرج، وهم في المزرعة لم يهتموا قطُّ بتربية ذلك النوع من الطيور.

الطيور الوحيدة المتوافرة لديهم في ذلك الحين هي السمان. وهكذا قررت إدخال تعديل طفيف على الوصفة، بحيث يمكن لها استخدام الزهور.

ومن دون مزيد من التفكير خرجتْ إلى الفناء وراحت تلاحق طيور السمان. وبعد أن أمسكت بستة منها وحملتها إلى المطبخ، وحين استعدت لذبحها، لم يكن ذلك بالأمر السهل بأي حال عليها هي التي رعت الفراخ وأطعمتها لوقت طويل.

أخذت نَفَسًا عميقًا ثم أمسكت بأول طائر ولوَتْ عنقه مثلما رأت «ناتشا» تفعل مرات كثيرة، ولكنها فعلت ذلك بقوة قليلة لم تُمِتِ السمان المسكين الذي راح يئن بصورة محزنة في أرجاء المطبخ، ورأسه متدلٍّ جانبًا. أرعبتها تلك الصورة! أدركت أنه لا يمكن لها أن تكون ضعيفة في مسألة القتل: إما أن تُمارسها

بحزم وإما أنها ستتسبب في ألم كبير. وفي تلك اللحظة فكرت في كم هو جيد امتلاك قوة ماما «إيلينا». فهي تقتل هكذا، بضربة واحدة، ومن دون رحمة. حسن، مع أن الحال ليست كذلك حين تفكر في الأمر جيدًا. فما فعلته ماما «إيلينا» معها كان حالة استثنائية، إذ بدأت بقتلها منذ طفولتها، قليلًا قليلًا، ولم تُجْهِز عليها بالضربة النهائية حتى الآن. لقد خلَّفها زواج «بيدرو» و«روساورا» بمثل حال طائر السمان، بقلب محطم وروح كسيرة، وقبل أن تسمح بأن يشعر الطائر بآلامها هي نفسها، قامت بتصميم كبير بالإجهاز عليه بسرعة في فعل رحمة. وكان كل شيء أسهل مع بقية الطيور. لم يكن عليها إلا أن تتخيل أن في حوصلة كل طائر سمان بيضة مسلوقة، وأنها إنما تقوم بحركة سريعة صائبة لتخليصه برحمة من العذاب. ففي طفولتها تمنت مرات كثيرة أن تموت قبل أن تتناول، عند الفطور، البيضة نصف المسلوقة المعهودة والإجبارية. كانت ماما «إيلينا» تجبرها على أكلها. فتشعر هي بأن بلعومها ينغلق بشدة، وبشدة كبيرة، يعجز معها عن ابتلاع أي غذاء، إلى أن تعاجلها أمها بضربة على رأسها لها المفعول السحري في حلِّ عقدة حلقها؛ فتنزلق البيضة بفضلها عندئذ من دون أية مشكلة. إنها تشعر الآن بطمأنينة أكبر، وقد قامت بالخطوات التالية بمهارة بالغة.

كان يبدو كما لو أن «ناتشا» نفسها هي التي تُنجز، في جسد «تيتا»، تلك الأعمال كلها: نتف الطيور على الناشف، وانتزاع أحشائها والبدء بقليها. بعد الانتهاء من نتف ريش طيور السمان ونزع أحشائها تؤخذ وقوائمها مربوطة كي تحتفظ بوضع جميل

عند تحميرها في الزبد، بعد أن تُرش بمسحوق الفلفل والملح حسب الذوق.

من المهم نتف ريش الطيور على الناشف، لأن غمره في ماء يغلي يغير مذاق اللحم. وهذا واحد من أسرار المطبخ التي لا تحصى، ولا تُكتسب إلا بالممارسة. وبما أن «روساورا» لم تشأ المشاركة في الفعاليات المطبخية منذ احترقت يداها في الصفيحة الساخنة، فمن المنطقي أن تجهل هذا الأمر وغيره كثير من المعارف المتعلقة بفنون التنعم بالأكل وحسن تذوقه. ومع ذلك، من يدري إن كانت تريد التأثير على زوجها «بيدرو» أم إنها أرادت منافسة «تيتا» في ميدانها، حين حاولت الطبخ في أحد الأيام. وعندما حاولت «تيتا»، بلطف، أن تقدم لها بعض النصائح، تضايقت «روساورا» بشدة وطلبت منها أن تتركها وحدها في المطبخ.

وكانت النتيجة خبص الأرز، وزيادة ملح اللحم، واحتراق الحلوى. لم يجرؤ أحد على المائدة على إبداء أي إيماءة استياء، لأن ماما «إيلينا» بادرت إلى التعليق على سبيل الإيحاء:

ـ إنها أول مرة تطبخ فيها «روساورا»، وأرى أن ما قامت به ليس سيئًا. ما رأيك يا «بيدرو»؟

بذل «بيدرو» مجهودًا فائقًا، وأجاب من دون رغبة في إزعاج زوجته:

ـ لا، ليس سيئًا باعتبارها المرة الأولى.

وطبعًا، عانت الأسرة كلها في ذلك المساء من آلام في المعدة.

لقد كانت مأساة حقيقية، ولكنها لا تصل طبعًا إلى مستوى المأساة التي حدثت في المزرعة في ذلك اليوم. فاختلاط دم «تيتا» ببتلات الورد الذي أهداه «بيدرو» إليها كان أكثر تفجرًا.

عند جلوسهم إلى المائدة كان يخيم جو خفيف من التوتر، ولكنه لم يتفاقم إلى أن قُدم طبق السمان. فـ«بيدرو» غير العابئ باستثارته غيرة زوجته، لم يستطع كبح نفسه حين تذوق أول لقمة من الطبق، وهتف وهو يغمض عينيه بشبق حقيقي:

ـ إن هذا متعة آلهة!

أما ماما «إيلينا»، وعلى الرغم من اعترافها بأنها طبخة لذيذة حقًّا، فقد قالت مستاءة من تعليقه:

ـ لقد أُضيف إليها كثير من الملح.

و«روساورا» التي تذرعت بالغثيان والدوار، لم تستطع أن تأكل أكثر من ثلاث لقيمات. في حين حدث لـ«خيرترورديس» شيء غريب.

بدا أن الطعام الذي كانت تأكله يُحدث فيها تأثيرًا أفروديتيًّا، ذلك أنها بدأت تشعر بحماوة شديدة. كانت قد ذهبت يومذاك إلى السوق ترافقها الخادمة «تشينتشا» عندما رأته يدخل من شارع «بييدراس نجراس» الرئيسي، كان في مقدمة الجميع، ولا شك في أنه من يقود تلك الفرقة. التقت نظراتهما، وما رأته في عينيه جعلها ترتجف. رأت في عينيه ليالي كثيرة إلى جانب النار، ورغبة في صحبة امرأة... مثلها. أخرجت منديلها وحاولت أن تمسح، مع العرق، كل تلك الأفكار الخاطئة.

ولكن من دون طائل، فقد حدث لها أمر غريب. حاولت

البحث عن مساندة من «تيتا»، ولكن هذه بدت غائبة، صحيح أن جسدها يجلس على الكرسي، وبهيئة صحيحة تمامًا، إلا أنه لم تكن هنالك أي علامة حياة في عينيها. بدا كما لو أن ظاهرة كيميائية غريبة قد أذابت كيانها في صلصة الورود، في لحم طيور السمان، في النبيذ وفي كل رائحة من روائح الطعام.

بدا كما لو أنهم قد اكتشفوا شفرة جديدة للتواصل، «تيتا» هي المُرسِل فيها و«بيدرو» هو المتلقي، و«خيرترورديس» هي المحظوظة التي تتراكب فيها تلك العلاقة الجنسية الفريدة من خلال الطعام.

لم يُبدِ «بيدرو» مقاومة، وتركها تتغلغل حتى الركن الأخير من كيانه من دون أن يتمكن أحدهما رفع عينيه عن الآخر. وقال لها:

ـ لم أتذوق قطُّ من قبل شيئًا بهذه اللذة، شكرًا جزيلًا لك.

والحقيقة أن الطبق كان شهيًّا. فقد أضفت عليه الورود مذاقًا شديد التميز.

فبعد أن تكون بتلات الورد قد انتُزعت، تُهرس في المهراس مع اليانسون. وتوضع حبات الكستناء منفصلة لتتحمص على قطعة صفيح محماة، ثم تقشر وتسلق في ماء. وتحول بعد ذلك إلى بوريه. يُقطع الثوم قطعًا رقيقة تقلى في الزبد؛ وعندما يكتسب الشفافية يضاف إليها هريس الكستناء، والعسل، وحبة الصبار المطحونة، وبتلات الورد، وملح حسب الذوق. ومن أجل جعل الصلصة سميكة بعض الشيء، يمكن أن تضاف ملعقتان من نشاء الذرة. وأخيرًا يُصفى الخليط في مصفاة وتُضاف إليها قطرتان

فقط من خلاصة ماء الورد، لا أكثر، وإلا تعرضت لخطر أن تصبح نفاذة الرائحة ويفسد مذاقها. تُرفع الصلصة عن النار بعد أن تُطبخ. ويُغمر السمان لمدة عشر دقائق فقط في هذه الصلصة لكي يتشرب الطعم ثم يُرفع منها.

شذا خلاصة الورد نفاذ جدًّا، حتى إن المهراس الذي يُستخدم لتُهرس البتلات فيه يظل يعبق برائحتها عدة أيام.

المسؤولة عن غسل المهراس وأواني المطبخ الأخرى هي «خيرترووديس». وكانت تقوم بهذا العمل، في الفناء، بعد الانتهاء من تناول الطعام، وتستغل وجودها هناك لترمي للحيوانات فضلات الطعام المتبقية في القدور. أضف إلى ذلك أن كبر حجم أواني المطبخ يتيح لها جليها هناك بصورة أفضل مما في حوض الجلي. لكنها في يوم طيور السمان لم تفعل ذلك، بل طلبت من «تيتا» أن تصنع لها معروفًا بعمل ذلك بدلًا منها. كانت «خيرترووديس» تشعر بالتوعك فعلًا، فهي تتعرق بغزارة من كل أنحاء جسدها. وكانت قطرات العرق المتصببة منها وردية اللون ولها رائحة الورد اللطيفة والنفاذة. وقد أحست بحاجة مُلِحة إلى الاستحمام وهرعت لإعداد الحمام.

في الجزء الخلفي من الفناء، إلى جانب الحظائر ومستودع الغلال، كانت ماما «إيلينا» قد أمرت بإقامة مرشة ماء بدائية. تتشكل من حجرة صغيرة من ألواح خشب متصلة، وقد ظل بين كل لوح وآخر فراغ كبير إلى حد السماح، من دون عناء كبير، برؤية من يستحم فيها. لقد كانت على أي حال أول مرشة عرفتها القرية. وقد اخترعها ابن عمٍّ لماما «إيلينا» يعيش في «سان

أنطونيو» بتكساس. وكان للحجرة خزان علوي يرتفع حوالي مترين ويتسع لأربعين لتر ماء، يجب أن يُملأ بالماء مسبقًا من أجل أن يعمل وفق قوة الجاذبية. كان مُجهدًا الصعود بدلاء مملوءة بالماء على سلم خشبي، ولكن من الممتع بعد ذلك الشعور بسيلان الماء، بمجرد فتح الصنبور، على الجسم كله دفعة واحدة، وليس بالتقسيط مثلما كانت عليه الحال عند الاستحمام بسكب الماء على الجسم بقرعة مجوفة. بعد سنوات دفع «الغرينغوس» مبلغًا تافهًا لابن العم مقابل اختراعه وقاموا بتحسينه. فصنعوا آلاف المرشات من دون حاجة إلى الخزان المذكور، ذلك أنهم استخدموا أنابيب لتشغيلها.

ليت «خيرترووديس» علمت بذلك! فقد صعدت المسكينة ونزلت نحو عشر مرات وهي تحمل دلاء الماء. كانت على وشك الإغماء لأن ذلك التمرين فاقم من حدَّة الحرارة الحارقة التي تشعر بها.

الشيء الوحيد الذي كان يشجعها هو حلم الحمام المنعش الذي ينتظرها، ولكنها لم تستطع لسوء الحظ الاستمتاع به، لأن قطرات الماء التي كانت تسقط من المرشة لا تكاد تلامس جسدها حتى تتبخر قبل أن تسيل عليه. فالحرارة التي يطلقها جسدها كانت شديدة إلى حد أن أخشاب حجرة الاستحمام راحت تفرقع وتشتعل. وحيال الهلع من الموت حرقًا في اللهب خرجت راكضة من الحجرة، بالحالة التي كانت عليها، عارية تمامًا.

وفي أثناء ذلك كانت رائحة الورد التي يطلقها جسدها قد وصلت بعيدًا، بعيدًا جدًّا، متجاوزة القرية إلى محيطها حيث كان

ثوارٌ واتحاديون يخوضون معركة شرسة. ومن بينهم تميز بشجاعته الثائر في قوات «بانتشو بيًّا» الذي كان قد دخل قبل أسبوع إلى «بييدراس نجراس» وتصادف معها في الساحة.

وصلت إليه سحابة وردية، أحاطت به ودفعته إلى التوجه بحصانه بأقصى سرعة باتجاه مزرعة ماما «إيلينا». غادر «خوان»، وهذا اسم ذلك الشخص، ميدان المعركة مخلفًا وراءه عدوًّا شبه هالك، دون أن يعرف السبب. قوة عليا كانت تتحكم في أفعاله. تحركه حاجة متسلطة للوصول بأسرع ما يمكن للقاء شيء مجهول في مكان غير محدد. لم يكن التوجه صعبًا عليه. فرائحة جسد «خيرترووديس» كانت توجهه. وصل بالضبط في الوقت الذي وجدها فيه تركض وسط الحقول. عندئذ عرف سبب مجيئه إلى هناك. فتلك المرأة بحاجة مُلحة لرجل يطفئ النار المحرقة المتولدة من أعماقها.

رجلٌ بحاجة إلى الحب مثلها، رجل مثله.

توقفت «خيرترووديس» عن الركض فور رؤيته آتيًا باتجاهها. عارية بالحالة التي كانت عليها، شعرها المفلت يتهدل حتى خصرها، وتشع بطاقة مضيئة، تمثل ما سيكون توليفة من امرأة ملائكية وأخرى جهنمية. عذوبة محياها وكمال جسدها الطاهر والعذري كانا على النقيض من الوله والشبق اللذين يخرجان مندفعين من عينيها ومساماتها. هذه العناصر، بارتباطها بالرغبة الجنسية التي كبحها «خوان» لوقت طويل وهو يقاتل في الجبال، أدت إلى أن يكون اللقاء بينهما مشهديًّا ومثيرًا.

انحنى «خوان»، من دون أن يتوقف عن العدو على حصانه

كيلا يضيع الوقت، وأمسك بها من خصرها وحملها إلى الحصان أمامه، ولكنه أجلسها مقابله وجهًا لوجه ومضى بها. أما الحصان الذي كان يتبع ظاهريًّا أوامر عليا كذلك، فواصل عدوه كما لو أنه يعرف بالضبط ما هي وجهته النهائية، على الرغم من أن «خوان» قد أفلت أعنته، كانت حركة الحصان تختلط بحركة جسديهما.

لقد حدث كل شيء بسرعة كبيرة إلى حد أن كوكبة الحراسة التي تبعت «خوان» محاولة اعتراضه لم تتوصل إلى ذلك قطُّ. فاستدار أفرادها يائسين وكان الخبر الذي جاؤوا به هو أن القائد قد أصيب بالجنون فجأة خلال المعركة وأنه قد انشق بسبب ذلك عن الجيش.

هذه هي، عمومًا، الطريقة التي تُكتب بها القصة، من خلال روايات شهود العيان التي لا تتوافق دائمًا مع الواقع. ذلك أن وجهة نظر «تيتا» حول ما حدث مختلفة تمامًا لرؤية أولئك الثوار. فقد رأت كل شيء من الفناء حيث كانت تجلي أواني الطبخ. لم يغب عنها أي تفصيل على الرغم من أن سحابة أبخرة وردية وألسنة لهب حجرة الاستحمام كانت تعترض مجال رؤيتها. وإلى جانبها حظي «بيدرو» كذلك برؤية المشهد، إذ كان قد خرج إلى الفناء بحثًا عن دراجته للقيام بنزهة عليها.

وكمشاهدين صامتين لفيلم، تأثر «بيدرو» و«تيتا» حتى الدموع وهما يريان بطليهما يمارسان الحب المحظور عليهما. وكانت هناك لحظة، هنيهة واحدة فقط، كان يمكن لـ«بيدرو» خلالها أن يغير مسار القصة. فقد أمسك بيد «تيتا» وتوصل إلى القول:

ـ «تيتا»...

قال هذا وحسب، ولم يجد الوقت لقول المزيد. فالواقع القذر حال من دون ذلك، إذ سُمعتْ صرخة ماما «إيلينا» تسأل عما يجري في الفناء. لو أن «بيدرو» طلب من «تيتا» حينذاك أن تهرب معه، لما فكرت في الأمر ولو لحظة واحدة، لكنه لم يفعل، وإنما امتطى الدراجة بسرعة وراح يدير دواسة غضبه. لم يكن بمقدوره أن يمحو من ذهنه صورة «خيرترووديس» وهي تجري في الحقل... في علاقته الحميمة بـ«روساورا» كان يستخدم دومًا ملاءة الزفاف التي لا تسمح برؤية شيء من زوجته سوى أجزائها النبيلة. وفور انتهاء العملية يغادر المخدع قبل أن تكشف الزوجة نفسها. أما الآن بالمقابل، فاستيقظ فيه الفضول لرؤية «تيتا» لوقت طويل على تلك الحال، بلا أية ملابس.

متقصيًا، متشممًا، متحريًا عن كيف هو جسدها المهيب والجذاب حتى آخر سنتيمتر منه. لا بد أن يكون مشابهًا لجسد «خيرترووديس»، فليس عبثًا أنهما شقيقتان.

كان الجزء الوحيد الذي يعرفه جيدًا من جسد «تيتا»، فضلًا عن الوجه واليدين، هو الجزء الملتف من ربلة الساق الذي تمكن من رؤيته ذات مرة.

حاولت «تيتا» بدورها أن تصرخ بـ«بيدرو» أن ينتظرها، أن يحملها بعيدًا، إلى حيث يُسمح لهما بتبادل الحب، إلى حيث لم تُخترع بعد أنظمة تُتَّبع وتُحترم، إلى حيث لا توجد أمها، لكن حنجرتها لم تُصدر أي صوت. فقد شكَّلت الكلمات عقدة في حلقها وخنق بعضها بعضًا قبل أن تخرج.

كانت تشعر بأنها جدُّ وحيدة ومهجورة! حتى إنه لا يمكن

لحبة فلفل منسية في صلصة جوز في صينية بعد مأدبة كبرى أن تشعر بأنها أسوأ حالًا منها. كم من المرات، وهي وحدها في المطبخ، كان عليها أن تأكل إحدى تلك اللذائذ كيلا تتركها تفسد. فمسألة أن أحدًا لا يأكل آخر قطعة فلفل في صينية تحدث عمومًا حين لا يريد الناس إظهار نهمهم، وإن كان يفتنهم التهامها، إلا أن أحدًا لا يجرؤ على ذلك. وهكذا تُهمل حبة الفلفل المحشوة الأخيرة التي تحتوي كل الطعوم التي يمكن تخيلها: حلاوة النارنج، لذعة الفلفل، عذوبة الجوز، برودة الرمان. يا لروعة الفلفل بصلصة الجوز! يا للذتها! تضم في جوفها أسرار الحب كلها، ولكن الوقار يمنع الجميع من الإقدام على نزع ما في جوفها.

اللعنة على الوقار! اللعنة على مرجع «كارينيو»! فبسببه ظل جسدها مكرسًا لأن يذوي شيئًا فشيئًا، بلا أي مهرب. وملعون «بيدرو» شديد الوقار... شديد الاستقامة، شديد الرجولة، و... المحبوب جدًّا!

لو أن «تيتا» كانت تعلم آنذاك أنه لن تنقضي سنوات طويلة قبل أن يعرف جسدها الحب لما يئست كل ذلك اليأس الكبير آنذاك.

صيحة ماما «إيلينا» الثانية أخرجتها من تأملاتها وجعلتها تبحث بسرعة عن جواب. لم تدر ما الذي ستقوله لأمها، أتخبرها أولًا بأن الجزء الخلفي من الفناء يحترق، أم تخبرها بأن «خيرترروديس» قد ذهبت مع أحد ثوار «بانتشو بيًّا» على صهوة جواد... وعارية.

قررت أن تقدم لها رواية تقول فيها إن الفدراليين، وهم من تمقتهم «تيتا»، قد دخلوا على عَجل، وإنهم أشعلوا النار في الحمام، وإنهم اختطفوا «خيرتروديس». صدَّقت ماما «إيلينا» القصة كلها ومرضت من الحزن، ولكنها أوشكت على الموت حين علمتْ بعد أسبوع، من خلال الأب «إجناثيو»، كاهن القرية ـ ومن يدري كيف علم هو بالأمر ـ أن «خيرتروديس» تعمل في ماخور على الحدود. فحظرت ذكر اسم ابنتها وأمرت بإحراق صورها وشهادة ميلادها.

ومع ذلك لم تتمكن النار ولا مرور السنين من محو رائحة الورود النفاذة التي تفوح من المكان حيث كان يقوم الحمام ذو المرشة، وقد صار الآن موقف سيارات لمبنى شقق سكنية. كما لم تُمح من ذهن «بيدرو» و«تيتا» الصور التي رأياها وأثرت فيهما إلى الأبد. وقد تحول طبق طيور السمان ببتلات الورد، منذ ذلك اليوم، إلى ذكرى بَكْماء لتلك التجربة الفاتنة.

وصارت «تيتا» تُحضِّر هذا الطبق كل عام كقربان للحرية التي توصلت إليها أختها، وتُولي اهتمامًا خاصًّا لتزيين السمان.

توضع وحدات السمان في طبق كبير، وتُسكب فوقها الصلصة وتزين بوردة كاملة في وسط الطبق وببتلات على حوافه، أو تُقدم كذلك في أطباق فردية لكل شخص بدلًا من وضعها في طبق واحد كبير. و«تيتا» تفضل التقديم هكذا، لأنها لا تجازف بهذه الطريقة بأن يفقد طبق السمان زينته وديكوره عند سكبه للمدعوين. وهذا ما أوضحته بالضبط في كتاب الطبخ الذي بدأت بكتابته في تلك الليلة بالذات، بعد أن حاكت جزءًا لا بأس به من لحافها،

مثلما كانت تفعل يوميًّا. وبينما هي تحوك، كانت تدور وتدور في رأسها صور «خيرترووديس» وهي تركض في الحقل إلى جانب صور أخرى تخيلتها هي نفسها حول ما يمكن أن يكون قد جرى فيما بعد، حين غابت أختها عن نظرها. وكانت مخيلتها محدودة جدًّا بالطبع في هذا المجال بسبب انعدام خبرتها.

كان لديها فضول لمعرفة إذا ما صارت أختها ترتدي بعض الثياب أم إنها ما زالت على تلك الحال عَاريـ. . . بلا ملابس! وكان يقلقها أن تكون أختها تعاني البرد، مثلها هي نفسها، ولكنها توصلت في النتيجة إلى أنه لا يمكن لـ«خيرترووديس» أن تعاني البرد. فالاحتمال الأكبر أنها تقبع قريبًا من نار موقد، بين ذراعي رجلها، ولا بد أن ذلك يوفر الدفء بصورة حاسمة.

وفجأة مرت في ذهنها فكرةٌ جعلتها تنهض لتنظر إلى السماء المفعمة بالنجوم. لقد كانت تعرف ـ وهو ما اختبرته بنفسها ـ مدى القوة التي يمكن أن تكون عليها نار نظرة.

إنها قادرة على إشعال الشمس نفسها. وبأخذها هذا الأمر في الاعتبار، ما الذي يمكن أن يحدث إذا ما نظرت «خيرترووديس» إلى نجمة؟ من المؤكد أن حرارة جسدها، المتأجج بالحب، ستسافر مع نظرتها عبر الفضاء غير المتناهي من دون أن تفقد طاقتها إلى أن تستقر في النجم موضع اهتمامها. فتلك النجوم العظيمة عاشت ملايين السنين بفضل انتباهها إلى عدم امتصاص الإشعاعات المتوقدة التي يطلقها العاشقون في كل أنحاء الدنيا ليلة بعد ليلة. ولو أنها فعلت ذلك وامتصتها لتولدت بداخلها حرارة هائلة تفجرها إلى فتات.. ولأن النجوم تصد أي نظرة

تتلقاها، وتعكسها فورًا نحو الأرض كما في لعبة مرايا، فإنها تتألق بذلك البريق القوي في الليل. ولهذا داخل «تيتا» الأمل في أنها إذا ما تمكنت من أن تكتشف بين نجوم القبة السماوية كلها أي نجم هو الذي تنظر إليه أختها في تلك اللحظة، فسوف تتلقى عبر الانعكاس قليلًا من الدفء الفائض لدى أختها.

حسن، كان هذا هو حلمها، ولكنها على الرغم من مراقبتها نجوم السماء نجمًا نجمًا، لم تشعر قطُّ بأي نوع من الحرارة، بل على العكس تمامًا. فقد عادت إلى فراشها مرتجفة ومقتنعة قناعة راسخة بأن «خيرترووديس» تنام بهدوء وبعينين مغمضتين جيدًا، ولهذا لم تنجح التجربة. تدثرت عندئذ بلحافها الذي صار يطوى آنذاك ثلاث طيات، وراجعت الوصفة التي كتبتها لتتأكد من أنها لم تنسَ تسجيل شيء، وأضافت: «اليوم وقد أكلنا هذا الطبق، هربت «خيرترووديس» من البيت...».

يتبع...

الوصفة التالية: «موليه»[٤] الديك الرومي باللوز والسمسم

---

(٤) من أصل قديم يعود إلى حضارة شعب ناهواتيل السابق للأزتيك في المكسيك، وهو يعني أي نوع من الصلصات، ويطلق الآن على عدة أطباق من المطبخ المكسيكي تتضمن جميعها الفلفل الحار والتوابل بصورة أساسية، وصار من المعهود أن ترافقه لحوم مسلوقة. (المترجم).

٤

أبريل

«موليه» الديك الرومي باللوز والسمسم

المُكونات:

١\٤ كج فلفل أحمر مهجن
٣ حبة فلفل عريض
١ حفنة لوز
١ حفنة سمسم
مرق ديك رومي
١ بسكويت (١\٣ «كونتشا»)
فول سوداني
١\٢ بصلة بيضاء، نبيذ
٢ لوح شوكولاتة
٣ حبة فلفل أسود
يانسون، قرنفل، فلفل أسمر
سمن، سكر
بذور فلفل
٥ فص ثوم

طريقة التحضير

يُنظف الديك الرومي بعد يومين من ذبحه، ثم يبدأ سلقه مع التمليح. لحم الديوك الرومية لذيذ ويصبح مذاقه ألذ إذا ما عُلِف بعناية. ويتحقق ذلك بوضع الطيور في حظائر نظيفة مع وفرة من الحبوب والماء.

وقبل خمسة عشر يومًا من ذبح الديكة الرومية تبدأ تغذيتها بحبات صغيرة من الجوز. ويتم ذلك بالبدء في اليوم الأول بحبة جوز واحدة، وفي اليوم الثاني توضع حبتان في منقارها، وهكذا تتزايد الكمية على التوالي حتى عشية ذبحها بغض النظر عن كمية الذرة التي تأكلها بإرادتها خلال هذا الوقت.

أبدت «تيتا» كثيرًا من الاهتمام بتسمين الديوك الرومية كما يجب، ولا سيما أنها تولي اهتمامًا كبيرًا لنيل الرضا في الحفلة بالغة الأهمية التي ستقام في المزرعة: حفل تعميد ابن أختها، ابن «بيدرو» و«روساورا» الأول. فهذا الحدث يستحق مأدبة كبرى مع صلصة «موليه». ومن أجل هذه المناسبة أوصت على

صنع أوانٍ خاصة من الخزف ينقش عليها اسم «روبرتو»، هكذا سُمي الطفل المحظوظ الذي لا يتوقف عن تلقي الرعاية والهدايا من الأقارب والأصدقاء. وخصوصًا من «تيتا» التي تشعر، خلافًا لما هو متوقع، بمحبة كبيرة للطفل، متجاهلة تمامًا أنه حصيلة زواج أختها من «بيدرو»، حب حياتها.

وبحماسة حقيقية، تأهبت قبل يوم من الحفلة من أجل تحضير طبق «الموليه» لحفلة التعميد. كان «بيدرو» يسمعها من الصالة وهي تجرب التوصل إلى تأثير حسي جديد عليه. قرقعة القدور عند اصطدام بعضها ببعض، ورائحة اللوز وهو يُحَمَّص على صفيحة فخار ساخنة، وصوت «تيتا» المترنم تغني بينما هي تطبخ، أسهمت كلها في إيقاظ الغريزة الجنسية. ومثلما يشعر العشاق باقتراب لحظة العلاقة الحميمة، عند اقتراب المحبوب برائحته أو بدء مداعبات متبادلة في لعبة غرامية مسبقة، هكذا كانت تلك الأصوات والروائح، ولا سيما رائحة السمسم المُحمَّص، تنبئ «بيدرو» بقرب لذة مطبخية حقيقية.

يُحَمَّصُ اللوز والسمسم على صفيحة من الفخار. ويُحمَّص الفلفل العريض أيضًا، بعد إزالة العروق والبذور منه، ولكن ليس تحميصًا شديدًا كيلا يصير مُرًّا. ويتم ذلك في مقلاة منفصلة، إذ يجب أن يضاف إليه قليل من السمن لتحميصه. ثم يدق ليُطحن بعد ذلك في جرن حجري مع اللوز والسمسم.

كانت «تيتا» تجلس جاثية، منحنية على جرن حجري، تتحرك بإيقاعية وهي تطحن اللوز والسمسم.

لم يستطع «بيدرو» مقاومة الروائح المنبعثة من المطبخ،

فتوجه إليه، وتجمد عند الباب أمام الوضع الحسي الذي وجد «تيتا» عليه.

رفعت «تيتا» بصرها من دون أن تتوقف عن الحركة والتقت عيناها بعيني «بيدرو». وعلى الفور اختلطت نظرتاهما المتأججتان بطريقة لا يمكن لمن يراهما أن يلحظ إلا أنهما نظرة واحدة، وحركة إيقاعية وحسية واحدة، وتنفس متهدج واحد والشهوة نفسها.

ظلا في نشوة غرامية إلى أن نزل «بيدرو» بنظرته وصوبها إلى نهدي «تيتا». فتوقفت عن الطحن، واعتدلت في جلستها فخورة بانتصاب صدرها، كي يتأملها «بيدرو» على أكمل وجه. الاختبار الذي كانت هدفًا له بدَّل العلاقة بينهما إلى الأبد. فبعد تلك النظرة المتفحصة التي تخترق الملابس لا يمكن لأحد أن يعود مثلما كان. لقد عرفت «تيتا» عندئذ بتجربتها لماذا تغير ملامسة النار جوهر العناصر، لماذا تتحول قطعة عجين إلى عجة، ولماذا يكون النهد الذي لم يمر بتجربة نار الحب نهدًا خامدًا... مجرد كرة عجين بلا أية فائدة.

ولولا مجيء «تشينتشا» التي كانت قد ذهبت إلى السوق لشراء فلفل عريض، من يدري ما الذي كان سيحدث بين «بيدرو» و«تيتا». تظاهر «بيدرو» بأنه جاء إلى المطبخ في طلب كأس عصير ليمون مع «التشيا»، تناوله بسرعة وغادر المطبخ.

وحاولت «تيتا»، بيدين مرتجفتين، مواصلة إعداد «المولية» وكأن شيئًا لم يحدث.

بعد أن يكون اللوز والسمسم قد طُحنا جيدًا يخلطان بمرق

الديك الرومي، ثم يضاف الملح حسب الذوق. ويجري في هون حجري طحن القرنفل والقرفة واليانسون والفلفل الأسمر، وتضاف أخيرًا قطع البسكويت الذي يكون قد تم قليه مسبقًا في السمن مع البصل المقطع والثوم.

يخلط هذا كله بالنبيذ فورًا، ويضاف إلى المرق.

وبينما هي تطحن التوابل، حاولت «تشينتشا» من دون طائل أن تجتذب اهتمام «تيتا». ولكنها مهما حاولت المبالغة في وصف الأحداث التي شهدتها في الساحة وفي رواية أدق تفاصيل عنف المعارك التي دارت، لم تتوصل إلى استثارة اهتمامها إلا لحظات قليلة. لأنه لم يكن يجول في رأس «تيتا» اليوم شيء آخر سوى الانفعال الذي أحست به للتو. أضف إلى ذلك أن «تيتا» كانت تعرف بالضبط دوافع «تشينتشا» لإخبارها بتلك الأمور. بما أنها لم تعد تلك الطفلة التي ترعبها حكايات البكاءة والساحرة الشريرة التي تمتص الأطفال وحكاية الغول وغيرها من الفظائع، فإن «تشينتشا» تحاول الآن إرعابها بحكايات المشنوقين والمقتولين رميًا بالرصاص والمقطعة أوصالهم والمذبوحين وحتى القرابين الذين تُنتزع قلوبهم في ميدان المعركة! كان يمكن أن يروق لها في أوقات أخرى أن تقع في سحر قصص «تشينتشا» الغريبة وأن ينتهي بها الأمر إلى تصديق أكاذيبها، بما في ذلك حكاية أنهم حملوا إلى «بانتشو بيًّا» قلوب أعدائه الدامية كي يأكلها، ولكن ليس الآن.

لقد أعادت إليها نظرة «بيدرو» الثقة بالحب الذي يكنه لها. فقد ظلت لشهور مسممة بفكرة إما أن «بيدرو» قد كذب عليها في

يوم الزفاف حين صرح لها بحبه لمجرد ألا يسبب العذاب لها، أو أنه قد أحب «روساورا» فعلًا مع مرور الوقت. وقد تولَّد انعدام اليقين هذا حين توقف، بصورة لا تفسير لها، عن الاحتفاء بمأكولاتها. كانت «تيتا» تكرس اهتمامًا مغمومًا كي يكون ما تطهوه في كل يوم أفضل من سابقه. وفي كل ليلة، بعد أن تحوك جزءًا لا بأس به من لحافها، كانت تنهمك بيأس في ابتكار وصفة طبق جديد كي تستعيد العلاقة التي نشأت بينها وبين «بيدرو» من خلال الطعام. وفي فترة العذاب تلك ولدت أفضل وصفاتها.

وهكذا مثلما يتلاعب شاعر بالكلمات، كانت تتلاعب على هواها بالمكونات والمقادير، متوصلة إلى نتائج مذهلة. ولكن من دون جدوى، فكل جهودها تذهب أدراج الرياح. لم تتوصل إلى أن تنتزع من شفتي «بيدرو» كلمة ثناء واحدة. ولكن ما لم تكن تعرفه هو أن ماما «إيلينا» قد «طلبت» من «بيدرو» أن يمتنع عن امتداح الطعام، إذ يكفي «روساورا» ما تعانيه من عدم الثقة بسبب بدانتها وتشوه قوامها بعد حملها، ولا حاجة لأن تتحمل فوق ذلك مجاملاته لـ«تيتا» بحجة لذة طبخها.

كم أحست «تيتا» بالوحدة في تلك الفترة. ويا لشدة افتقادها لـ«ناتشا»! كانت تكره الجميع، بمن فيهم «بيدرو». وكانت مقتنعة بأنها لن تعود إلى حب أحد ما دامت على قيد الحياة. لكن هذه القناعات كلها تبددت طبعًا فور تلقيها بين ذراعيها ابن «روساورا».

كان صباحًا باردًا من شهر مارس، وكانت هي في حظيرة الدجاج تجمع البيض الذي وضعته الدجاجات للتو، كي

تستخدمه في إعداد الفطور. بعض البيض كان لا يزال ساخنًا، ولهذا دسته تحت بلوزتها، ملاصقًا لصدرها، كي تخفف من البرد المزمن الذي تعاني منه والذي اشتدت حدته مؤخرًا. وكانت قد استيقظت قبل الجميع، كما هي عادتها.

لكنها استيقظت اليوم قبل نصف ساعة مما اعتادت عليه، كي ترتب ملابس «خيرترووديس» في حقيبة. فهي تريد انتهاز فرصة قيام «نيكولاس» بالسفر لتسلم قطيع ماشية، وتطلب منه جميلًا بإيصال الحقيبة إلى أختها. فعلت ذلك خفية عن أمها طبعًا. لقد قررت «تيتا» إرسال الملابس لأن فكرة أن «خيرترووديس» لا تزال عارية لم تفارق ذهنها. وكانت ترفض أن تقبل، طبعًا، صحة أن ذلك ما يتطلبه عمل أختها في الماخور على الحدود، وترى أن السبب الحقيقي هو عدم امتلاكها ما تلبسه.

أعطت «نيكولاس» حقيبة الملابس بسرعة وظرفًا عليه عنوان الماخور، حيث من المحتمل أن يجد «خيرترووديس» رجعت لتواصل القيام بأعمالها.

وفجأة سمعت «بيدرو» يُجهز العربة. استغربت عمله ذلك في مثل هذه الساعة المبكرة، ولكنها حين رأت ضوء الشمس انتبهت إلى أن الوقت قد تقدم كثيرًا وأن إرسالها إلى «خيرترووديس»، مع الملابس، جزءًا من ماضيها قد استغرق منها وقتًا أطول مما تصورته. لم يكن من السهل عليها أن تدس في الحقيبة ذكريات يوم المناولة الأولى لهن الثلاث معًا. فالشمعة وكتاب الصلوات والصورة خارج الكنيسة وجدت لها متسعًا مناسبًا جدًّا، ولكن ما لم يجد له متسعًا هو مذاق «التمال» و«الأتوليه» الذي أعدته لهن

«ناتشا» وأكلنه بعد ذلك مع أصدقائهن وأقاربهن. وجدت مكانًا لها لبذور المشمش الملونة، ولكن ليس لضحكاتهن وهن يلعبن بتلك البذور في فناء المدرسة، ولا للمعلمة «خوبيتا»، ولا الأرجوحة، ولا رائحة حجرة نومهن، ولا الشوكولاتة المخفوقة للتو. والجيد كذلك أنه لم يكن ثمة متسع لضرب ماما «إيلينا» وزجرها لهن، لأن «تيتا» سارعت إلى إغلاق الحقيبة بإحكام قبل أن تتسلل تلك الأمور إليها.

خرجت إلى الفناء في اللحظة التي كان «بيدرو» يصيح باحثًا عنها بيأس. عليه أن يذهب إلى «إيجل باس» لإحضار دكتور «براون»، وهو طبيب العائلة، ولم يجدها في أي مكان. فـ«روساورا» بدأت تشعر بآلام المخاض.

كلفها «بيدرو» راجيًا أن تعتني بها ريثما يعود.

كانت «تيتا» هي الوحيدة التي يمكنها عمل ذلك، لأن أحدًا لم يكن في البيت: ماما «إيلينا» و«تشينتشا» ذهبتا إلى السوق لشراء مؤن لمستودع المؤن لأنهما تنتظران الولادة بين لحظة وأخرى ولا تريدان أن يفتقد البيت أية سلعة ضرورية في هذه الظروف. لم تستطيعا الخروج من أجل تلك المشتريات من قبل لأن مجيء الفيدراليين ووجودهم الخطر في القرية حال من دون ذلك. لم تدريا عند خروجهما أن قدوم الطفل سيحدث بأسرع مما تظنانه، فما كادتا تغادران حتى بدأت «روساورا» معاناة مشقة الولادة.

لم تجد «تيتا» عندئذ بدًّا من الذهاب إلى أختها لترافقها، آملة أن يكون ذلك لوقت قصير.

ولم يكن لديها أي اهتمام بالتعرف على الطفل أو الطفلة أو أيٍّ يكن.

ولكن ما لم تتوقعه قطُّ هو أن يلقي الفيدراليون القبض على «بيدرو» بصورة جائرة ويمنعوه من الوصول إلى الطبيب، وألا تتمكن ماما «إيلينا» و«تشينتشا» من العودة بسبب تبادل إطلاق رصاص جرى في القرية وأجبرهما على اللجوء إلى بيت آل «لوبو». وبهذه الطريقة كانت هي الشخص الوحيد الحاضر عند مولد ابن أختها، هي بالذات!

خلال الساعات التي أمضتها إلى جانب أختها تعلمت أكثر مما تعلمته في سنوات دراستها كلها في مدرسة القرية. ولعنت مثلما لم تفعل من قبل جميع معلميها وأمها لأنهم لم يخبروها في أي يوم ما يجب عليها القيام به في حالة مخاض. فما هي في تلك اللحظة جدوى معرفة أسماء الكواكب ومرجع «كارينيو» من بدايته حتى نهايته إذا كانت أختها على وشك الموت بينما هي عاجزة عن تقديم أي عون لها؟ كان وزن «روساورا» قد ازداد ثلاثين كيلوجرامًا خلال الحمل، وهو ما يفاقم من صعوبة عملية ولادتها الأولى. وبترك بدانة أختها المفرطة جانبًا، لاحظت «تيتا» أن جسم «روساورا» آخذ بالتورم بصورة مفرطة. بدأ قدماها بالانتفاخ أولًا، ثم تلا ذلك انتفاخ الوجه واليدين. كانت «تيتا» تمسح لها العرق عن جبهتها وتحاول تشجيعها، لكن بدا أن «روساورا» لا تسمعها.

كانت «تيتا» قد رأت ولادة بعض الحيوانات، ولكن تلك الخبرات لا تفيدها شيئًا في هذه اللحظات. ففي تلك الحالات كانت متفرجة وحسب. الحيوانات تعرف جيدًا ما عليها عمله،

أما هي بالمقابل فلا تعرف شيئًا عن أي شيء. هيأت ملاءات وماء ساخنًا ومقصًّا معقمًا. كانت تعرف أن عليها قصَّ الحبل السري ولكنها لم تكن تعرف كيف ولا متى ولا بأي طول. كانت تعرف أنه لا بد من بعض أفعال التنبيه للوليد فور خروجه إلى هذا العالم، ولكنها لم تكن تعرف ما هي. الشيء الوحيد الذي كانت تعرفه هو أنه يجب أن يولد أولًا، ولم تكن لديها فكرة متى سيحدث ذلك! كانت «تيتا» تكثر من النظر بين ساقي أختها، ولا تجد شيئًا. مجرد نفق مظلم، صامت وعميق وحسب. وبينما «تيتا» جاثية قبالة «روساورا»، طلبت من «ناتشا» بيأس شديد أن تنوِّرها في هذه اللحظات.

فما دام بإمكان «ناتشا» أن تملي عليها بعض وصفات الطعام، فمن الممكن لها مساعدتها كذلك في هذا الموقف الحرج! لا بد لأحد من عالم الغيب أن يساعد «روساورا»، لأن أناس هذا العالم لا وسيلة لديهم.

لم تدرِ كم من الوقت صلَّت جاثية، ولكنها عندما فتحت عينيها أخيرًا تحول النفق المظلم بين لحظة وأخرى إلى نهر أحمر، إلى بركان مندفع، إلى شق ورقي. كان لحم أختها ينفتح ليقدم ممرًّا إلى الحياة. لن تنسى «تيتا» أبدًا ذلك الصوت ولا صورة رأس ابن أختها يخرج ظافرًا في صراعه من أجل الحياة. لم يكن رأسًا جميلًا، بل إن شكله بدا أشبه بكرة سكر خام بسبب الضغط الذي كانت عظامه خاضعة له لساعات. ولكنه بدا لـ«تيتا» أجمل من كل الرؤوس التي رأتها في حياتها.

اجتاح بكاء الطفل كل الفضاءات الشاغرة في قلب «تيتا».

وعرفت عندئذ أنها أحبت من جديد: أحبت الحياة، وهذا الطفل، و«بيدرو»، وحتى أختها المكروهة منذ زمن طويل. تناولت الطفل بين يديها، حملته إلى «روساورا»، وبكتا معًا برهة وهما تضمانه. بعد ذلك، وباتباع تعليمات كانت تهمس لها «ناتشا» بها في أذنيها، عرفت بالضبط الخطوات كافة التي يجب عليها اتباعها: قطع الحبل السري في المكان والوقت المناسبين، تنظيف بدن الطفل بزيت اللوز الحلو، عَصْبُ سرته وإلباسه. ومن دون أي مشكلة عرفت كيف تُلبسه الفانلة أولًا والقميص، وبعد ذلك عصابة على السرة ثم حفاظ قطني ويليه حفاظ مشمع، وبعد ذلك فانلة طويلة تغطي الساقين، وبعد ذلك القميص وفوقه رداء صوفي، ثم الجوربين والحذاء، وأخيرًا، قاطعت يديه فوق صدره وثبتتهما بقماط كيلا يخدش وجهه. حين رجعت ماما «إيلينا» و«تشينتشا» في الليل وبرفقتهما آل «لوبو» أبدى الجميع إعجابهم بالعمل الاحترافي الذي قامت به «تيتا». وملفوفًا مثل قطعة خشب، كان الطفل ينام بهدوء تام.

رجع «بيدرو» ومعه الدكتور «براون» في اليوم التالي، بعد أن أطلقوا سراحه. وقد طمأنت عودته الجميع.

كانوا يخشون على حياته. ولم يعد لديهم الآن سوى القلق على صحة «روساورا» التي لا تزال متوعكة ومتورمة. قام الدكتور «براون» بفحصها فحصًا شاملًا. وعندئذ فقط عرفوا مقدار الخطورة التي كانت عليها عملية الولادة. فقد تعرضت «روساورا»، على حدِّ قول الدكتور، لتشنج حَمْلي كان يمكن له أن يُميتها. وبدا متفاجئًا جدًّا من كون «تيتا» قد عملت على

مساعدتها بكل تلك الثقة بالنفس والتصميم في ظروف على ذلك النحو من السوء. حسن، من يدري ما الذي اجتذب اهتمامه أكثر، أهو كون «تيتا» قد أعانتها وحدها ومن دون أن تكون لديها أية خبرة، أم اكتشافه فجأة أن «تيتا»، تلك الطفلة ذات الأسنان الناتئة التي يتذكرها، قد تحولت إلى امرأة باهرة الجمال من دون أن ينتبه إلى ذلك؟

لم يشعر منذ وفاة زوجته، قبل خمس سنوات، بميل إلى أية امرأة. فألم فقدان زوجته ـ وكان لا يزال عمليًّا حديث الزواج بها ـ أفقده الإحساس بالحب خلال تلك السنوات. ويا للإحساس الغريب الذي أحدثته فيه رؤية «تيتا». اجتاحت موجة تنميل جسده كله، أيقظت حواسه الهاجعة ونشطتها. كان يتأملها كمن يراها أول مرة. كم تبدو له أسنانها لطيفة الآن، فقد اتخذت أبعادها الحقيقية ضمن التناسق المتقن لتقاطيع وجهها الدقيقة والرقيقة.

قطع صوت ماما «إيلينا» أفكاره:

ـ ألا يضايقك يا دكتور المجيء مرتين في اليوم إلى أن تتجاوز ابنتي الخطر؟

ـ لا يضايقني ذلك طبعًا! أولًا لأنه واجبي، وثانيًا لأن التردد على منزلكم يسعدني.

من حسن حظه حقًّا أن ماما «إيلينا» كانت قلقة جدًّا على صحة «روساورا»، ولم تلمح بريق الإعجاب في نظرة «جون» وهو يتطلع إلى «تيتا»، لأنها لو انتبهت لما فتحت له أبواب بيتها بكل تلك الثقة.

لم يكن الدكتور يمثل في ذلك الحين أي مشكلة لماما

«إيلينا». فالشيء الوحيد الذي يُقلقها أشد القلق هو انعدام الحليب في ثديي «روساورا».

لقد حالفهم الحظ بالعثور على مرضعة في القرية تولت إرضاع الطفل. وهي قريبة لـ«ناتشا»، أنجبت للتو طفلها الثامن ووافقت بطيبة خاطر على تغذية حفيد ماما «إيلينا». وقد فعلت ذلك على أحسن وجه طوال شهر، حتى صباح أحد الأيام، حين كانت متوجهة إلى القرية لزيارة أسرتها، وأصابتها رصاصة طائشة أفلتت من تبادل نيران بين متمردين وفيدراليين، وكان جرحها قاتلًا. جاء أحد أقاربها لينقل الخبر إلى المزرعة في الوقت الذي كانت فيه «تيتا» و«تشينتشا» تخلطان في قِدر كبيرة من الفخار مكونات «المولية» كافة.

إنها الخطوة الأخيرة، وهي تجري بعد أن تكون قد طُحنت المكونات كافة مثلما أُشير آنفًا. تخلط المكونات في قِدر وتضاف إليها قطع الديك الرومي وألواح الشوكولاتة والسكر حسب الرغبة. وما إن يتكثف الخليط حتى يُرفع عن النار.

انتهت «تيتا» من إعداد «المولية» وحدها، لأن «تشينتشا»، وفور علمها بالخبر، ذهبت إلى القرية في محاولة للحصول على مرضعة أخرى لابن أختها. لم ترجع حتى حلول الليل ومن دون أن تتوصل إلى بغيتها. كان الطفل يبكي بيأس. وقد حاولن إعطاءه حليبًا بقريًّا فرفضه. وحاولت «تيتا» عندئذ إعطاءه شايًا مثلما فعلت «ناتشا» معها عند ولادتها، ولكن من دون جدوى: لقد رفضه الطفل أيضًا. فخطر لها أن تضع الطرحة التي كانت «لوبيتا» المرضعة قد نسيتها عندهم، لعل الطفل يهدأ حين يشم

الرائحة المألوفة المنبعثة منها، ولكن العكس هو ما حدث، فقد اشتد بكاء الطفل حدة، لأن تلك الرائحة تشير إلى قرب تلقيه غذاءه وهو لا يفهم سبب تأخره. كان يبحث عن وجبة حليبه بين نهدي «تيتا». وإذا كان هناك شيء في الحياة لا يمكن لـ«تيتا» أن تتحمله فإنه رؤيتها جائعًا يطلب طعامًا من دون أن تستطيع تقديمه إليه. كان ذلك يسبب لها غمًّا شديدًا. وحين لم تعد قادرة على كبح نفسها والتحمل لمزيد من الوقت، فتحت «تيتا» بلوزتها وقدمت صدرها للطفل. كانت تعرف أنه جاف تمامًا، ولكنه يمكن أن ينفعه كمصاصة على الأقل، ويبقيه مشغولًا ريثما تقرر هي ما ستفعله لتهدئة جوعه.

التقط الطفل الحلمة بيأس وراح يمتص ويمتص بقوة غير عادية تمكن معها من إخراج حليب من «تيتا». وحين رأتْ أن وجه الطفل يستعيد الهدوء شيئًا فشيئًا وسمعته يبتلع، ارتابت بأن شيئًا غريبًا يحدث. أيكون ممكنًا أن الطفل يتغذى منها؟ ولتتأكد من ذلك أبعدت الطفل عن صدرها ورأت كيف تنبثق منه دفقة حليب. لم تتوصل «تيتا» إلى فهم ما يحدث. لا يمكن لفتاة عازبة أن تدرَّ حليبًا، إنه أمر خارق لا تفسير له في هذه الأزمنة. وحين أحس الطفل بأنه قد فُصل عن غذائه بدأ يبكي من جديد. وعلى الفور ألقمته «تيتا» صدرها وتركته عليه إلى أن أشبع جوعه تمامًا ونام بهدوء كقديس مبارك. كانت مستغرقة في تأمل الطفل ولم تنتبه متى دخل «بيدرو» إلى المطبخ. لقد كانت «تيتا» في تلك اللحظة إلهة الخصوبة «سيريس» نفسها مجسدة، إنها ربة الغذاء بكمالها.

لم يَشعر «بيدرو» بأدنى قدر من المفاجأة، ولم يكن بحاجة إلى تلقي أي تفسير. دنا منها مفتونًا ومبتسمًا، وانحنى عليهما وقبَّل «تيتا» على جبهتها. انتزعت «تيتا» نهدها من فم الطفل، وكان قد شبع. وعندئذ رأت عينا «بيدرو» فعلًا وبالكامل ما كانتا قد رأتاه تحت الملابس من قبل: نهدي «تيتا».

حاولت «تيتا» أن تستر صدرها بالبلوزة، فساعدها «بيدرو» بصمت وكثير من الرقة. وفي أثناء ذلك هيمنت عليهما مجموعة مشاعر متلاقية: حب، رغبة، حنان، شبق، حياء... خوف من أن يجدا نفسيهما وقد اكتُشف أمرهما. نبههما إلى الخطر في الوقت المناسب وقع خطوات ماما «إيلينا» على الأرضية الخشبية. فاستطاعت «تيتا» أن تضبط وضع بلوزتها بصورة صائبة، وابتعد «بيدرو» عنها قبل أن تدخل ماما «إيلينا» المطبخ. وهكذا لم تستطع أن تجد، عندما فتحت الباب، أي شيء يثير القلق ضمن ما تسمح به الأعراف الاجتماعية. وكان «بيدرو» و«تيتا» يبديان قدرًا كبيرًا من الجدية.

ومع ذلك كان يُشتَمُّ في الجو شيء جعلها تشحذ حواسها كلها وتحاول اكتشاف ما يثير قلقها.

ـ ماذا جرى للطفل يا «تيتا»؟ هل توصلتِ إلى إطعامه؟

ـ أجل يا مامي، شرب شايه ونام.

ـ فليتبارك الرب! ماذا تنتظره إذًا يا «بيدرو» كي تحمل الطفل إلى امرأتك؟ يجب ألا يظل الأطفال بعيدين عن أمهاتهم.

خرج «بيدرو» حاملًا الطفل بين ذراعيه، ولم تتوقف ماما

«إيلينا» عن مراقبة «تيتا» بحرص؛ ففي عينيها وميض اضطراب لا يروق لها بأي حال.

ـ هل جهزت مشروب الشوكولاتة لأختك؟

ـ أجل يا مامي.

ـ أعطيني إياه لأحمله إليها، إنها بحاجة إلى تناوله ليل نهار كي يدر حليبها.

ولكن على الرغم من كل مشروب الشوكولاتة الذي تناولته لم تدر حليبًا قطُّ. أما «تيتا» بالمقابل، فكان لديها منذ ذلك اليوم ما يكفي من الحليب لا لتغذية «روبرتو» وحده وإنما طفلان آخران لو أنها أرادت ذلك. ولأن «روساورا» ظلت متوعكة بضعة أيام فإن أحدًا لم يستغرب تولي «تيتا» إطعام ابن أختها؛ ولكن ما لم يكتشفوه قطُّ هو الطريقة التي تفعل بها ذلك، إذ إن «تيتا»، بمساعدة «بيدرو»، بذلت كثيرًا من الحرص كيلا يراها أحد.

وهكذا بدلًا من أن يكون الطفل سببًا في ابتعاد أحدهما عن الآخر، انتهى الأمر إلى ارتباطهما أكثر. فصار يبدو أن أم الطفل هي «تيتا» وليس «روساورا». وكانت هي نفسها تشعر بذلك وتبديه. ففي يوم تعميده، يا للفخر الذي حملت به ابن أختها وعرضته على جميع المدعوين! لأن «روساورا» لم تستطع أن تحضر سوى الطقوس في الكنيسة، وكانت لا تزال تشعر بالتوعك. فحلت عندئذ «تيتا» محلها في المأدبة.

كان الدكتور «جون براون» ينظر إلى «تيتا» بافتتان. ولا يستطيع رفع عينيه عنها. فقد حضر «جون» حفل التعميد ليرى فقط إن كان سيتمكن من التحدث إليها على انفراد. فمع أنه كان

يراها يوميًّا خلال زياراته الطبية لـ«روساورا»، إلا أن الفرصة لم تسنح لهما لتبادل الحديث بحرية ومن دون وجود شخص آخر. استغل فرصة أن «تيتا» كانت تمشي قريبًا من المائدة التي يجلس إليها، فنهض ودنا منها بحجة رؤية الطفل.

ـ كم هو هذا الطفل في حالة جيدة مع خالة بهذا الجمال!

ـ شكرًا يا دكتور.

ـ مع أن هذا الطفل ليس ابنك، إلا أنني أستطيع أن أتخيل كم سيكون جميلًا المشهد الذي سأراه عندما يكون الطفل الذي تحملينه ابنك.

مرت سحابة حزن على وجه «تيتا». فلمحها «جون» وقال:

ـ اعذريني، يبدو أنني قلتُ شيئًا غير لائق.

ـ لا، ليس الأمر كذلك. كل ما هنالك أنني لا أستطيع الزواج، ولا إنجاب أبناء، لأنه عليَّ أن أعتني بأمي حتى وفاتها.

ـ كيف ذلك؟! ما هذا إلا حماقة.

ـ ولكن هكذا هي الحال. والآن أرجو أن تعذرني، سأذهب للاهتمام بضيوفي.

ابتعدت «تيتا» بسرعة مُخلفةً وراءها «جون» في حالة ارتباك تام. وهي أيضًا كانت مرتبكة، ولكنها استعادت السيطرة على نفسها فورًا حين شعرت بـ«روبرتو» بين ذراعيها، فما أهمية قدرها ما دام هذا الطفل قريبًا منها، وما دام لها أكثر مما هو لأي أحد سواها. فهي تمارس دور الأم فعليًّا من دون اللقب الرسمي. لديها «بيدرو» و«روبرتو» وليست بحاجة لأي شيء أكثر من ذلك في الحياة.

كانت «تيتا» سعيدة جدًّا حتى إنها لم تنتبه إلى أن أمها، مثلها مثل «جون»، وإن يكن لسبب آخر، لم تكن ترفع بصرها عنها لحظة واحدة. إنها مقتنعة بأن هنالك شيئًا ما يدور بين «تيتا» و«بيدرو». وفي انهماكها بمحاولة اكتشافه لم تأكل شيئًا، وكانت تركز على المراقبة إلى حد لم تنتبه معه إلى نجاح الحفلة. كان الجميع متفقين على أن جانبًا كبيرًا من الفضل في النجاح يعود إلى «تيتا»، فـ«المولیه» الذي أعدته لذيذ جدًّا! ولم تكن تتوقف عن تلقي التهاني على مزاياها كطاهية، وكان الجميع يرغبون في معرفة سر تميزها. والمؤسف حقًّا أنه في اللحظة التي كانت «تيتا» ترد فيها على هذا السؤال قائلة إن السر هو أنها قد أعدت «المولیه» بحب عميق، كان «بيدرو» قريبًا منها وقد تبادلا النظر بتواطؤ لجزء من الثانية، متذكرين اللحظة التي كانت فيها «تيتا» تطحن المكونات في الجرن الحجري، وقد التقطت ماما «إيلينا» تلك الومضة بنظرتها الصقرية، عن بُعد عشرين مترًا، وساءها ذلك بعمق.

لقد كانت المستاءة الوحيدة في الواقع بين جميع المدعوين. والمثير للفضول أن الجميع، بعد تناولهم «المولیه»، دخلوا في حالة انشراح جعلت ردود أفعالهم سعيدة بطريقة نادرة الحدوث. كانوا يضحكون ويصخبون كما لم يفعلوا من قبل قط، وسيمر وقت طويل قبل أن يتكرر فعلهم ذلك. كان الصراع الثوري يهدد بنشر الجوع والموت في كل مكان. ولكن بدا أن الجميع يحاولون في تلك اللحظات نسيان أن هنالك كثيرًا من تبادل الرصاص في القرية.

والوحيدة التي لم تفقد رزانتها هي ماما «إيلينا» التي كانت مشغولة جدًّا في البحث عن حل لقلقها، وقد استغلت لحظة كانت فيها «تيتا» قريبة منها بما يكفي لئلا تفوتها كلمة واحدة مما تقوله، فتوجهت إلى الأب «إجناثيو» معلقة بصوت عالٍ:

ـ نظرًا للمسار الذي تتخذه الأمور يا أبتاه، أشعر بالقلق من أن تحتاج ابنتي «روساورا» يومًا إلى الطبيب ولا نتمكن من إحضاره لها، مثلما حدث يوم وضعت وليدها. أظن أنه من المناسب لها أكثر، بعد أن تستعيد قواها، أن تذهب مع زوجها وصغيرها للعيش في «سان أنطونيو» بتكساس، مع ابن عمي. وهناك ستحصل على رعاية طبية أفضل.

ـ أنا لا أرى ما ترين يا «دونيا إيلينا»، فأنت تحتاجين، بسبب الوضع السياسي تحديدًا، إلى رجل في البيت يؤمن لك الحماية.

ـ لم أحتج إلى رجل في أي أمر قط، فقد تحملت مسؤولية المزرعة وبناتي وحدي. الرجال ليسوا مهمين كثيرًا للحياة يا أبتاه.

ثم أكدت:

ـ والثورة ليست خطيرة كما يصورونها. فالفلفل يكون أسوأ حين يكون الماء بعيدًا!

أجابها ضاحكًا:

ـ معك حق! آه، يا لـ«دونيا إيلينا»! إنك سريعة البديهة على الدوام. وأخبريني، هل فكرت أين سيعمل «بيدرو» في «سان أنطونيو»؟

ـ يمكنه العمل محاسبًا في شركة ابن عمي، لن تكون لديه مشكلة، إنه يتكلم الإنجليزية بإتقان.

كان للكلمات التي سمعتها «تيتا» وقع دوي مدفع في رأسها. لا يمكن لها أن تسمح بحدوث ذلك. لا يمكنهم انتزاع الطفل منها الآن. عليها منع وقوع ذلك. لقد نجحت ماما «إيلينا»، فجأة، في أن تفسد عليها الحفلة، أول حفلة تستمتع بها في حياتها.

يتبع...

الوصفة التالية: سجق شمالي

٥

مايو

سجـق شمالـي

المُكونات:

٨ كج فيليه لحم خنزير
٢ كج قطع أو رؤوس فيليه لحم عجل
١ كج فلفل عريض
٦٠ ج كمون
٦٠ ج أوريجانو
٣٠ ج فلفل أسمر
٦٠ ج قرنفل
٢ فنجان ثوم
٢ ل خل تفاح
٤\١ كج ملح

طريقة التحضير

يوضع الخل على النار ويضاف إليه الفلفل العريض بعد أن تكون بذوره قد انتزعت. وما إن يبدأ الغليان حتى يُرفع عن النار ويوضع غطاء فوق القِدر من أجل أن يطرى الفلفل.

وضعت «تشينتشا» الغطاء وهرعت إلى البستان لتساعد «تيتا» في البحث عن ديدان. فماما «إيلينا» قد تصل بين لحظة وأخرى إلى المطبخ لتراقب عملية صنع السجق وإعداد الماء لحمامها، وقد كانتا متأخرتين جدًّا في الأمرين كليهما. والسبب أن «تيتا»، منذ ذهاب «بيدرو» و«روساورا» والطفل للعيش في «سان أنطونيو» بتكساس، فقدت كل رغبة في الحياة، باستثناء تلك التي يوقظها فيها فرخ حمام أعزل تغذيه بديدان. وما عدا ذلك لم يكن يهمها حتى لو انهار البيت مهدمًا.

لم تشأ «تشينتشا» مجرد تصور ما الذي يمكن أن يحدث إذا علمت ماما «إيلينا» أن «تيتا» لا تريد المشاركة في صنع السجق.

لقد قررن صنع السجق لأنه إحدى أفضل الوسائل لاستخدام

لحم الخنزير بطريقة اقتصادية، كما أنه يؤمن لهن غذاء جيدًا فترة طويلة، من دون التعرض لخطر فساد اللحم. وقد أعددن كذلك كمية كبيرة من اللحم المقدد والجامبون والشحم المجفف والسمن. كان عليهن الحصول على أفضل استفادة من ذلك الخنزير، وهو أحد الحيوانات القليلة التي نجت من زيارة عناصر من الجيش الثوري لهن قبل أيام من ذلك.

يوم جاء المتمردون لم يكن في المزرعة أحد باستثناء ماما «إيلينا» و«تشينتشا» وعاملين اثنين هما «روساليو» و«جوادالوبي». أما رئيس العمال «نيكولاس» فلم يكن قد رجع بالماشية التي قضت الحاجة الملحة بذهابه لشرائها، ذلك أنهم كانوا قد اضطروا، حيال شح الأغذية، إلى ذبح ما لديهم من حيوانات شيئًا فشيئًا، وصار الأمر يتطلب التعويض عما ذبحوه. وقد اصطحب «نيكولاس» معه اثنين من العمال الموثوقين لمساعدته، وترك ابنه «فيليبه» لرعاية المزرعة. لكن ماما «إيلينا» أعفته من هذه المهمة وتولتها بنفسها بدلًا منه، كي يتمكن «فيليبه» من الذهاب إلى «سان أنطونيو» بتكساس لاستطلاع أخبار «بيدرو» وأسرته. فقد كانوا يخشون أن يكون قد أصابهم مكروه، لأنهم لم يتصلوا منذ ذهابهم.

جاء «روساليو» بأقصى سرعة على حصانه ليخبرهم بأن قوة عسكرية تقترب من المزرعة. وعلى الفور تناولت ماما «إيلينا» بندقيتها، وبينما هي تنظفها فكرت في أن تخبئ أكثر ممتلكاتها قيمةً عن نهم وشهوة أولئك الرجال. فالإشارات السابقة التي قدمها الثوار لم تكن طيبة بأي حال، ولكنها لم تكن جديرة بالثقة

كذلك لأنها أتت من الأب «إجناثيو» ورئيس بلدية «بييدراس نجراس». فمنهما عرفت كيف يدخل الثوار البيوت، وكيف يخربون كل شيء، وكيف يغتصبون الفتيات اللاتي يجدونهن في طريقهم. وهكذا أمرت «تيتا» و«تشينتشا» والخنزير بالبقاء مختبئين في القبو.

عندما وصل الثوار وجدوا ماما «إيلينا» أمام مدخل البيت. وكانت تخفي بندقيتها تحت طيات تنورتها، وإلى جانبها كان يقف «روساليو» و«جوادالوبي». التقت نظرتها بنظرة القائد الذي جاء على رأس القوة، وقد أدرك هذا على الفور، من خلال قسوة تلك النظرة، أنهم أمام امرأة يجب التعامل معها بحذر.

ـ مساء الخير يا سيدتي، هل حضرتك صاحبة هذه المزرعة؟

ـ أجل. ماذا تريدون؟

ـ جئنا نطلب، بالحسنى، تعاون حضرتك مع القضية.

ـ وأنا أقول لكم، بالحسنى، أن تحملوا ما تشاؤون من المؤن التي تجدونها في المستودع والحظائر. ولكن من دون أن تلمسوا شيئًا مما في داخل بيتي، مفهوم؟ لأن تلك الأشياء لقضيتي الخاصة.

أدى لها القائد التحية مازحًا وأجابها:

ـ مفهوم، سيدي الجنرال.

استحسن الجنود كلهم المزحة واحتفوا بها، ولكن القائد انتبه إلى أن المزاح لا ينفع مع ماما «إيلينا»، فهي تتكلم بجدية، وبجدية بالغة.

وفي محاولة منه لعدم الرضوخ لنظرتها المتسلطة والصارمة

التي توجهها إليه أمر بتفتيش المزرعة. ما وجدوه لم يكن بالشيء العظيم، مجرد قليل من الذرة تحتاج إلى فرط وثماني دجاجات. اقترب أحد الرقباء من القائد متضايقًا وقال له:

ـ لا بد أن هذه العجوز قد خبأت كل شيء داخل المنزل، دعني أدخل للتفتيش!

وضعت ماما «إيلينا» إصبعها على الزناد، وردت عليه:

ـ أنا لا أمزح، وقد قلت إن أحدًا لن يدخل بيتي!

حاول الرقيب التقدم نحو البيت وهو يضحك ويؤرجح دجاجات كان يحملها في يده. رفعت ماما «إيلينا» البندقية، واستندت إلى الجدار كيلا تُسقطها على الأرض دفعةُ الارتداد التي ستتلقاها، وأطلقت النار على الدجاجات. تطايرت قطع اللحم في كل الأنحاء وانتشرت في الجو رائحة ريش محترق.

أخرج «روساليو» و«جوادالوبي» مسدسيهما مرتعدين ومقتنعين تمامًا بأن ذلك اليوم هو آخر يوم لهما في الدنيا. حاول الجندي الذي إلى جانب القائد أن يطلق النار على ماما «إيلينا»، لكن القائد منعه بإيماءة. وكان الجميع في انتظار أمر منه للهجوم.

ـ أنا ماهرة جدًّا في إصابة الهدف، وسيئة الطبع جدًّا يا كابتن. الطلقة التالية ستوجه إليك، وأؤكد لك أنني أستطيع إطلاق النار عليك قبل أن يقتلوني، ولهذا من الأفضل لكلينا التعامل باحترام، لأننا إذا قُتلنا لن يفتقد وجودي أحد، ولكن من المؤكد أن الأمة سوف تحزن كثيرًا على فقدانك. أليس كذلك؟

لقد كان من الصعب حقًّا تحمل نظرة ماما «إيلينا»، حتى

بالنسبة إلى قائد. ففيها شيء يبعث على الخوف. والتأثير الذي تخلفه فيمن يتلقونها هو خوف لا يوصف: يشعرون بأنهم قد حُوكموا وصدر الحكم ضدهم على أخطاء اقترفوها. يسقط المرء أمامها ضحية خوف صبياني من السلطة الأمومية.

ـ أجل، معكِ حق، لكن لا تقلقي، لن يقتلك أو يسيء احترامك أحد. هذا ما كان ينقصنا! فامرأة بمثل شجاعتك تستحق إعجابي على الدوام.

ثم توجه إلى جنوده قائلًا:

ـ لن يدخل أحد هذا البيت، انظروا ما يمكن أن تجدوه هنا ولنغادر.

ما اكتشفوه هو برج حمام كبير يشغل كل السقف الداخلي تحت سطح المنزل الفسيح المائل. ومن أجل الوصول إليه كان لا بد لهم من تسلق سلم طوله سبعة أمتار. صعد ثلاثة من الثوار وظلوا مذهولين برهة طويلة قبل أن يتمكنوا من الحركة. أدهشهم اتساع المكان وظلمته، وهديل الحمام المجتمع هناك الذي كان يدخل ويخرج من كوى جانبية صغيرة. أغلقوا الباب والكوى كيلا تتمكن أي حمامة من الهروب وراحوا يمسكون بالفراخ الصغيرة والحمائم.

جمعوا كمية كبيرة تكفي لإطعام الكتيبة أسبوعًا. وقبل أن ينسحبوا جاب القائد الفناء الخلفي على حصانه، واستنشق بعمق رائحة الورد التي لا تمحى والتي لا تزال باقية في ذلك المكان. أغمض عينيه وظل على تلك الحال لحظات لا بأس بها.

وحين عاد إلى ماما «إيلينا» سألها:

ـ قيل لي إن لديك ثلاث بنات، أين هن؟

ـ الكبرى والصغرى تعيشان في الولايات المتحدة، والأخرى ماتت.

بدا أن الخبر قد هز مشاعر القائد. فرد بصوت يكاد لا يُسمع:

ـ أمر مؤسف، مؤسف حقًّا.

ودَّع ماما «إيلينا» بانحناءة احترام. وذهبوا جميعهم بهدوء مثلما جاؤوا، وظلت ماما «إيلينا» حائرة جدًّا حيال سلوكهم معها؛ وهو لا يتوافق مع سلوك القتلة القساة الذي كانت تنتظره. ومنذ ذلك اليوم، فضلت عدم إبداء رأي بالثوار. ولكن ما لم تعرفه قط هو أن ذلك القائد هو «خوان أليخاندريث» نفسه الذي أخذ ابنتها «خيرترووديس» قبل شهور.

لقد كانا متعادلين، فالقائد بدوره كان يجهل أيضًا أن كمية كبيرة من الدجاج قد دُفنتْ في الرماد، في الجزء الخلفي من بيت ماما «إيلينا». ذلك أنهم تمكنوا من ذبح عشرين دجاجة قبل وصول العسكر. يحشى الدجاج بحبوب القمح أو الشوفان ويوضع بريشه وبكل شيء في قِدر من الفخار المطلي بالورنيش. ثم تغطى القِدر جيدًا بقطعة قماش ويمكن بهذه الطريقة حفظ اللحم في حالة جيدة لأكثر من أسبوع.

إنها طريقة معروفة في المزرعة من أزمنة قديمة، حين كان عليهم حفظ الحيوانات بعد حملة صيد.

حين خرجت «تيتا» من مخبئها كان أول ما افتقدته هو هديل الحمام المتواصل، إذ كان يشكل، منذ ولادتها، جانبًا من

حياتها اليومية. ولكن ذلك الصمت المفاجئ جعلها تشعر بعزلة مباغتة. فكانت تلك هي أشد لحظة شعرت فيها بغياب «بيدرو» و«روساورا» و«روبرتو» عن المزرعة. صعدت بسرعة درجات السلم الكبير المؤدي إلى برج الحمام، وكان الشيء الوحيد الذي وجدته هو سجادة الريش والقذارة التي تميز المكان.

كانت الريح تتسلل من الباب المفتوح وتُطير بعض الريش فتسقط فوق بساط من الصمت. وفجأة سمعت صوتًا خافتًا: إنه فرخ صغير حديث الفقس نجا من المذبحة. أخذته «تيتا» واستعدت للنزول، لكنها توقفت لحظة لترى سحابة الغبار التي أثارتها خيول الجنود عند رحيلهم. وتساءلت باستغراب عن سبب عدم إقدامهم على التعرض لأمها بأي أذى. لقد كانت تصلي في مخبئها كيلا يقع مكروه لماما «إيلينا»، ولكنها بصورة لا واعية كانت تأمل أن تجدها ميتة عند خروجها.

ولإحساسها بالخجل من مثل تلك الأفكار، وضعت فرخ الحمام بين نهديها كي تظل يداها طليقتين وتتمكن من التمسك جيدًا بالسلم الخطير. نزلت بعد ذلك من برج الحمام. وصار اهتمامها الأكبر منذ ذلك اليوم تغذية الفرخ الهزيل. وبهذه الطريقة فقط كانت تجد للحياة شيئًا من المعنى. ومع أنها متعة لا تقارن بتلك التي توفرها تغذية كائن بشري، إلا أنها تشبهها بطريقة ما.

كان ثدياها قد جفا بين عشية وضحاها بفعل الألم الذي سببه لها ابتعاد ابن أختها عنها. وبينما هي تبحث عن ديدان، لم تكن تستطيع التوقف عن التفكير فيمن يُطعم «روبرتو» الآن وكيف

يفعل ذلك. كان التفكير في هذا الأمر يعذبها طيلة النهار والليل. ولم تستطع النوم خلال ذلك الشهر كله ولو لحظة واحدة. والشيء الوحيد الذي توصلت إلى تحقيقه خلال تلك الفترة هو مضاعفة حجم لحافها الهائل خمسة أضعاف. جاءت «تشينتشا» لتخرجها من أفكارها التي يرثى لها، واقتادتها دفعًا إلى المطبخ. أجلستها قبالة المهراس وأجبرتها على طحن التوابل مع الفلفل. من أجل تسهيل هذه العملية يستحسن أن تُسكب من حين لآخر دفقة من الخل في أثناء الطحن. وأخيرًا يخلط اللحم المفروم جيدًا أو المهروس مع الفلفل والتوابل ويترك فترة طويلة ليركد، ويفضل تركه طيلة الليل.

ما كادتا تبدآن الطحن حتى دخلت ماما «إيلينا» إلى المطبخ لتسأل عن سبب عدم ملء حوض الحمام بالماء. فهي لا تحب الاستحمام في وقت متأخر، لأن ذلك لا يتيح للشعر أن يجف بصورة مناسبة.

تحضير الحمَّام لماما «إيلينا» أشبه بالتحضير لطقس احتفالي. يجب غلي الماء مع زهر الخزامى، وهي رائحة ماما «إيلينا» العطرية المفضلة. بعد ذلك تجري «تصفيته» بقطعة قماش نظيفة، وتضاف إليه قطرات من خمر القصب. وأخيرًا يجب حمل دلاء خشبية صغيرة، واحدًا بعد الآخر، مملوءة بذلك الماء الساخن، إلى «الغرفة المظلمة». وهي حجرة صغيرة في أقصى البيت، ملاصقة للمطبخ. هذه الحجرة، كما يشير اسمها، لا تتلقى أي شعاع من الضوء لأنها بلا نوافذ. ولها باب ضيق فقط. وفي الداخل، في منتصف الحجرة، يوجد حوض خشبي كبير

يُسكب الماء فيه. وإلى جانبه إناء من القصدير يصب فيه الماء مع مسحوق «شيشي» الصابوني لغسيل شعر ماما «إيلينا».

كانت «تيتا»، المكلفة بخدمة أمها حتى موتها، هي الوحيدة التي يمكنها حضور ذلك الطقس ورؤية أمها عارية. ولا أحد سواها. ومن أجل ذلك شيدت هذه الحجرة لكبح الفضوليين. على «تيتا» أن تغسل بدن أمها أولًا، وبعد ذلك شعرها، ثم تتركها أخيرًا تستريح لحظات، مستمتعة بالماء، بينما تعكف هي على كيِّ الملابس التي سترتديها ماما «إيلينا» عند خروجها من حوض الاستحمام.

وبأمر من أمها، تساعدها «تيتا» في تجفيف جسدها وفي ارتداء ملابسها الدافئة جيدًا بأسرع ما يمكن لتجنب إصابتها بنزلة برد. ثم تفتح الباب مليمترًا واحدًا كي تبرد الحجرة ببطء ولا يتعرض جسم ماما «إيلينا» لتبدل فجائي في درجة الحرارة. وتقوم في أثناء ذلك بتسريح شعرها مستضيئة بشعاع النور الخافت الذي يتسرب من شق الباب الموارب ويخلق جوًّا سحريًّا بكشفه الهيئات النزوية التي يشكلها بخار الماء. وتظل تمشط لها شعرها إلى أن يجف تمامًا، عندئذ تجدل لها ضفيرة وينتهي ذلك الطقس. كانت «تيتا» تحمد الله دومًا لأن أمها لا تستحم سوى مرة واحدة في الأسبوع، ولولا ذلك لكانت حياتها جلجلة حقيقية.

ما يحدث بشأن الحمام، حسب رأي ماما «إيلينا»، هو مثل ما يحدث في الطعام: «تيتا» ترتكب ما لا حصر له من الأخطاء مهما كان ما تبذله من جهد. فإما أن تكون في القميص التحتاني

تجعيدة صغيرة أو لا يكون الماء ساخنًا بصورة كافية أو أن فرق الشعر عند جدل الضفيرة يكون ملتويًا؛ وباختصار، يبدو أن فضيلة ماما «إيلينا» الوحيدة هي العثور على عيوب. ولكنها لم تجد قط قدرًا من العيوب مثل الذي وجدته في ذلك اليوم. فـ«تيتا» قد أهملت حقًّا تفاصيل تلك الطقوس كافة. فكان الماء ساخنًا جدًّا إلى حدٍّ احترقت معه قدمَا ماما «إيلينا» عند دخولها فيه، وقد نسيت مسحوق «شيشي» لغسل الشعر، وأحرقت القميص التحتاني، وفتحت الباب أكثر مما يجب، وباختصار، استحقت الآن فعلًا تأنيب «إيلينا» لها وطردها من حجرة الاستحمام.

كانت «تيتا» تمشي متعجلة نحو المطبخ، تحمل تحت إبطها الملابس المتسخة، وتتأسف للتأنيب ولأخطائها الجسيمة. وكان أكثر ما يؤلمها هو العمل الإضافي الذي يعنيه إحراقها الملابس. إنها المرة الثانية في حياتها التي يحدث لها فيها هذا النوع من النكبات. سيكون عليها الآن أن تبلل البقع الضاربة إلى الحمرة بمحلول كلورات البوتاسيوم في ماء نقي ومحلول صودا مخفف، ودعك القماش عدة مرات إلى أن تختفي البقعة، عليها الآن أن تضيف هذا العمل الشاق إلى غسل الملابس السوداء التي ترتديها أمها. ولعمل ذلك يجب أن تذيب مرارة بقرة في مقدار ضئيل من الماء المغلي، وأن تُغمس قطعة إسفنج ناعمة في ذلك الماء وتبلل بها الملابس كلها، ثم تغسل الملابس بعد ذلك مباشرة بماء نظيف وتنشرها في الهواء الطلق.

تدعك «تيتا» الملابس وتدعكها مثلما كانت تفعل من قبل

بحفاضات «روبرتو» لتزيل البقع عنها. كانت تحقق ذلك بغلي كمية من البول وغمس البقعة فيها لحظات ثم غسلها بعد ذلك بالماء، وهكذا تتلاشى البقع بكل بساطة. ولكنها مهما غمست الآن الحفاضات في البول لا تتمكن من إزالة ذلك اللون الأسود الفظيع. وانتهت فجأة إلى أن الأمر لا يتعلق الآن بحفاضات «روبرتو» وإنما بملابس أمها. لقد ظلت تغمرها في المبولة التي نسيتها من دون غسلها منذ الصباح بجانب حوض الغسيل. فراحت تصحح الخطأ بغم.

وحين استقرت في المطبخ، قررت «تيتا» إيلاء مزيد من الاهتمام لما تقوم به. عليها أن تضع حدًّا للذكريات التي تعذبها، وإلا فإنه يمكن لغضب ماما «إيلينا» أن ينفجر بين لحظة وأخرى.

منذ أن بدأت بإعداد الحمام لماما «إيلينا»، تركت «تيتا» السجق يستريح، وهكذا كان قد مر ما يكفي من الوقت للبدء في حشو الأمعاء.

يجب أن تكون الأمعاء البقرية نظيفة ومعالجة. ويستخدم قُمع في عملية حشوها. تُربط جيدًّا على بُعد كل أربعة أصابع، وتوخز بإبرة كي يخرج الهواء، لأن الهواء هو ما يمكن أن يفسد السجق. ومن المهم جدًّا ضغطه جيدًا في أثناء الحشو حتى لا يبقى فيه أي فراغ.

على الرغم مما بذلته «تيتا» من جهد لتجنب توارد الذكريات إلى ذهنها وارتكابها مزيدًا من الأخطاء، إلا أنها لم تستطع تجنب ذلك وهي تمسك بين يدها قطعة كبيرة من السجق وتتذكر ليلة الصيف التي خرج فيها الجميع للنوم في الفناء. ففي أيام

اشتداد الحر يعلقون في الفناء أراجيح نوم كبيرة، لأن الحر في الداخل لا يطاق. وتوضع على منضدة خابيةٌ مملوءة بالثلج وفيها بطيخة مقطعة، تحسبًا لاستيقاظ أحدهم في منتصف الليل من شدة الحر ورغبته في نيل شيء من البرودة بتناول شريحة بطيخ. كانت ماما «إيلينا» خبيرة بتقطيع البطيخ: تمسك سكينًا حادة وتدخل رأسها المدبب إلى حيث ينتهي الجزء الأخضر من القشرة، تاركة قلب البطيخة سليمًا دون مَسه.

وكانت تُحدث عدة حزوز في القشرة بدقة رياضية، بطريقة تتيح لها، عندما تنتهي، أن تحمل البطيخة بين يديها وتضربها ضربة واحدة على حجر، ولكن الضربة تكون في مكان محدد بالضبط، فتنفتح قشرة البطيخة بصورة سحرية كتفتح بتلات زهرة، ويبقى قلبها سليمًا فوق المنضدة. مما لا شك فيه أن ماما «إيلينا» كانت معلمة خبيرة في كل ما يتعلق بتقطيع أو تجريد أو بتر أو اجتثاث أو فطام أو عقر أو تهشيم أو تجاوز أي شيء. ومنذ ماتت ماما «إيلينا» لم يستطع أحد قط أن يعود إلى إنجاز تلك المأثرة (مع البطيخ).

سمعت «تيتا» من أرجوحة نومها كيف أن أحدهم قد نهض ليتناول قطعة بطيخ. أما هي فأيقظتها الرغبة في الذهاب إلى الحمام. فقد أمضت النهار كله في تناول البيرة، ليس للتخفيف من حدَّة الحر وإنما لتدرَّ مزيدًا من الحليب من أجل إرضاع ابن أختها.

كان الطفل ينام بهدوء إلى جانب أختها. نهضت متلمسة الطريق، لم تكن قادرة على تمييز أي شيء، وكانت ليلة ظلمةٍ

دامسة. تقدمت باتجاه الحمَّام محاولة أن تتذكر أمكنة وجود أراجيح نوم الآخرين، لأنها لا تريد التعثر بأحد.

كان «بيدرو» يجلس في أرجوحة نومه، يأكل قطعة البطيخ ويفكر في «تيتا». فقربها منه يسبب له هياجًا عظيمًا. لم يكن قادرًا على النوم وهو يتخيلها تنام هناك، على بُعد خطوات منه... ومن ماما «إيلينا» طبعًا. توقف تنفسه لحظات لدى سماعه وقع خطوات في الظلام. لا بد أن تكون «تيتا»، فالشذا المميز الذي انتشر في الهواء، ما بين ياسمين وروائح المطبخ، لا يمكن له أن يكون إلا منها وحدها. ظن لحظة أن «تيتا» قد نهضت بحثًا عنه. اختلط وقع خطواتها وهي تقترب منه بدقات قلبه الذي بدأ يخفق بعنف. لكن لا، لقد راحت الخطوات تبتعد باتجاه الحمَّام. نهض «بيدرو» مثل هرٍّ ولحق بها من دون إحداث أي ضجة.

فوجئت «تيتا» حين أحست بأن أحدًا يجذبها ويكمم فمها، ولكنها سرعان ما انتبهت لمن هي تلك اليد.

أمسكت يد «بيدرو» بيدها وراحت تستكشف، ثم جذبت يدها مرعوبة، ليس بسبب الاكتشاف بل بسبب صيحة ماما «إيلينا».

ـ «تيتا»، أين أنت؟

ـ هنا يا مامي، في الحمام.

ولخشيتها من ارتياب أمها بشيء، عادت «تيتا» مسرعة وأمضت ليلة من العذاب وهي تكبح الرغبة في التبول مصحوبة بإحساس آخر مشابه. لكن تضحيتها لم تُفد في شيء. فماما «إيلينا» التي بدا لبعض الوقت أنها قد غيرت رأيها بشأن ذهاب

«بيدرو» و«روساورا» للعيش في «سان أنطونيو» بتكساس، سرَّعت في اليوم التالي عملية رحيلهما وتمكنت خلال ثلاثة أيام من تدبر أمر مغادرتهما المزرعة.

أطاح دخول ماما «إيلينا» إلى المطبخ بسيل ذكرياتها. أفلتت «تيتا» السجق من يدها. لقد كانت تخامرها الشكوك من أن أمها قادرة على قراءة أفكارها. ووراء ماما «إيلينا» دخلت «تشينتشا» وهي تبكي بكاء مفجعًا.

ـ لا تبكي يا ابنتي! تصدمني رؤيتك تبكين. ما الذي جرى؟

ـ جاء «فيليبه» وهو يقول إنه قد مات.

ـ ماذا تقولين؟ من الذي مات؟

ـ الطفل!

ـ أي طفل؟

ـ ومن سيكون؟ إنه حفيدك. كل ما كان يأكله يؤدي إلى تردي حالته. وهكذا مات.

أحست «تيتا» أن رأسها حجرة مهملات وهي تهوي على الأرض. وبعد الصدمة، دوى صوت تهشم أطباق إلى فتات. نهضت كالمدفوعة بنابض.

ـ اجلسي للعمل! لا أريد دموعًا. يا للصغير المسكين، آمل أن يضمه الرب إلى مجده، ولكن علينا ألا نسمح للحزن بالتغلب علينا، لدينا كثير من العمل. أنجِزي عملك أولًا ثم افعلي بعد ذلك ما تشائين، إلا البكاء، أسمعتِني؟

شعرت «تيتا» باضطراب شديد يهيمن على كيانها: واجهت بثبات نظرة أمها التي كانت تداعب السجق بأصابعها، وبعد

ذلك، بدلًا من أن تنصاع لها، تناولت كل ما أمامها من السجق وراحت تقطعه وهي تصيح بجنون:

ـ انظري ما أفعله بأوامرك! لقد تعبت! تعبتُ من الانصياع لك!

اقتربت ماما «إيلينا» منها وتناولت مغرفة خشبية ولطمتها بها على وجهها.

ـ أنت المسؤولة عن موت «روبرتو»!

صرخت بها «تيتا» خارجة عن طورها وخرجت راكضة وهي تمسح الدم الذي سال من أنفها؛ تناولت فرخ الحمام والوعاء الذي فيه الديدان وصعدت إلى برج الحمام.

أمرت ماما «إيلينا» بأن يرفعوا السلم من هناك ويتركوها تقضي الليلة كلها في الأعلى. وأنهت ماما «إيلينا» و«تشينتشا» حشو السجق بصمت. وعلى الرغم من الدقة التي تعمل بها ماما «إيلينا» والانتباه الذي تبديه دومًا كيلا يبقى هواء في السجق، فقد بدا أمر لم يجد الجميع تفسيرًا له بالفعل حين تبين بعد أسبوع من ذلك أن الديدان قد غزت السجق في القبو الذي وضعوه فيه ليجف.

وفي صباح اليوم التالي أمرت ماما «إيلينا» «تشينتشا» بأن تُنزل «تيتا». لم يكن بإمكان ماما «إيلينا» نفسها عمل ذلك لأن الشيء الوحيد الذي تخشاه في الحياة هو رهاب المرتفعات. لم تكن تتحمل ولو مجرد التفكير في الصعود على سلم طوله سبعة أمتار، وفتحها الباب الصغير إلى الخارج كي تتمكن من الدخول. فكان يناسبها بالتالي أن تتظاهر بكبرياء أكبر مما لديها،

وأن ترسل شخصًا آخر لإنزال «تيتا»، على الرغم من أنها لم تكن تفتقد الرغبة في الصعود بنفسها وإنزالها جرًّا من شعرها.

وجدتها «تشينتشا» تحمل فرخ الحمام بين يديها. وبدا أن «تيتا» لم تنتبه إلى أنه قد مات. كانت تحاول إطعامه مزيدًا من الديدان. ربما يكون المسكين قد مات بسوء هضم لأن «تيتا» أطعمته أكثر مما يجب. كانت نظرة «تيتا» تائهة وقد نظرت إلى «تشينتشا» وكأنها تراها لأول مرة في حياتها.

نزلت «تشينتشا» قائلة إن «تيتا» تبدو كمجنونة، وإنها لا تريد مغادرة برج الحمام.

ـ حسن جدًّا، إذا كانت كمجنونة فسوف ينتهي بها الأمر في مستشفى المجانين. فلا مكان في هذا البيت لمعتوهين!

وبالفعل، أرسلت «فيليبه» في الحال ليستدعي الدكتور «براون» كي يأخذ «تيتا» إلى مستشفى للمجانين. جاء الدكتور، وسمع رواية ماما «إيلينا» للقصة، واستعد للصعود إلى برج الحمام.

وجد «تيتا» عارية، بأنف مكسور، وجسدها كله مغطى بفضلات الحمام. وكان بعض الريش ملتصقًا ببشرتها وشعرها. وما إن رأت الدكتور حتى هرعت إلى ركن وانزوت فيه متخذة وضعًا جنينيًّا.

لم يعرف أحد ما قاله لها الدكتور «براون» خلال الساعات التي أمضاها معها، ولكنه نزل عند الغروب ومعه «تيتا» مرتدية ملابسها، وأركبها في عربته وأخذها معه.

ركضت «تشينتشا» باكية إلى جانب العربة، وتمكنت بصعوبة

من أن تضع على كتفي «تيتا» اللحاف الهائل الذي حاكته في ليالي أرقها غير المتناهية. كان كبيرًا وثقيلًا إلى حدٍّ لم تتسع له العربة. تشبثت «تيتا» به بقوة لم يكن ثمة مناص معها من أن يتجرجر وراء العربة مثل ذيل فستان زفاف ضخم ومتعدد الألوان غطى طوله كيلومترًا كاملًا. ولأن «تيتا» استخدمت في لحافها كل ما كان يقع بين يديها من صوف، من دون أن يهمها اللون، فقد كان اللحاف خليطًا من الألوان والنسج والأشكال التي تظهر وتختفي كما في فنون السحر، وسط سحابة غبار هائلة يثيرها في طريقه.

يتبع...

الوصفة التالية: عجينة لصنع الكبريت

٦

يونيو

عجينة لصنع الكبريت

المُكونات:

١ أوقية مسحوق ملح البارود
١\٢ أوقية الأسرنج الأحمر (ثاني أكسيد الرصاص)
١\٢ أوقية مسحوق الصمغ العربي
١ درهم فسفور
زعفران
كرتون

طريقة التحضير

يذاب الصمغ العربي في ماء ساخن إلى أن يصير عجينة غير كثيفة جدًّا، وحين يصبح جاهزًا يضاف إليه الفسفور ويذاب فيه، ومثله ملح البارود. يضاف إليه بعد ذلك الأسرنج الأحمر بما يكفي لمنح العجينة لونًا.

راحت «تيتا» تراقب الدكتور «براون» وهو يقوم بهذه الأعمال بصمت.

كانت تجلس قرب نافذة مختبر صغير يملكه الدكتور في الجانب الخلفي من فناء بيته. الضوء المتسرب من النافذة يسقط على ظهرها ويمنحها إحساسًا ضئيلًا بالدفء، ولكنه دفء خفيف وغير محسوس تقريبًا. فشعورها المزمن بالبرد لا يسمح لها بالدفء، على الرغم من أنها متدثرة بلحاف الصوف الثقيل. وكانت تواصل الحياكة في أحد طرفيه بصوف جاءها به «جون».

كان ذلك المكان هو المفضل لكليهما بين أرجاء البيت كافة. وقد اكتشفته «تيتا» بعد أسبوع من مجيئها إلى بيت الدكتور

«جون براون». ذلك أن «جون»، وخلافًا لما طلبته منه ماما «إيلينا»، قد أخذها لتعيش معه بدلًا من أن يودِعها مستشفى للمجانين. لن تتوقف «تيتا» عن شكره على ذلك، لأنها ربما كانت ستنتهي في مستشفى المجانين إلى أن تتحول إلى مجنونة فعلًا. أما هنا بالمقابل، مع كلمات «جون» الدافئة واهتمامه بها، صارت تشعر بأنها أحسن حالًا في كل يوم. إنها تتذكر مجيئها إلى هذا البيت كما في حلم. وتحتفظ في ذاكرتها، بين صور غائمة، بالألم الشديد الذي أحست به عندما أعاد لها الدكتور أنفها إلى وضعه الطبيعي.

وتتذكر بعد ذلك يدي «جون»، الرصينتين والحانيتين، تخلعان عنها ملابسها وتحميانها؛ بعد أن أزالتا بحرص عن جسدها كله فضلات الحمَام وخلَّفتاها نظيفة ومعطرة. وفي النهاية، سرَّحتا شعرها برفق ووسدتاها في سرير ذي ملاءات منشاة.

لقد أنقذتها تينك اليدان من الرعب، وهي لن تنسى ذلك أبدًا.

يومًا ما، عندما تستعيد الرغبة في الكلام، سيروق لها أن تخبر «جون» بذلك؛ ولكنها تفضل الصمت الآن. هنالك أمور كثيرة لا بد لها أن ترتبها في ذهنها، ولا تجد الكلمات للتعبير عما يُطبخ في أعماقها منذ تركت المزرعة. كانت تشعر بأنها مشوشة جدًّا. حتى إنها لم تشأ، في الأيام الأولى، مجرد الخروج من الحجرة، وإلى هناك كانت تحمل إليها «كاتي» الطعام. وهذه سيدة أمريكية في السبعين من العمر، إضافة إلى

تحملها مسؤولية شؤون المطبخ، تتولى رعاية «أليكس»، ابن الدكتور الصغير الذي ماتت أمه عند ولادته. كانت «تيتا» تسمع «أليكس» يضحك ويتراكض في الفناء، ولا تجد في نفسها الحماسة للتعرف عليه.

في بعض الأحيان لم تكن «تيتا» تتذوق الطعام، فقد كان طعامًا بلا طعم يثير فيها الاستياء. وبدلًا من تناول الطعام تفضل قضاء ساعات في تأمل يديها. كانت تدرسهما كطفل وتتعرف عليهما على أنهما يداها. يمكن لها تحريكهما على هواها، ولكنها لا تعرف بعد ماذا تفعل بهما، فضلًا عن الحياكة. لم يكن لديها قط متسع من الوقت للتوقف والتفكير في هذه الأمور. فما كان على يديها عمله، وهي إلى جانب أمها، كان محددًا ببرود، لا شك في ذلك. كان عليها أن تستيقظ، وأن ترتدي ملابسها، وتشعل النار في المدفأة، وتعد الفطور، وتطعم البهائم، وتغسل الأواني، وترتب الأسرَّة، وتحضِّر الغداء، وتغسل أواني الطعام، وتكوي الملابس وتُعد العشاء، وتجلي الأواني، وأن تفعل ذلك يومًا بعد يوم، وعامًا بعد عام، من دون التوقف لحظة واحدة، ومن دون التفكير فيما إذا كان ذلك هو ما يتوافق مع ميولها. وبرؤية يديها متحررتين الآن من أوامر أمها لم تعد تعرف ماذا تطلب منهما أن تفعلاه، فهي لم تقرر بنفسها ذلك من قبل. يمكن لهما عمل أي شيء أو التحول إلى أي شيء. لو تستطيعان التحول إلى طائرين وترتفعان محلقتين! تتمنى لو أنهما تحملانها بعيدًا، أبعد ما يمكن. اقتربت من النافذة المطلة على الفناء، رفعت يديها نحو السماء، تريد الهرب من نفسها، لا تريد

التفكير في اتخاذ قرار، لا تريد العودة إلى التكلم. لا تريد لكلماتها أن تصرخ بألمها.

تمنت من أعماق روحها أن تُحلِّق يداها. ظلت لحظات لا بأس بها على تلك الحال، ترى خلفية السماء الزرقاء من خلال يديها الساكنتين. ظنت «تيتا» أن المعجزة آخذة بالتحول إلى واقع حين لاحظت أن أصابعها بدأت تتحول إلى بخار خفيف يرتفع في السماء. تهيأت للصعود تجذبها قوة عليا، ولكن شيئًا من ذلك لم يحدث. واكتشفت، بخيبة أمل، أن ذلك الدخان لم يكن يخرج منها.

إنه آت من حجرة صغيرة في أقصى الفناء. هنالك كوة تنشر في الجو رائحة لطيفة ومألوفة جدًّا في الوقت نفسه جعلتها تفتح النافذة كي تتمكن من استنشاقها بعمق. وبعينيها المغمضتين رأت نفسها جالسة بجوار «ناتشا» على أرضية المطبخ بينما هما تصنعان عجة الذرة: رأت القِدر التي يُطهى فيها طعام شذي الرائحة، وإلى جانبها تطلق الفاصوليا أبخرة بداية غليانها... وبلا تردد قررت الذهاب للتقصي عمن يطبخ هناك. لا يمكن أن تكون «كاتي» هي الطاهية. فالشخص الذي يطلق طعامه مثل تلك الرائحة هو شخص يجيد الطبخ. ومن دون أن تراه، كانت «تيتا» تشعر بأنها تتعرف على نفسها في ذلك الشخص؛ أيًّا يكن.

اجتازت الفناء بتصميم، فتحت الباب ووجدت نفسها أمام امرأة لطيفة في حوالي الثمانين من عمرها. إنها تشبه «ناتشا» كثيرًا. ضفيرة طويلة متقاطعة تغطي رأسها، وكانت تمسح العرق

عن جبهتها بمئزرها. لوجهها ملامح واضحة من السكان الأصليين. كانت تغلي شايًا في إناء من الفخار.

رفعت بصرها وابتسمت لها بلطف داعية إياها للجلوس بجوارها. وقد فعلت «تيتا» ذلك. وعلى الفور قدَّمت إليها فنجانًا من ذلك الشاي اللذيذ.

تناولته «تيتا» ببطء، مستمتعة إلى أقصى الحدود بمذاق تلك الأعشاب المجهولة والمعروفة في آن واحد. يا للإحساس اللطيف الذي تُحدِثه حرارة ذلك الشراب ومذاقه.

ظلت وقتًا لا بأس به إلى جانب تلك السيدة. لم تتكلم هي أيضًا، ولكن ذلك لم يكن ضروريًّا. فمنذ البداية نشأ اتصال بينهما يتجاوز الكلام.

ومنذ ذلك الحين صارت تزورها يوميًّا. ولكن شيئًا فشيئًا، بدأ الدكتور «براون» هو الذي يظهر بدلًا منها. حين حدث ذلك أول مرة تسبب لها بالاستغراب، لأنها لم تكن تتوقع أن تجده هناك، ولم تتوقع كذلك التغييرات التي أدخلها على ديكور المكان.

هنالك الآن كثير من الأجهزة العلمية: أنابيب اختبار، مصابيح، موازين حرارة، وغيرها. لقد فقدت المدفأة الصغيرة مكانها المعهود واحتلت موقعًا صغيرًا في أحد أركان الحجرة. كانت تشعر بأن ذلك الإهمال غير عادل، لكن عدم رغبتها في أن يصدر عن شفتيها أي صوت، جعلتها تحتفظ برأيها في هذا الشأن إلى ما بعد، وكذلك السؤال عن مستقر تلك المرأة وهويتها. أضف إلى ذلك أنه كان عليها الاعتراف أيضًا بأنها تستمتع كثيرًا

برفقة «جون». والفارق الوحيد أنه كان يتكلم، وبدلًا من الطهي كان يضع نظرياته موضع التجريب بصورة علمية.

لقد ورث هواية التجريب تلك عن جدته الهندية، من قبيلة «كيكابو»، التي اختطفها جده وحملها للعيش معه بعيدًا عن قبيلتها. وعلى الرغم من أنه تزوج منها وكل ما إلى ذلك، إلا أن أسرة الجد المتعجرفة والأمريكية الصافية شيدت تلك الحجرة في أقصى البيت، حيث يمكن للجدة أن تقضي شطرًا كبيرًا من اليوم منهمكة في النشاط الذي يهمها أكثر من سواه: اختبار الخصائص العلاجية للنباتات.

وكانت تلك الحجرة تنفعها كملاذ من اعتداءات الأسرة. وأول تلك الإساءات التي تلقتها إطلاقهم عليها لقب «الكيكابو»، بدلًا من مناداتها باسمها الحقيقي، معتقدين أنهم بذلك سيتسببون لها في إزعاج شديد. فآل «براون» يرون أن كلمة «الكيكابو» تتضمن أشد ما هو بغيض في هذا العالم. ولكن الكلمة تعني بلغة «نور الفجر» كل ما هو عكس ذلك وهي مدعاة للفخر العظيم.

هذا مثال صغير على الاختلاف الكبير القائم في الآراء والمفاهيم بين أولئك الممثلين لثقافتين مختلفتين، وهو ما يجعل من المستحيل أن تظهر لدى آل «براون» أدنى رغبة في الاقتراب من عادات وتقاليد «نور الفجر». كان لا بد من انقضاء سنوات قبل أن يتوغلوا قليلًا في ثقافة تلك المدعوة «الكيكابو». وحدث ذلك حين أصاب «بيتر»، جد «جون»، مرضٌ شديد في الشعب الهوائية. فكان اشتداد السعال يحيل لونه إلى البنفسجي في كل مرة. لم يكن الهواء يدخل بحرية إلى رئتيه. وكانت زوجته

«ماري» على إلمام ببعض المعارف الطبية، إذ إنها ابنة طبيب، وتعرف أن جسم المريض ينتج في هذه الحالات كمية أكبر من كريات الدم الحمراء؛ ولمواجهة هذا القصور يُنصح بفصد الدم للحيلولة دون أن يؤدي الإفراط في تلك الكريات إلى الإصابة بذبحة أو جلطة قلبية، ويمكن لأي منهما أن تسبب وفاة المريض.

بدأت عندئذ «ماري»، جدة «جون»، بتهيئة العلق الذي ستُجري به عملية فصد الدم لزوجها. وبينما هي تفعل ذلك كانت تشعر بفخر كبير لأنها مطلعة على أفضل المعارف العلمية التي تتيح لها رعاية صحة أسرتها بطريقة حديثة ومناسبة، وليس بالأعشاب مثل «الكيكابو»!

يوضع العلق في كوب مع مقدار نصف إصبع من الماء لمدة ساعة. ثم تغسل منطقة الجسم التي سيتم فصد الدم منها بماء فاتر محلى بالسكر. وفي أثناء ذلك يوضع العلق على قطعة قماش نظيفة ويُغطى بها. ثم يوضع العلق بعد ذلك على المنطقة التي سيتشبث بها مع تثبيتها جيدًا بقطعة القماش ومحاولة الضغط عليها كيلا تتحرك للدغ في مكان آخر. وإذا كان من المناسب، بعد نزعها، فصد مزيد من الدم، فإنه يفضل اللجوء إلى تدليك المكان بماء ساخن. ومن أجل وقف الدم وجعل الخدوش تلتئم، تُغطى بصوفان شجر الحور أو بخرقة قماش ثم توضع لبخة من لباب الخبز والحليب، ولا ترفع إلا بعد أن تكون الخدوش قد التأمت تمامًا.

فعلت «ماري» كل ذلك جرفيًّا، ولكن ما جرى هو أنهم عند

رفع العلق عن ذراع «بيتر» بدأ ينزف، ولم يتمكنوا من وقف النزف. عندما سمعت «الكيكابو» صرخات اليأس الآتية من البيت هرعت لرؤية ما يحدث. اقتربت على الفور من المريض. وحين وضعت يدها على الجروح، وتمكنت من وقف النزف في الحال، أصاب الذهول الجميع. عندئذ طلبت منهم راجية أن يتركوها وحدها مع المريض. لم يجرؤ أحد على القول لها «لا» بعد ما شهدوه للتو. أمضت المساء كله بجوار حميها تغني له ترنيمات غريبة وتضع له لبخات أعشاب وسط دخان البخور و«الكوبال» الذي راحت تحرقه. لم تفتح باب حجرة النوم حتى وقت متقدم من الليل، وخرجت من هناك محاطة بسحب من البخور. ومن ورائها ظهر «بيتر» وقد استعاد عافيته تمامًا.

تحولت «الكيكابو» منذ ذلك اليوم إلى طبيبة الأسرة، واعتُرف بها بالإجماع كمعالجة إعجازية في ذلك المجتمع الأمريكي. أراد الجد أن يبني لها مكانًا أكبر كي تمارس فيه أبحاثها، ولكنها رفضت. لا يمكن أن يوجد في البيت كله مكان أسمى من مخبرها الصغير. وفيه أمضى «جون» معظم طفولته ومراهقته. وعندما دخل الجامعة توقف عن التردد عليه، لأن النظريات الطبية الحديثة التي كانوا يُدرِّسونه إياها هناك تتعارض كثيرًا مع نظريات جدته وما يتعلمه منها. ومع ما أحرزه الطب من تقدم، راح يعيد «جون» إلى المعارف التي قدمتها إليه جدته في بداياته، والآن، بعد سنوات كثيرة من العمل والدراسة، صار يعود إلى المخبر مقتنعًا بأنه هناك فقط سيجد آخر ما توصل إليه الطب. وهو ما يمكن له أن يتحول إلى جزء من المعارف العامة

إذا ما تمكن من أن يثبت علميًّا أساليب العلاج العجيبة كافة التي حققتها جدته «نور الفجر».

كانت «تيتا» تستمتع كثيرًا وهي تراه يعمل. فمعه لديها على الدوام أشياء تتعلمها وتكتشفها، مثلما هي الحال الآن، حيث يقدم لها، بينما هو يصنع أعواد الثقاب، محاضرة كاملة عن الفسفور وخصائصه.

ـ في عام ١٦٦٩ بينما كان «براندت»، وهو كيميائي من «هامبورج»، يبحث عن حجر الفلاسفة، توصل إلى اكتشاف الفسفور. كان يظن أنه بدمجه خلاصة البول مع أي معدن سيتوصل إلى تحويل ذلك المعدن إلى ذهب. لكن ما حصل عليه كان جسمًا مضيئًا بذاته، يسطع بحيوية مجهولة حتى ذلك الحين. ولزمن طويل كان يتم الحصول على الفسفور بإحراق وتكليس شديد لبقايا تبخر البول في دورق ذي مُعوجَّة من الطين يغمر عنقه في الماء. أما اليوم فيستخرج الفسفور من عظام الحيوانات التي تحتوي على حمض الفسفور والكلس.

لم يكن الدكتور، خلال استرساله في الكلام، يهمل عملية تحضير أعواد الثقاب. وإنما كان يفصل النشاط الذهني، من دون أي مشكلة، عن النشاط العملي. بل إنه كان قادرًا على التفلسف حول مظاهر عميقة جدًّا من الحياة من دون أن ترتكب يداه أخطاء أو تتوقفا لحظات. وهكذا واصل صنع أعواد الثقاب بينما هو يتحدث إلى «تيتا».

ـ بعد الحصول على عجينة الكبريت تكون الخطوة التالية تجهيز كرتون عيدان الثقاب. يذاب رطل من ملح البارود في

رطل من الماء ويضاف إليه قليل من الزعفران لإكسابه اللون، وفي هذا المحلول يُغمس الكرتون. وبعد أن يجف يقطع إلى أشرطة صغيرة ويوضع على رأس هذه الأشرطة الكرتونية قليل من عجينة الكبريت. وتترك لتجف مدفونة في رمل.

وبينما كانت الأشرطة تجف، عرض الطبيب تجربة على «تيتا».

ـ على الرغم من أن الفسفور لا يحترق مع الأكسجين في درجة الحرارة العادية، إلا أنه قابل للاشتعال بسرعة كبيرة في درجة حرارة مرتفعة، انظري...

أدخل الدكتور قطعة صغيرة من الفسفور أسفل أنبوب ممتلئ بالزئبق ومغلق من أحد طرفيه. وجعل الفسفور ينصهر بتقريب الأنبوب من لهب شمعة. وبواسطة ناقوس تجارب مملوء بغاز الأكسجين، مرر الغاز إلى الناقوس شيئًا فشيئًا. وعندما وصل غاز الأكسجين إلى الجزء العلوي من الناقوس، حيث يوجد الفسفور المنصهر، حدث احتراق نشط وخاطف، أبهر بصرهما كما لو أنه برق.

ـ جميعنا نمتلك في داخلنا، كما ترين، العناصر اللازمة لإنتاج الكبريت. بل أكثر من ذلك، دعيني أخبرك بشيء لم أبُح به لأحد. كانت لدى جدتي نظرية مهمة جدًّا، تقول إننا إذا كنا جميعنا نولد وفي داخلنا فسفور بمقدار علبة من ثقاب، فإننا لا نستطيع أن نشعلها وحدنا، بل نحتاج، كما في التجربة، إلى أكسجين ومساعدة شمعة قدح. وكل ما هنالك في هذه الحالة هو أنه لا بد للأكسجين من أن يتزود، على سبيل المثال، بأنفاس

شخص محبوب، ويمكن لشمعة القدح أن تكون أي نوع من التغذية: موسيقى، أو مداعبة، أو كلمة، أو صوت يطلق صاعق التفجير، وهكذا يشعل أحدنا واحدًا من أعواد ثقابه. فنشعر لحظة بانبهار عاطفة زخمة، وينشأ في داخلنا دفء لطيف يأخذ بالتلاشي قليلًا قليلًا مع مرور الزمن، إلى أن يأتي انفجار جديد ليعيد إحياءه. وعلى كل إنسان أن يكتشف ما هي صواعق تفجُّره ليتمكن من العيش، لأن الوقود الناتج عن اشتعال أحد أعواد الثقاب هو الذي يغذي الروح بالطاقة. فهذا الوقود، بكلمات أخرى، هو غذاء الروح. وإذا لم يكتشف أحدنا في الوقت المناسب ما هي صواعق تفجُّره الخاصة، فإن علبة أعواد الثقاب تصاب بالرطوبة ولا نتمكن عندئذ من إشعال ولو عود ثقاب واحد.

وإذا حدث ذلك فإن الروح تهرب من جسدنا، وتهيم على وجهها في أعمق الظلمات محاولة بنفسها العثور، دون جدوى، على غذاء، وجاهلة أن الجسد الذي تركته أعزل، ممتلئًا بالبرد، هو وحده القادر على توفير الغذاء لها.

كم هي صائبة هذه الكلمات! وإذا كان هناك من يعرف ذلك فإنها هي.

وكان لا بد لها من أن تعرف، لسوء الحظ، بأن أعواد ثقابها كلها مغطاة بالطحالب والرطوبة. ولا يمكن لأحد أن يعيد إشعال عود واحد منها.

والأكثر مدعاة للأسف أنها كانت تعرف ما هي صواعق تفجيرها، ولكن في كل مرة تمكنت فيها من إشعال عود ثقاب كانوا يطفئونه بكل قسوة.

قال «جون» معلقًا، كما لو أنه قد قرأ أفكارها:

ـ لهذا يجب علينا البقاء بعيدين عن أشخاص أنفاسهم جليدية. فمجرد حضورهم، وفقًا للنتائج التي صرنا نعرفها، يمكن أن يطفئ أشد النيران زخمًا. وكلما ابتعدنا أكثر عن هؤلاء الأشخاص، تكون حمايتنا من أنفاسهم أكثر سهولة.

ثم أمسك بإحدى يدي «تيتا» بين يديه وأضاف:

ـ توجد طرق كثيرة لتجفيف علبة ثقاب رطبة، ويمكن لك أن تكوني واثقة من وجود علاج لذلك.

سمحت «تيتا» لبعض الدموع بأن تنساب على وجهها. فمسحها «جون» بعذوبة بمنديله.

ـ ولا بد كذلك طبعًا من الحذر الشديد في إشعال أعواد الثقاب واحدًا فواحدًا، لأن عاطفة قوية جدًّا قد تؤدي إلى اشتعالها كلها دفعة واحدة فتُنتج وميضًا قويًّا إلى حد يضيء معه ما هو أبعد مما يمكننا رؤيته بصورة عادية، وعندئذ يظهر أمام عيوننا نفق متألق يكشف لنا الطريق الذي نسيناه في لحظة مولدنا والذي يدعونا للعودة إلى اللقاء بأصلنا الإلهي الضائع. فالروح ترغب في الارتدادِ إلى المكان الذي جاءت منه وتَرْكِ الجسد خامدًا... إنني أحاول، منذ موت جدتي، أن أثبت هذه النظرية علميًّا. ربما أتمكن ذات يوم من تحقيق ذلك. ما رأيك أنت؟

صمت الدكتور «براون» ليمنح «تيتا» وقتًا للتعليق بشيء إن كانت راغبة في ذلك. ولكن صمتها كان كصمت الحجر.

ـ حسن، لا أريد إضجارَكِ بحديثي. هلمي بنا نسترح،

ولكن قبل أن نذهب أريد أن أريك لعبة كنا نمارسها أنا وجدتي بكثرة. كنا نقضي معظم النهار هنا، ومن خلال اللعب نقلت إليَّ كل معارفها. كانت امرأة صموتًا جدًّا، هكذا مثلك. تجلس قبالة تلك المدفأة، بضفيرتها الكبيرة الملتفة فوق رأسها، وكان من عادتها أن تحزر ما أفكر فيه. كنتُ أريد تعلُّم ذلك، وهكذا بعد كثير من الإلحاح أعطتني أول درس. كانت تكتب، من دون أن أراها، جملة على الحائط باستخدام مادة غير مرئية. وحين أنظرُ إلى الجدار في الليل، أتبينُ ما كانت قد كتبته. أترغبين في أن نقوم بالتجربة؟

وبهذه المعلومة عرفت «تيتا» أن المرأة التي كانت معها مرات عديدة إنما هي جدة «جون» المتوفاة. لم تكن بحاجة إلى أن تسأله. تناول الدكتور بمنديل قطعة من الفسفور وقدمها إلى «تيتا».

ـ لا أريد كسر قانون الصمت الذي فرضتِهِ. وسأطلبُ منكِ، كسرٌ بيننا نحن الاثنين، أن تكتبي على هذا الجدار، بعد خروجي، أسباب امتناعك عن الكلام، أتوافقين؟ وغدًا سوف أتنبأ بذلك أمامك.

لقد أخفى الدكتور على «تيتا» طبعًا أن إحدى خصائص الفسفور هي أنه سيجعل ما تكتبه على الجدار يلمع مشعًّا في الليل. من الجلي أنه لم يكن بحاجة إلى هذه الحيلة كي يعرف ما الذي كانت تفكر فيه، ولكنه كان واثقًا من أن الأمر سيكون بداية جيدة كي تُقيم «تيتا»، من جديد، تواصلًا واعيًا مع العالم، حتى لو كان ذلك كتابة. فقد كان يشعر بأنها صارت جاهزة لذلك.

وفور خروج الدكتور، تناولت «تيتا» الفسفور واقتربت من الحائط.

وفي الليل، حين دخل «جون براون» المخبر، ابتسم برضا وهو يرى على الحائط كتابة بحروف ثابتة وفسفورية تقول: «لأنني لا أريد». فبهذه الكلمات الثلاث خطت «تيتا» الخطوة الأولى نحو الحرية.

وفي أثناء ذلك، وبينما عيناها مصوبتان إلى السقف، لم تستطع «تيتا» التوقف عن التفكير في كلمات «جون»: هل من الممكن أن تخفق روحها من جديد؟ تمنت بكل كيانها أن يكون الأمر كذلك.

عليها أن تجد من هو قادر على أن يشعل فيها هذه الرغبة.

وماذا لو كان ذلك الشخص هو «جون»؟ إنها تتذكر الإحساس البهيج الذي سرى في جسدها عندما أمسك يدها في المخبر. لا. لا تعرف ذلك. الشيء الوحيد الذي كانتِ مقتنعة به هو أنها لا تريد العودة إلى المزرعة. إنها لا تريد العيش قريبًا من ماما «إيلينا» إلى الأبد.

يتبع...

الوصفة التالية: مرق عصعص عجل

٧

يوليو

مرق عصعص عجـل

المُكونات:

٢ عصعص عجل
١ بصلة
٢ فص ثوم
٤ حبة كاكا (خرما)
٤\١ كج لوبيا خضراء
٢ حبة بطاطس
٤ حبة فلفل أحمر

طريقة التحضير

يُوضع العصعص للسلق مقطعًا مع قطعة بصل وفص ثوم، وملح وفلفل حسب الرغبة. ومن المناسب أن توضع كمية من الماء أكثر قليلًا مما يُستخدم عادة في إعداد حساء اللحم بالخُضَر، مع الأخذ في الاعتبار أن ما سنُحضره هو مرق. والمرق الجيد الذي يستحق الاحترام يجب أن يكونَ وافر العصارة من دون أن يصل إلى الميوعة المائية.

يمكن للمرق شفاء أي داء جسدي أو ذهني. حسن، هذا ما كان عليه، على الأقل، إيمان «تشينتشا» وكذلك «تيتا» التي لم تكن تصدق الأمر بصورة كاملة لوقت طويل. أما الآن فلم يعد بإمكانها إلا تقبله على أنه أمر مؤكد.

فمنذ ثلاثة شهور، حين تذوقت ملعقة من المرق الذي أعدته «تشينتشا» وجاءتها به إلى منزل الدكتور «جون براون»، استعادت «تيتا» كامل قدرتها الذهنية.

كانت تقف مستندة إلى.الزجاج، تنظر من خلال النافذة إلى

«أليكس» ابن «جون» وهو يجري في الفناء خلف بعض الحمائم.

سمعت خطوات «جون» يصعد الدرج، كانت تنتظر بتلهف زيارته المعهودة. فكلمات «جون» هي صلتها الوحيدة بالعالم. لو أنها تستطيع الكلام لتقول له كم هو مهم حضوره وحديثه إليها. لو أنها تستطيع النزول وتقبيل «أليكس» كما لو أنه الابن الذي لم تلده، وتلعب معه حتى الإنهاك، لو أنها تستطيع أن تتذكر كيف تطهو ولو بيضتين، لو أنها تستطيع الاستمتاع بأي طبق مهما يكن، لو أنها تستطيع... العودة إلى الحياة. هزتها رائحة تمكنت من شمها، إنها رائحة غريبة عن هذا البيت. فتح «جون» الباب وظهر أمامها، وبين يديه صينية وطبق فيه مرق عصعص عجل!

مرق عصعص عجل! لا يمكنها أن تصدق ذلك. ووراء «جون» دخلت «تشينتشا» غارقة في الدموع. كان عناقهما قصيرًا، كيلا يبرد المرق. عندما تناولت أول رشفة، ظهرت «ناتشا» إلى جانبها وداعبت رأسها بينما هي تأكل، مثلما كانت تفعل لها كلما مرضت وهي طفلة، ثم قبلتها مرات متكررة في جبهتها. وإلى جانب «ناتشا»، تبدت دمى وألعاب طفولتها في المطبخ، والخروج إلى السوق، وعجة البيض المحضرة للتو، وبذور المشمش الملونة، وكعكات عيد الميلاد، وبيتها، ورائحة الحليب المغلي، وحلوى الخبز بالقشدة، و«التشامبورادو»[٥]،

---

(٥) شراب سميك يشبه «الأتوليه»، ويحضر من الذرة المطحونة والشوكولاتة السوداء والماء مع قليل من الفانيلا. يُغلى حتى يصل إلى درجة معقولة من الكثافة، ويجري تناوله عادة مع بعض المأكولات المكسيكية، مثل «التمال» وغيره. (المترجم).

والكمون، والثوم، والبصل. وكما حدث طيلة حياتها، ما إن شمت الرائحة التي تصدر عن البصل حتى طفرت دموعها. بكت مثلما لم تبكِ منذ يوم مولدها. وكم حسَّن من حالتها تبادل الحديث مطولًا مع «ناتشا»! كما في الأزمنة الغابرة، حين كانت «ناتشا» لا تزال حيَّة وحضرتا مرق العصعص معًا مرات لا حصر لها. ضحكتا وهما تستعيدان تلك اللحظات وبكتا وهما تتذكران الخطوات التي يجب اتباعها لإعداد هذه الوصفة. وأخيرًا استطاعت أن تتذكر وصفة طبق، فور تذكرها الخطوة الأولى: تقطيع البصل.

يقطع البصل والثوم قطعًا رفيعة تُقلى في قليل من الزيت. وعندما تلين يُضاف إليها البطاطس واللوبيا الخضراء والكاكا المقطعة وتُترك كلها حتى تنضج.

قطع «جون» عليها تلك الذكريات بدخوله مندفعًا إلى الحجرة وقد استثار ذعره رؤية جدول ماء يسيل على السلَّم.

وحين عرف أنها دموع «تيتا» بارك «تشينتشا» ومرق العصعص الذي أعدته لأنهما حققا ما لم يستطع أي من أدويته تحقيقه: جعل «تيتا» تبكي بتلك الطريقة. ومتضايقًا من طريقته في التدخل، استدار لمغادرة الحجرة. لكن صوت «تيتا» منعه من ذلك. إنه الصوت الرخيم الذي لم ينطق كلمة واحدة منذ ستة أشهر.

ـ «جون»! لا تذهب، أرجوك!

ظل «جون» إلى جانبها وكان شاهدًا على كيفية تحول «تيتا» من البكاء إلى الابتسام وهي تسمع من «تشينتشا» كل أنواع

النميمة والنكبات. وهكذا علم الدكتور أن ماما «إيلينا» قد حظرت زيارة «تيتا» للبيت. فضمن أسرة آل «لا جارثا» يمكن التسامح في بعض الأمور، ولكن ليس عدم الانصياع أو المجادلة في مواقف الأبوين بأي حال. وماما «إيلينا» لن تغفر أبدًا لـ«تيتا»، سواء أكانت مجنونة أم غير مجنونة، أنها حمَّلتها مسؤولية موت حفيدها. حتى إنها حظرت ذِكر اسمها، مثلما فعلت مع «خيرترورديس». وبالمناسبة، لقد رجع «نيكولاس» قبل فترة قصيرة وجاء بأخبار عنها.

لقد وجدها تعمل في ماخور فعلًا. وقد سلَّم إليها ملابسها، وأرسلت هي بدورها معه رسالة إلى «تيتا». وقدمت «تشينتشا» الرسالة إلى «تيتا» التي قرأتها بصمت:

عزيزتي «تيتا»:

لن تعرفي مقدار امتناني لإرسالك ملابسي. لحسن الحظ أنني ما زلت هنا واستطعت استلامها. غدًا سأغادر هذا المكان، لأنه ليس مكاني. لست أدري حتى الآن أين سيكون مكاني، لكني أعرف أنني سأجد في جهة ما مكانًا مناسبًا لي. وإذا كنت قد وقعت هنا فإنما لأني كنت أشعر بشوق شديد الزخم يحرقني من الداخل، والرجل الذي التقطني في الحقل قد أنقذ حياتي عمليًّا. عسى أن أعود للقاء به ذات يوم. لقد تركني لأن قواه راحت تُستنزف معي، من دون أن يتوصل إلى تهدئة شوقي الداخلي. وأخيرًا الآن، بعد أن مرَّ عليَّ ما لا حصر له من الرجال، صرت أشعر براحة كبيرة. ربما

أعود ذات يوم إلى البيت وأتمكن من أن أشرح كل شيء لك.

أختك التي تحبك «خيرترووديس»

حفظت «تيتا» الرسالة في جيب فستانها ولم تتفوه بأي تعليق. وعدم توجيه «تشينتشا» أي أسئلة حول مضمون الرسالة يشير بوضوح إلى أنها قد قرأتها مسبقًا بحذافيرها.

بعد ذلك تعاونت «تيتا» و«تشينتشا» ومعهما «جون» على مسح الدموع وتجفيفها في الحجرة وعن السلم والطابق الأرضي.

وعند الوداع، أخبرت «تيتا» «تشينتشا» بقرارها بعدم العودة أبدًا إلى المزرعة، وطلبت منها أن تخبر أمها بذلك. وبينما «تشينتشا» تجتاز مرة أخرى ـ ضمن ما لا حصر له من المرات ـ الجسر الواصل بين «إيجل باس» و«بييدراس نجراس»، وهي تمشي من دون اكتراث، كانت تفكر في أفضل طريقة لنقل الخبر إلى ماما «إيلينا». فحراس البلدين تركوها تمر، لأنهم يعرفونها منذ أن كانت طفلة. أضف إلى ذلك أن من أكثر الأمور تسلية رؤيتها تمشي من جهة إلى الجهة الأخرى وهي تكلم نفسها وتدعك طرف شالها. كانت تشعر أن براعتها في الاختلاق قد شُلَّت من الرعب.

من المؤكد أن أي رواية ستقدمها ستستثير غضب ماما «إيلينا». كان عليها أن تختلق قصة تستطيع بها أن تخرج غير مذنبة على الأقل. وللتوصل إلى ذلك لا بد لها من العثور على ذريعة تبرر زيارتها لـ«تيتا». ولكن ماما «إيلينا» لن تتقبل أية ذريعة. أتراها لا تعرفها! إنها تحسد «تيتا» على شجاعتها في

التصميم على عدم العودة إلى المزرعة. ليتها تستطيع فعل الشيء نفسه هي أيضًا، ولكنها لا تجرؤ. فمنذ طفولتها كانت تسمع كلامًا عن سوء عاقبة النساء اللاتي يعصين آباءهن أو أسيادهن ويهربن من البيت. فهن ينتهين إلى التمرغ في مجاري دنس حياة التهتك. كانت تقلِّب طرف شالها وتقلبه بعصبية، محاوِلة أن تستخلص أفضل ما لديها من أكاذيب لهذه اللحظات. لم تخذلها هذه الطريقة من قبل قط. فعند الوصول إلى مائة حركة لَيٍّ للشال تجد الكذبة المواتية للمناسبة. فالكذب عندها وسيلة للنجاة تعلمتها منذ وصولها إلى المزرعة. وقد وجدت أن القول إن الأب «إجناثيو» جعلها تجمع الصدقات أفضل لها بكثير من الاعتراف بأن الحليب قد اندلق منها لأنها راحت تثرثر في السوق. فالعقوبة التي تجعل نفسها تستحقها تكون مختلفة تمامًا.

يمكن لكل شيء في نهاية المطاف أن يكون حقيقة أو كذبًا، والأمر يعتمد على إيمان المرء بأن الأمور حقيقية أو ليست حقيقية. فكل ما تخيلته عن مصير «تيتا»، على سبيل المثال، لم يبدُ لها حقيقيًّا.

فقد أمضت تلك الشهور كلها مغمومة تفكر في الأهوال التي تعانيها «تيتا» وهي خارج مطبخ بيتها، محاطة بمجانين يصيحون ببذاءات، ومقيدة بقميص المجانين وتأكل من يدري أي نوع من الطعام المريع خارج البيت. كانت تتخيل الطعام في مستشفى أمريكي للمجانين، للإجهاز عليها تمامًا، باعتباره أسوأ طعام في الدنيا. ولكن الحقيقة أنها وجدت «تيتا» في حالة جيدة، لم تطأ قدمها قط مستشفى للمجانين، ويبدو واضحًا أنهم يعاملونها

أفضل معاملة في منزل الدكتور، ولا بد أن الطعام ليس سيئًا، فقد لاحظت أن وزن «تيتا» قد ازداد بضعة كيلوجرامات. ولكن الصحيح هو أنه مهما يكن ما تأكله فإنهم لا يمكن أن يكونوا قد قدموا إليها قط شيئًا مثل مرق العصعص. هذا أمر يمكنها أن تكون متأكدة منه، أجل، وإلا لماذا بكت إلى ذلك الحد وهي تأكله؟

مسكينة «تيتا»، من المؤكد أن تكون قد عادت الآن، بعد أن تركتها، إلى البكاء من جديد، معذبة بالذكريات وبفكرة أنها لن تعود أبدًا للطبخ جنبًا إلى جنب مع «تشينتشا». أجل، لا بد أنها تعاني كثيرًا. لم يخطر لها قط أن تتخيلها مثلما كانت في الواقع: باهرة الجمال، تتألق بفستان من ساتان زاهٍ مع تخريمات دانتيلا، تتناول العشاء على ضوء القمر وتتلقى اعترافًا بالحب. وقد كان هذا كله بالنسبة لذهن «تشينتشا» المعذب والميال إلى المبالغة أمرًا خارجًا عن المألوف. كانت «تيتا» تجلس إلى جانب موقد وهي تشوي حلوى الخِطْمِي. وإلى جانبها «جون براون» يعرض عليها الزواج. فقد وافقت «تيتا» على مرافقة «جون» إلى حفلة شواء في مزرعة مجاورة للاحتفال بشفائها. وقد أهدى إليها «جون» فستانًا بديعًا كان قد اشتراه منذ بعض الوقت من «سان أنطونيو» بتكساس من أجل هذه اللحظة. ألوان الفستان المتموجة ذكَّرتها بريش رقاب الحمام، ولكن من دون أي رابطة مؤلمة بذلك اليوم البعيد الذي وجدت نفسها فيه في برج الحمام. بدا واضحًا أنها قد شفيت تمامًا وصارت مستعدة لبدء حياة جديدة إلى جانب «جون». وقد صادقا على ارتباطهما بقبلة رقيقة من

الشفاه. لم تشعر «تيتا» بالإحساس نفسه الذي شعرت به عندما قبَّلها «بيدرو»، ولكنها كانت تأمل أن روحها التي تعفنت طويلًا ستتوصل إلى الاشتعال شيئًا فشيئًا بالقرب من هذا الرجل الرائع.

أخيرًا، وبعد مسير ثلاث ساعات، توصلت «تشينتشا» إلى الجواب! فكما هي عادتها دائمًا، وجدت الكذبة الملائمة. ستقول لماما «إيلينا» إنها بينما هي تمشي في «إيجل باس» وجدت عند إحدى النواصي متسولة بملابس قذرة وممزقة. فدفعتها الشفقة إلى الاقتراب منها لتعطيها عشرة سنتات، واكتشفت بذعر أنها «تيتا». فقد هربت من مستشفى المجانين وهامت على وجهها في الدنيا لتدفع بذلك ثمن إساءتها لأمها. فدعتها للعودة إلى البيت، ولكن «تيتا» رفضت. لأنها لا تشعر بأنها جديرة بالعيش من جديد إلى جانب أم بهذه الطيبة، وطلبت منها راجية أن تخبر أمها بأنها تحبها كثيرًا ولن تنسى أبدًا كل ما فعلته من أجلها، وتعد بأنها عندما تتحول إلى امرأة صالحة ستعود إليها لتمنح ماما «إيلينا» كل الحب والاحترام اللذين تستحقهما.

فكرت «تشينتشا» في أنها ستتشح بالمجد بفضل هذه الكذبة، ولكنها لم تستطع لسوء الحظ التوصل إلى ذلك. ففي تلك الليلة، عند وصولها إلى البيت، هاجمت جماعة من قُطاع الطرق المزرعة. فاغتصبوا «تشينتشا»، وحين حاولت ماما «إيلينا» الدفاع عن شرفها تلقت ضربة قوية على ظهرها أصابتها بشلل نصفي من الخصر إلى أسفل. ولم تكن في تلك الظروف في وضع يسمح لها بتلقي ذلك النوع من الأخبار، ولم تكن «تشينتشا» في حالة تسمح لها بإخبارها بها.

ومن جهة أخرى كان عدم قولها أي شيء خيرًا لها، لأن عودة «تيتا» إلى المزرعة عند علمها بالكارثة، كانت ستقوض كذبتها الرحيمة وتكشفها حيال ما تشع به «تيتا» من جمال باهر وحيوية. استقبلتها أمها بصمت. بينما صوبت إليها «تيتا» لأول مرة نظرة ثابتة، سحبت ماما «إيلينا» نظرتها. فقد كان في نظرة «تيتا» بريق غريب.

صارت ماما «إيلينا» تتجاهل ابنتها. تبادلتا التأنيب بلا كلام، وانقطع بينهما بذلك ما كان حتى ذلك الحين صلة دم قوية وطاعة تجمعهما، ولم تعد ممكنة عودة إقرار ذلك بينهما إلى الأبد. كانت «تيتا» تعلم جيدًا أن أمها تشعر بمهانة عميقة لأنها مضطرة إلى تقبلها في البيت من جديد، وليس ذلك وحسب، بل لأنها بحاجة إلى رعايتها من أجل استعادة عافيتها. لهذا حاولت من أعماق قلبها أن ترعاها بأفضل ما تستطيع. فكانت تُعد الطعام لأمها بكل حرص وخاصة مرق العصعص، وتفعل ذلك بنية صادقة في أن يفيدها ذلك في استعادة عافيتها تمامًا مثلما أفادها هي نفسها.

أفرغت المرق الجاهز مع البطاطس واللوبيا الخضراء في القِدر التي وضعت فيه العصعص لينضج.

وبعد إفراغه، لم يبق عليها سوى ترك كل تلك المكونات معًا لتغلي مدة نصف ساعة. ثم يُرفع مباشرة عن النار ويُقدم ساخنًا جدًّا.

سكبت «تيتا» المرق وصعدت به إلى أمها في صينية فضية

بديعة مغطاة بفوطة قطنية مستلَّة الخيوط بطريقة بديعة ومبيضة ومنشاة بإتقان.

انتظرت «تيتا» بجزع رد فعل أمها الإيجابي بعد أن تتناول أول رشفة، ولكن ماما «إيلينا»، على العكس من ذلك، بصقت الطعام فوق اللحاف وطلبت من «تيتا» صارخةً أن ترفع من أمامها فورًا تلك الصينية.

ـ ولكن... لماذا؟

ـ لأنه مُرٌّ بصورة مُقرفة، لا أريده. خذيه! ألم تسمعيني؟

وبدلًا من أن تنصاع «تيتا» لها استدارت محاولة أن تخفي عن عيني أمها شعور الإحباط الذي أحست به. لم تفهم موقف ماما «إيلينا»، ولم تكن قد فهمته من قبل قط. لم تكن قادرة على فهم أن إنسانًا، بغض النظر عن صلة قرابته بآخر، يُقْدِمُ، من دون أي مسوغ، وهو يضع يده على خصره، على رفض اهتمام يبديه آخر نحوه بمثل تلك الطريقة الفظة. فهي متأكدة من أن المرق لذيذ. وقد تذوقته بنفسها قبل أن تصعد به إليها. ولا يمكن أن يكون غير ذلك، لأنها بذلت كثيرًا من الاهتمام في إعداده.

شعرت أنها غبية حقًّا لأنها عادت إلى المزرعة لخدمة أمها. كان خيرًا لها أن تظل في منزل «جون» من دون أن تفكر أبدًا في المصير الذي ستؤول ماما «إيلينا» إليه. ولكن تأنيب الضمير ما كان ليتركها. الطريقة الوحيدة للتحرر منها فعلًا هي الموت، وموعد موت ماما «إيلينا» ما زال في علم الغيب.

كانت تشعر برغبة في الركض بعيدًا، بعيدًا جدًّا لتحمي ـ من حضور أمها الجليدي ـ النارَ الداخلية الصغيرة التي تمكن «جون»

بمشقة من إشعالها في أعماقها. بدا لها كما لو أن بصقة ماما «إيلينا» قد سقطت بالضبط في منتصف شعلة النار الأولية وأطفأتها. كانت تعاني في أعماقها من مفاعيل الانطفاء؛ فالدخان يتصاعد إلى حلقها ويلتف في عقدة كثيفة، تُغبش بصرها وتُسيل دموعها.

فتحت الباب بفظاظة وركضت في اللحظة نفسها التي وصل فيها «جون» في زيارته الطبية. تصادما بصورة غير متوقعة. أمسك بها «جون» بين ذراعيه في الوقت المناسب لتفادي سقوطها، فأنقذ عناقه الدافئ «تيتا» من حالة تجمد. ظلا ملتصقين لحظات قليلة فقط، ولكنها كانت كافية لإعادة تعزيز روحها. كانت «تيتا» قد بدأت ترتاب فيما إذا كان الحب الحقيقي هو شعور الأمان والطمأنينة الذي يمنحها إياه «جون»، وليس شعور الجزع والعذاب الذي كانت تعانيه إلى جانب «بيدرو». انفصلت عن «جون» بجهد حقيقي وغادرت غرفة النوم.

ـ تعالي هنا يا «تيتا»! لقد قلتُ لك أن تأخذي هذا من هنا!

ـ «دونيا إيلينا»، أرجوكِ ألا تغضبي، لأن هذا يضر بك. سأبعد أنا عنك هذه الصينية، ولكن أخبريني، أليست لديك رغبة في تناول الطعام؟

طلبت ماما «إيلينا» من الدكتور أن يقفل الباب بالمفتاح، وباحت له، بتكتم تقريبًا، بقلقها بشأن مرارة الطعام. فردَّ عليها «جون» بأن السبب قد يكون من تأثير الأدوية التي تتناولها.

ـ ولا بأي حال يا دكتور، لو أن الدواء هو السبب لشعرت طيلة الوقت بهذا الطعم في فمي، والأمر ليس هكذا. إنهم

يضعون لي شيئًا في الطعام. والغريب أن هذا يحدث منذ عودة «تيتا». أريد منك أن تتحقق من الأمر.

وحيال هذا التلميح الخبيث، اقترب «جون» مبتسمًا ليتذوق مرق العصعص الذي جاؤوها به والذي لم يمس في الصينية.

ـ فلنرَ، سنكتشف ما الذي يضعونه لك في الطعام. هممم! يا للمذاق اللذيذ! إن فيه لوبيا خضراء، وبطاطس، وفلفل و... لا أستطيع التمييز جيدًا... أي نوع من اللحم هو؟

ـ لستُ في وضع أرغب فيه بالمزاح، ألا تشعر بطعم مرٍّ؟

ـ لا يا «دونيا إيلينا»، ولا بأي حال. لكن إذا كنت ترغبين فسأرسله للتحليل. أنا لا أريدك أن تقلقي، ولكن لا بد لك أن تأكلي ريثما يعطونني نتائج التحليل.

ـ أرسل لي طاهية جيدة إذًا.

ـ لكن كيف ذلك؟! إن لديك في المنزل أفضل طاهية. ما أعرفه هو أن ابنتك «تيتا» طاهية استثنائية! وسوف أطلب منك يدها ذات يوم.

صرخت أسيرة اضطراب غاضب:

ـ حضرتك تعلم أنها لا تستطيع الزواج!

احتفظ «جون» بالصمت. فمن غير المناسب زيادة غضب ماما «إيلينا». ولا أهمية لرأيها لأنه على قناعه تامة من أنه سيتزوج «تيتا» سواء بإذنها أم من دون إذنها. وكان يعرف أيضًا أن «تيتا» لم تعد تبالي كثيرًا بمصيرها العبثي، وأنهما سوف يتزوجان فور بلوغها الثامنة عشرة من العمر. أنهى زيارته طالبًا من ماما «إيلينا» الهدوء، وواعدًا إياها بأنه سيرسل إليها طاهية

جديدة في اليوم التالي. وقد فعل ذلك، ولكن ماما «إيلينا» لم تتفضل حتى باستقبالها. فقد كان تعليق الدكتور حول فكرة طلب يد «تيتا» قد فتح عينيها.

من المؤكد أن علاقة غرامية قد انبثقت بينهما.

منذ وقت طويل والشكوك تخامرها بأن «تيتا» ترغب في اختفائها من هذا العالم كي تتمكن من الزواج على هواها، ليس مرة واحدة وإنما ألف مرة إذا رغبت في ذلك. كانت تلمس هذه الرغبة كأنها حضور دائم بينهما، في كل احتكاك، في كل كلمة، في كل نظرة. أما الآن فلا مجال لأدنى شك في أن «تيتا» تحاول أن تسمِّمها شيئًا فشيئًا كي تتمكن من الزواج بالدكتور «براون». ولهذا رفضت منذ ذلك اليوم بصورة حاسمة أن تأكل أي شيء تطهوه «تيتا». أمرت «تشينتشا» بأن تتولى إعداد طعامها. وهي وحدها من دون سواها من يمكنها حمل الطعام إليها، وعليها أن تتذوقه بحضورها قبل أن تقدم ماما «إيلينا» على أكله.

لم يؤثر الوضع الجديد على «تيتا» في شيء، بل أكثر من ذلك، فتكليف «تشينتشا» بواجب رعاية أمها الشاق كان راحة لها، وهو ما يمنحها الحرية للبدء في تطريز ملاءات جهاز عرسها. فقد قررت الزواج من «جون» فور تحسن حال أمها.

من وجدت نفسها متأثرة جدًّا بهذا القرار هي «تشينتشا»، إذ كانت لا تزال تستعيد عافيتها بدنيًّا وعاطفيًّا من الاعتداء الوحشي الذي كانت هدفًا له. وعلى الرغم من أنها بدت مستفيدة ظاهريًّا من أنها لن تقوم بأي مهمة أخرى سوى طبخ طعام ماما «إيلينا» وحمله إليها، إلا أن الأمر لم يكن كذلك. لقد تلقت الخبر في

أول الأمر بابتهاج، ولكن ما إن بدأت توجه إليها الصرخات والتأنيب حتى تبين لها أنه لا خبز بلا معاناة.

لقد ذهبت في أحد الأيام كي ينزع لها الدكتور «جون براون» خيوط الجرح الذي اضطر إلى خياطته بسبب تمزق لحق بها خلال الاغتصاب، فقامت «تيتا» بإعداد الطعام بدلًا منها.

ظنتا أن بإمكانهما خداع ماما «إيلينا» من دون مشكلة تُذكر. وعند عودة «تشينتشا» حملت الطعام إليها، وتذوقته أمامها مثلما اعتادت أن تفعل، ولكنها عندما قدمته إليها لتأكله، أحست ماما «إيلينا» على الفور بالمذاق المر. فرمت الصينية بنزق على الأرض وطردت «تشينتشا» من البيت لأنها حاولت خداعها.

استغلت «تشينتشا» هذه الذريعة كي تذهب لقضاء بضعة أيام في قريتها. كانت بحاجة إلى نسيان مسألة الاغتصاب ووجود ماما «إيلينا». حاولت «تيتا» أن تقنعها بعدم إيلاء أهمية لما قالته أمها، فهي تعرفها منذ سنوات عديدة وتعرف جيدًا كيف تتدبر الأمور معها.

ـ أجل يا صغيرتي، ولكن لماذا عليَّ أن أجلب على نفسي مزيدًا من المرارة ما دام لديَّ ما يكفيني منها! اتركيني أذهب، لا تكوني جاحدة.

عانقتها «تيتا» وواستها مثلما كانت تفعل كل ليلة منذ عودتها. لم تجد الوسيلة لإخراج «تشينتشا» من اكتئابها ومن الاعتقاد بأن أحدًا لن يتزوج منها بعد الاعتداء العنيف الذي تعرضت له على يد قُطاع الطرق.

ـ أنت تعرفين كيف هم الرجال. جميعهم يقولون إن طبق طعام مُر على مائدة أخرى غير مقبول ولو في الحياة الأخرى، فما بالك في هذه الحياة!

ولرؤيتها حالة يأسها، قررت «تيتا» أن تتركها تذهب. فمن خلال التجربة كانت تعلم أنها إذا ظلت في المزرعة وقرب أمها فلن يكون لها من خلاص. الابتعاد وحده يمكن له أن يشفيها. وفي اليوم التالي أرسلتها مع «نيكولاس» إلى قريتها.

وجدت «تيتا» نفسها عندئذ مضطرة إلى أن تتعاقد مع طاهية. ولكن هذه غادرت البيت بعد ثلاثة أيام من مجيئها. لم تستطع تحمل طلبات ماما «إيلينا» ولا أساليب تعاملها السيئة. فبحثوا عندئذ عن أخرى، استمرت يومين فقط، ثم أخرى وأخرى، إلى أن لم تبق واحدة في القرية توافق على العمل في البيت. ومَن استمرت أطول مدة في العمل هي فتاة صماء بكماء: تحملت خمسة عشر يومًا، ولكنها ذهبت لأن ماما «إيلينا» قالت لها بالإشارة إنها ساذجة.

لم يبق أمام ماما «إيلينا» عندئذ من خيار آخر سوى أن تأكل ما تطبخه «تيتا»، ولكنها صارت تفعل ذلك مع الاحتياطات اللازمة. ففضلًا عن مطالبة «تيتا» بتذوق الطعام قبلها، كانت تطلب منها أن تأتيها دائمًا بكوب حليب دافئ مع كل وجبة، وتتناوله قبل أن تناولها الأطعمة، من أجل مقاومة مفعول السم المر الذي تشعر به، حسب رأيها، مذابًا في الطعام. وقد كان هذا الإجراء وحده كافيًا في بعض الأحيان، ولكنها تشعر في أحيان أخرى بآلام حادة في البطن، فتتناول عندئذ، فضلًا عن

الحليب، جرعة من نبيذ «إيبيكاكوانا» وجرعة أخرى من خلاصة بصل العنصل كمقيئ. ولكن ذلك لم يدم طويلًا. فبعد شهر ماتت ماما «إيلينا» ضحية آلام رهيبة مصحوبة بتشنجات واختلاجات حادة. لم تجد «تيتا» وكذلك «جون» في البدء تفسيرًا لتلك الميتة الغريبة، لأن ماما «إيلينا»، باستثناء الشلل النصفي، لم تكن تعاني طبيًّا من أي علة. ولكن عند تفحص مكتبها وجدا زجاجة نبيذ «إيبيكاكوانا» واستنتجا أن ماما «إيلينا» كانت تتناوله من دون شك في الخفاء. فأخبر «جون» «تيتا» أن هذا المقيئ قوي جدًّا إلى حدٍّ يمكن له أن يتسبب في الموت.

لم يكن بإمكان «تيتا» رفع بصرها عن وجه أمها خلال السهر على الجثمان المسجى. فهي تراها الآن، بعد وفاتها، لأول مرة وتبدأ بتفهمها. فمن يراها يمكن له بسهولة أن يخلط في تلك النظرة بين الشعور بالامتنان والشعور بالألم، لكن «تيتا» لم تكن تشعر بأي ألم. فهي تدرك الآن معنى جملة «يانعة مثل خسة»، هكذا يجب أن يكون ما تشعر به الخسة من غرابة ونأي حيال انفصالها المفاجئ عن خسة أخرى كانت قد نمت معها. سيكون من غير المنطقي أن يُنتظر منها أن تتألم لانفصالها عن تلك التي لم تستطع قط التحدث إليها أو إقامة أي نوع من التواصل معها، والتي لم تعرف منها سوى أوراقها الخارجية، جاهلة أن في داخلها أوراقًا كثيرة أخرى خفية.

لم يكن بإمكانها تخيل أنه يمكن لذلك الفم بتكشيرته المريرة أن يُقبِّل بعاطفة، ولا تخيل أن يكون ذانك الخدان، الأصفران الآن، متوردين في حرارة ليلة حب. ولكنهما كانا كذلك ذات

يوم. وهو ما اكتشفته «تيتا» الآن، بعد فوات الأوان، وبمصادفة بحتة. فحين كانت «تيتا» ترتدي ملابسها من أجل السهر على الجثمان، انتزعت من خصر أمها مجموعة المفاتيح الضخمة التي كانت الأم تحملها كسلسلة قيد ترافقها مذ وعت «تيتا» على الدنيا. فكل شيء في البيت كان محفوظًا وراء قفل وتحت مراقبة صارمة. لا يمكن لأحد أن يُخرج ولو فنجان سكر من حجرة المؤن من دون إذن ماما «إيلينا». كانت «تيتا» تعرف مفاتيح كل الأبواب والمخابئ. ولكن بالإضافة إلى سلسلة المفاتيح الكبيرة، كانت ماما «إيلينا» تعلق حول عنقها حلية صغيرة لها شكل قلب، وكان بداخلها مفتاح صغير لفت نظر «تيتا».

وعلى الفور ربطت بين ذلك المفتاح والقفل الخاص به. ففي ذات يوم، وهي طفلة، كانت تلعب لعبة الاختباء ودخلت في خزانة ملابس ماما «إيلينا». وكان هناك بين الملاءات صندوق صغير. وبينما هي تنتظر أن يجيئوا للبحث عنها، حاولت فتحه من دون جدوى، لأنه كان مقفلًا بمفتاح. وعلى الرغم من أن ماما «إيلينا» لم تكن تلعب معها لعبة الاختباء، إلا أنها هي من وجدتها عندما فتحت خزانة الملابس. لقد جاءت لإخراج ملاءة أو شيء من هذا القبيل، وضبطتها متلبسة. عاقبتها بحبسها في مستودع الحبوب، وكانت العقوبة تتمثل في فرط مائة عرناس ذرة. أحست «تيتا» أن خطأها لا يستحق عقابًا كبيرًا بذلك القَدر؛ فالاختباء وهي تنتعل الحذاء بين الملاءات النظيفة لم يكن يستحق ذلك كله. ولكنها الآن، وقد ماتت أمها، وبينما هي تقرأ الرسائل التي يضمها الصندوق الصغير، أدركت أنها لم تُعاقب

لذلك السبب، وإنما لأنها حاولت رؤية محتوى الصندوق، وقد كان العقاب مناسبًا حقًّا.

فتحت «تيتا» الصندوق بفضول مَرضي. كان يضم حزمة رسائل من شخص يدعى «خوسيه تريبينيو» ويوميات. الرسائل موجهة إلى ماما «إيلينا». رتبتها «تيتا» حسب تواريخها وعرفت حقيقة قصة حب أمها. لقد كان «خوسيه» حب حياتها. لم يسمحوا لها بالزواج منه لأن في عروقه دماء سوداء. كان زنوج إحدى المستوطنات قد هربوا من الحرب الأهلية في الولايات المتحدة الأمريكية ومن خطر تعرضهم للشنق، واستقروا بالقرب من القرية. وكان «خوسيه» نتاج غراميات غير شرعية بين «خوسيه تريبينيو» الأب وزنجية حسناء. عندما اكتشف أبوا ماما «إيلينا» علاقة الحب بين ابنتهما وذلك الخلاسي، أصابهما الرعب وأجبراها على الزواج فورًا من «خوان دي لا جارثا»، أبي «تيتا».

لم يتوصل عملهم هذا إلى الحيلولة من دون استمرارها، حتى وهي متزوجة، في تبادل الرسائل سرًّا مع «خوسيه»، ويبدو أنهما لم يكتفيا بهذا النوع من التواصل فقط، ذلك أن «خيرترووديس»، بحسب تلك الرسائل، هي ابنة «خوسيه» وليست ابنة أبيها.

حاولت ماما «إيلينا» الهرب مع «خوسيه» عندما أدركت أنها حبلى، ولكن في الليلة التي كانت تنتظره فيها مختبئة، في ظلمة الشرفة، ظهر ما يشبه شبح رجل غير معروف، من دون سبب ظاهر، ومحتميًا بظلام الليل انقض على «خوسيه» وأزاله من هذا العالم. وبعد معاناة شديدة أذعنت ماما «إيلينا» للعيش إلى جانب

زوجها الشرعي. ظل «خوان دي لا جارثا» سنوات طويلة جاهلًا بهذه القصة كلها، ولكنه علم بها يوم ميلاد «تيتا» بالضبط. كان قد ذهب إلى الحانة للاحتفال مع بعض الأصدقاء بميلاد ابنته الجديدة، وهناك أفلت أحدُ الألسنة السامة تلك المعلومة له. وقد تسبب الخبر الرهيب بإصابته بسكتة قلبية. كان هذا هو كل شيء.

كانت «تيتا» تشعر بالذنب لمشاركتها في هذا السر. لم تعرف ما الذي تفعله بتلك الرسائل. فكرت في إحراقها ولكنها لم تكن الشخص القادر على فعل ذلك، فإذا كانت أمها لم تجرؤ عليه، فهي أقل جرأة منها. حفظت كل شيء كما وجدته وأعادت الصندوق إلى مكانه.

في أثناء الدفن بكت «تيتا» بكاء حقيقيًّا على أمها. ولكن ليس على المرأة القاسية التي قمعتها طوال حياتها، وإنما على ذلك الكائن الذي عاش حبًّا محبطًا. وأقسمت أمام قبرها على أنها هي نفسها لن تتخلى أبدًا عن الحب، وليحدث ما يحدث. لقد كانت مقتنعة في تلك اللحظات بأن حبها الحقيقي هو «جون». الرجل الذي يقف إلى جانبها ويدعمها بلا قيد أو شرط. ولكنها حين رأت جماعة من الناس تقترب من الضريح، ميزت بينهم من بعيد شبح «بيدرو» ومعه «روساورا»، فلم تعد واثقة تمامًا من مشاعرها.

كانت «روساورا» تمشي ببطء كاشفة عن بطن حبلى منتفخ. وعندما رأت «تيتا» تقدمت نحوها وعانقتها وهي تبكي بكاء مفجعًا. وتلاها في الدور «بيدرو». وما إن عانقها «بيدرو» حتى

اختلج جسدها كما الهلام. باركت «تيتا» أمها لأنها منحتها ذريعة التمكن من العودة إلى رؤية «بيدرو» ومعانقته. ثم انسحب بعد ذلك مباشرة بجفاء. فـ«بيدرو» لا يستحق من يحبه إلى ذلك الحد. لقد أبدى ضعفًا بذهابه بعيدًا عنها، ولن تغفر له ذلك.

أمسك «جون» بيد «تيتا» في طريق العودة إلى المزرعة، وأمسكته «تيتا» بدورها من ذراعه لتؤكد أن ما بينهما أكثر من صداقة. أرادت بذلك أن تسبب لـ«بيدرو» الآلام نفسها التي ظلت تشعر بها على الدوام كلما رأته إلى جانب أختها.

راقبهما «بيدرو» بعينين نصف مغمضتين. لم ترق له بأي حال الألفة التي يتقرب بها «جون» والتي تكلمه بها «تيتا» في أذنه. ما الذي يجري؟ إن «تيتا» له ولن يسمح بأن تُنتزع منه. وخصوصًا الآن، بعد أن زالت أكبر عقبة أمام ارتباطهما: ماما «إيلينا».

يتبع...

الوصفة التالية: «تشامباندونجو»

٨

أغسطس

«تشامباندونجو»

المُكونات:

١ ١/٤ كج لحم بقر مفروم
١ ١/٤ كج لحم خنزير مفروم
٢٠٠ ج جوز
٢٠٠ ج لوز
١ بصلة
١ حبة كبَّاد
٢ حبة كاكا (خرما)
سكر
١ ١/٤ كج كريمة
١ ١/٤ كج جبن «مانتشيجو»
١ ١/٤ كج «موليه»
كمون
مرق دجاج
عجة ذرة
زيت

طريقة التحضير

تقطَّع البصلة قطعًا رفيعة وتوضع للقلي مع اللحم في قليل من الزيت. وبينما هي تُقلى يُضاف إليها الكمون المطحون وملعقة من السكر.

وكالعادة، كانت «تيتا» تبكي بينما هي تقطع البصلة. وكانت رؤيتها غائمة جدًّا إلى حدٍّ جرحتْ معه إصبعها بالسكين من دون أن تنتبه. أطلقت صيحة غضب وواصلت تحضير «التشاماندونجو» وكأن شيئًا لم يحدث. لم يكن بإمكانها في تلك اللحظات أن تهتم، ولو ثانية واحدة، بالجرح. فاليوم سيأتي «جون» في الليل ليطلب يدها وعليها أن تُحضِّر له عشاء جيدًا خلال نصف ساعة فقط. ولم يكن يروق «تيتا» أن تطبخ بتعجل.

لقد اعتادت على الدوام أن تمنح الطعام الوقت المناسب والمحدد لطبخه، وهي تحاول تنظيم أنشطتها بطريقة تمنحها الطمأنينة التي تحتاج إليها في المطبخ لتتمكن من تحضير أطباق لذيذة ودقيقة. ولكنها تمضي متأخرة الآن، حتى إن حركاتها تبدو مضطربة ومتعجلة ومعرضة بالتالي لمثل هذه الحوادث.

السبب الأساسي في تأخرها هو أن ابنة أختها المعبودة ولدت في وقت سابق لموعد ولادتها ـ مثل «تيتا» نفسها ـ بثلاثة أشهر. كانت «روساورا» قد تأثرت جدًّا بموت أمها، ما بكَّر ولادة ابنتها وجعلها غير قادرة على إرضاعها. لم تستطع «تيتا»، أو أنها لم تشأ، أن تتولى في هذه المرة دور المرضعة مثلما جرى في حالة ابن أختها، بل إنها لم تحاول عمل ذلك. ربما بسبب التجربة المُدَمرة التي مرت بها حين أبعدوها عن الطفل. وهي تعرف الآن أنه يجب عليها عدم إقامة مثل تلك العلاقة الحميمة مع أطفال ليسوا لها.

وقد فضلت في المقابل أن تقدم لـ«إسبرانثا» التغذية نفسها التي قدمتها «ناتشا» إليها حين كانت وليدة ضعيفة: تشكيلة من «الأتوليه» والشاي.

عمدوا الطفلة باسم «إسبرانثا» استجابة لرغبة «تيتا». كان «بيدرو» قد أصر على تسمية الطفلة باسم «تيتا» نفسه، «خوسيفينا». ولكنها رفضت ذلك بصورة حاسمة، لأنها لا تريد للاسم أن يؤثر على مصير الطفلة. ولا سيما أنها نالت ما يكفي من واقع أن أمها قد تعرضت لسلسلة تقلبات اضطر معها «جون» إلى أن يجري لها عملية جراحية مستعجلة لإنقاذ حياتها ولتبقى بعدها غير قادرة على الحمل مجددًا.

كان «جون» قد أوضح لـ«تيتا» أن المشيمة في بعض الأحيان، ولأسباب غير عادية، لا تنزرع في الرحم وحسب، بل تضرب جذورًا فيه، ولا يمكن بالتالي التخلص من المشيمة في لحظة ولادة الطفل. إذ إنها تكون مستقرة بثبات، وإذا ما حاول

شخص غير خبير مساعدة الأم، وعمل على جذب المشيمة مستخدمًا في ذلك الحبل السري، فإنه قد يسحب الرحم كله مع المشيمة. عندئذ لا بد من مداخلة جراحية مستعجلة لاستئصال الرحم وتحويل تلك المرأة إلى عاجزة عن الحمل طوال ما تبقَّى من حياتها. لم يكن إجراء المداخلة الجراحية لـ«روساورا» بسبب نقص في خبرة «جون»، وإنما لأنه لم تكن ثمة طريقة أخرى للتخلص من المشيمة. وبالتالي ستكون «إسبرانثا» هي ابنتها الوحيدة، والصغرى، وتكتمل نكبتها في كونها أنثى! وهذا يعني ضمن التقاليد العائلية أنها من ستتولى العناية بأمها حتى آخر يوم في حياتها. ربما ضربت «إسبرانثا» جذورها في بطن أمها لأنها عرفت مسبقًا ما الذي ينتظرها في هذا العالم. وكانت «تيتا» تصلي كيلا تخطر ببال «روساورا» فكرة مواصلة ذلك التقليد القاسي.

ولكي تساعد في عدم حدوث ذلك، لم تشأ أن توحي لها بالفكرة من خلال اسمها وضغطت ليلًا ونهارًا إلى أن تمكنت من جعلهم يطلقون على الوليدة اسم «إسبرانثا».

ومع ذلك كانت هناك سلسلة مصادفات تضافرت ليكون للطفلة مصير مماثل لمصير «تيتا»، فبمحض الضرورة، مثلًا، كانت تقضي معظم ساعات النهار في المطبخ، لأن أمها غير قادرة على العناية بها، وخالتها وحدها هي القادرة على العناية بها في المطبخ، وهكذا كانت تنمو معافاة على أنواع من الشاي و«الأتوليه»، وسط روائح وطعوم ذلك المكان الفردوسي والدافئ.

من لم تكن تروق لها كثيرًا تلك العادة هي «روساورا» التي

شعرت أن «تيتا» تنتزع الطفلة لوقت طويل من جانبها، وما إن استعادت عافيتها من العملية الجراحية حتى طلبت، على الفور، أن تعاد «إسبرانثا»، بعد تناولها أغذيتها مباشرة، إلى حجرتها لتنام إلى جانب سريرها، حيث مكانها الطبيعي. وقد جاء هذا الطلب متأخرًا جدًّا، إذ كانت الطفلة في أثناء ذلك قد اعتادت على أن تكون في المطبخ، ولم يكن سهلًا إخراجها من هناك. فهي تبكي كثيرًا جدًّا حين تشعر أنها تُبعد عن دفء المدفأة، إلى حدٍّ أن «تيتا» كانت تضطر إلى أن تحمل الطبخ الذي أعدته إلى حجرة النوم لتتمكن من خداع الطفلة، فتغفو حين تشم رائحة القِدر التي تطبخ فيها «تيتا» وتشعر بحرارتها. وعندئذ ترجع «تيتا» ومعها القِدر الكبيرة إلى المطبخ لتواصل إعداد الطعام.

لكن الطفلة بدت متبصرة في هذا اليوم بالذات، ومن المحتمل جدًّا أنها هجست بأن خالتها تفكر في الزواج والذهاب من المزرعة، وأنها هي ستظل عندئذ في مهب الريح، ذلك أنها لم تتوقف عن البكاء. فكانت «تيتا» تصعد الدرج وتنزل عليه وهي تحمل قدور طعام من مكان إلى آخر. إلى أن حدث ما كان لا بد من حدوثه: «فالجرة تذهب إلى الينبوع إلى أن يأتي يوم وتنكسر». فبينما هي تنزل للمرة الثامنة، تعثرت وتدحرجت منها القِدر التي تحتوي صلصة «التشامباندونجو» إلى أسفل الدرج. وذهبت هدرًا معها أربع ساعات من العمل المكثف في فرم المكونات وطحنها.

جلست «تيتا» على إحدى الدرجات ورأسها بين يديها لتلتقط أنفاسها. لقد نهضت في الخامسة صباحًا كيلا تضطر إلى التسرع.

وقد ذهب ذلك كله أدراج الرياح. وعليها الآن أن تحضر صلصة «المولية» من جديد.

ما كان لـ«بيدرو» أن يختار لحظة أسوأ من تلك للتحدث مع «تيتا»، ولكنه انتهز فرصة وجودها جالسة على الدرج، وتبدو في الظاهر كمن تستريح قليلًا، فاقترب منها في محاولة لإقناعها بألا تتزوج من «جون».

ـ أريد أن أقول لك يا «تيتا» إنني أرى خطأ مؤسفًا في فكرة زواجك من «جون». وما زال أمامك متسع من الوقت لعدم ارتكاب هذا الخطأ. أرجوكِ ألا توافقي على هذا الزواج!

ـ لستَ أنت يا «بيدرو» من يمكن له أن يقول لي ما عليَّ أن أفعله أو لا أفعله. عندما تزوجتَ لم أطلب منك ألا تفعل، على الرغم من أن ذلك الزواج قد دمرني. أنت رتبت حياتك، فدعني الآن أرتب حياتي بسلام.

ـ بسبب قراري ذاك الذي اتخذته بالتحديد والذي أنا نادم عليه بالكامل، أطلب منك أن تعيدي التفكير في الأمر. أنت تعرفين جيدًا سبب ارتباطي بأختك، ولكن تبين أنه كان عملًا غير مجدٍ ولم يُفِد في شيء. إنني أفكر الآن في أنه كان من الأفضل الهروب معك.

ـ ما تفكر فيه جاء متأخرًا جدًّا. لم يعد ثمة مخرج الآن. وأرجوك ألا تعود إلى مضايقتي أبدًا، وألا تتجرأ على تكرار ما قلته لي الآن، فقد تسمعك أختي ولا داعي لوجود شخص تعيس آخر في هذا البيت. عن إذنك...! آه، وأقترح عليك حين تقع في الحب في المرة القادمة ألا تكون جبانًا!

تناولت «تيتا» القِدر بغضب، ومضت نحو المطبخ. أنهت صلصة «المولیه» وسط غمغمات وبَعْثرة للأواني، وبينما كانت الصلصة تنضج واصلت تحضير «التشاماباندونجو».

عندما يبدأ اللحم في التحمر تضاف إليه الكاكا المقطعة مع الكبَّاد، والجوز واللوز المقطع قطعًا صغيرة.

اختلطت حرارة بخار القدر مع تلك المنبعثة من جسد «تيتا». والغضب الذي تشعر به من الداخل كان يعمل عمل الخميرة في عجين الخبز. تشعر به يتعاظم باندفاع ليصل حتى آخر فجوة يمكن أن يتضمنها جسدها، ومثل الخميرة التي تكون في إناء صغير جدًّا، راح يطفح نحو الخارج، ويخرج على شكل بخار من الأذنين والأنف وكل مسام في بدنها.

ذلك الغضب الهائل تسبب بجزء ضئيل منه نقاشُها مع «بيدرو»، وتسببت بجزء آخر منه الأحداث والعمل في المطبخ، أما الجزء الأكبر فسببه الكلمات التي تلفظت بها «روساورا» قبل أيام من ذلك. فقد اجتمع كل من «تيتا» و«جون» و«أليكس» في حجرة نوم أختها، كان «جون» قد اصطحب معه ابنه في زيارته الطبية، لأن الطفل افتقد «تيتا» كثيرًا بعد مغادرتها بيتهم، وكان يرغب في رؤيتها من جديد. أطل الطفل على المهد ليتعرف على «إسبرانثا» وانبهر كثيرًا بجمال الطفلة. ومثل جميع الأطفال الذين لا يعرفون محظورات في تلك السن، قال بصوت عالٍ:

ـ اسمع يا بابي، أنا أريد أن أتزوج أيضًا... هكذا مثلك. ولكن من هذه الطفلة الصغيرة.

ضحك الجميع للخاطرة الطريفة، ولكن عندما أوضحت

«روساورا» لـ«أليكس» أن ذلك غير ممكن لأن هذه الطفلة الصغيرة ستكون مكرسة لرعايتها حتى يوم وفاتها، أحست «تيتا» بأن شعرها قد انتصب. فلا يمكن أن يخطر إلا لـ«روساورا» مثل ذلك الأمر الفظيع: الاستمرار في تخليد تقليد غير إنساني بالمطلق.

ليت فم «روساورا» احترق! ليته احترق ولم تفلت منه قط مثل تلك الكلمات المقززة، النتنة، غير المعقولة، العفنة، غير الوقورة، والمثيرة للاشمئزاز. كان من الأفضل لها أن تبتلعها وتحتفظ بها أعمق أعماقها إلى أن تتعفن وتُدَوِّد. وليتها هي نفسها تعيش طويلًا لتمنع أختها من تحقيق مثل تلك النوايا المشؤومة.

لم تكن تعرف، في نهاية المطاف، لماذا عليها أن تفكر في تلك الأمور الكريهة في هذه اللحظات التي يجب أن تكون أسعد لحظات حياتها، ولم تعرف لماذا هي متضايقة إلى ذلك الحد. ربما نقل إليها «بيدرو» عدوى تعكر مزاجه. فمنذ عودتهم إلى المزرعة ومعرفته أن «تيتا» تفكر في الزواج من «جون» صار يبدو بمزاج يعكره ألف عفريت. بل إن التكلم معه لم يعد ممكنًا. كان يحاول الخروج في وقت مبكر جدًّا والتجوال في المزرعة عدوًا على حصانه. ويرجع ليلًا في موعد تناول العشاء بالضبط، ثم ينزوي بعد ذلك مباشرة في حجرته.

لم يستطع أحد تفسير ذلك التصرف، ظن البعض أن السبب هو تأثره العميق بفكرة أنه لن يكون بمقدوره إنجاب مزيد من الأبناء. ومهما كان السبب، بدا أن الغضب يسيطر على أفكار

وأفعال الجميع في البيت. كانت «تيتا» «كالماء في الشوكولاتة» بكل معنى الكلمة، تشعر بأنها في أشد حالات النزق. وحتى هديل الحمام المحبب الذي أعادوا تربيته على سطح البيت، وكان قد أشعرها ببهجة كبيرة يوم عودتها، سبب لها الإزعاج في تلك اللحظة. كانت تشعر بأن رأسها سينفجر مثل حبة فشار ذُرة. وفي محاولة للحيلولة من دون ذلك، ضغطت عليه بقوة بكلتا يديها. إحساسها بضربة خفيفة على كتفها جعلها تلتفت متفاجئة، وبرغبة في ضرب أيًّا يكن من فعل ذلك، لأنه آتٍ بكل تأكيد لسلبها المزيد من وقتها. وكم كانت مفاجأتها حين رأت «تشينتشا» أمامها. «تشينتشا» المعهودة نفسها، مبتسمة وسعيدة. لم تبهجها رؤيتها في حياتها قطُّ كما الآن، ولا حتى حين زارتها في بيت «جون». وكعادتها الدائمة، بدت «تشينتشا» كأنها تهبط عليها من السماء، في أشد لحظة تحتاج فيها «تيتا» إليها.

بدت مذهلة رؤية كم تعافت «تشينتشا»، بعد أن رأتها ترحل في حالة من الغم واليأس لما جرى لها.

لم يبق أي أثر للصدمة النفسية التي تعرضت لها. والرجل الذي توصل إلى محو أثر تلك الصدمة كان يقف إلى جانبها مبتسمًا ابتسامة صريحة وعريضة. وعن بُعد فراسخ يبدو بوضوح أنه رجل نزيه وصموت. حسن، من يمكن له أن يعرف صحة هذا الأمر الأخير؛ لأن ما حدث هو أن «تشينتشا» لم تُتح له أن يفتح فمه إلا ليقول لـ«تيتا»:

«خيسوس مارتينيث» في خدمة حضرتك.

وبعد ذلك استحوذت «تشينتشا»، كعادتها، على الحديث كله

محطمة رقمًا قياسيًّا في السرعة، إذ توصلت، خلال دقيقتين، إلى إطلاع «تيتا» على آخر أحداث حياتها كاملة:

كان «خيسوس» حبيبها الأول، ولم ينسها قط. ولكن أبوي «تشينتشا» عارضا ذلك الحب معارضة قاطعة. ولو لم تعد «تشينتشا» إلى قريتها وتُمَكِّنَه من رؤيتها مجددًا لما عرف أبدًا أين يمكنه البحث عنها. لم يهتم طبعًا بأن «تشينتشا» لم تعد عذراء، وتزوج منها فورًا. وقد عادا إلى المزرعة معًا وهما يفكران ببدء حياة جديدة بعد أن ماتت ماما «إيلينا»، ويفكران في إنجاب أبناء كثيرين وأن يظلا سعيدين لعصور وعصور...

توقفت «تشينتشا» لتلتقط أنفاسها، إذ أخذ وجهها بالازرقاق، فاستغلت «تيتا» ذلك التوقف لتقول لها، ليس بالسرعة نفسها التي تكلمت بها «تشينتشا»، ولكنها قريبة منها، إنها سعيدة بعودتها إلى المزرعة، وسيتحدثون غدًا بشأن التعاقد مع «خيسوس»، وإنهم سيأتون اليوم لطلب يدها، وإنها ستتزوج قريبًا، وإنها لم تنته بعد من إعداد العشاء، وطلبت منها أن تقوم هي بذلك لتتمكن من أخذ حمام مهدئ بماء مثلج لتكون بمظهر لائق عند مجيء «جون» الذي سيصل بين لحظة وأخرى.

قامت «تشينتشا» عمليًّا بطردها من المطبخ وتولت القيادة فيه فورًا. فهي قادرة، حسب قولها، على إعداد «التشامباندونجو» بعينين معصوبتين ويدين مقيدتين.

عندما ينضج اللحم ويجفُّ، يكون العمل التالي هو قلي أقراص العجة في الزيت، ليس قليًا شديدًا كيلا تتصلب الأقراص. بعد ذلك، وفي الوعاء الذي سنُدخله في الفرن،

توضع أولًا طبقة من الكريمة حتى لا يلتصق الطعام، ثم طبقة من أقراص العجة وفوقها طبقة من اللحم المفروم، وأخيرًا يوضع «المولیه» ويُغطى بشرائح الجبن والكريمة. تكرر هذه العملية المرات التي يتطلبها ملء وعاء القالب. يُدخل إلى الفرن ثم يُخرج منه عندما يذوب الجبن وتصبح أقراص العجة طرية. ويقدم مع الأرز والفاصوليا.

يا للطمأنينة التي تشعر بها «تيتا» حين تعرف أن «تشينتشا» في المطبخ. فليس عليها الآن سوى الاهتمام بتسوية مظهرها الشخصي. اجتازت الفناء كهبة ريح ودخلت لتستحم. لديها عشر دقائق فقط، عليها أن تستحم خلالها، وترتدي ملابسها، وتتعطر وتسرح شعرها بطريقة مناسبة. كانت متعجلة إلى حدٍّ لم تر معه «بيدرو» يركل أحجارًا في الجانب الآخر من الفناء الخلفي.

خلعت «تيتا» ملابسها ودخلت تحت المرشة تاركة الماء البارد يسقط فوق رأسها. يا لشعورها بالراحة! فالأحاسيس تزداد حدَّة بينما العينان مغمضتان، ويصبح بالإمكان الإحساس بكل قطرة ماء باردة تسيل على الجسد. خيط من الماء كان ينزلق على ظهرها، ويذرع ساقيها القويتين حتى القدمين. وشيئًا فشيئًا راح تعكر المزاج يتلاشى، واختفى وجع الرأس. وفجأة بدأت تشعر أن الماء صار دافئًا وأن سخونته تزداد أكثر فأكثر إلى أن بدأ يحرق بشرتها. مثل هذا يحدث أحيانًا في مواسم الحر، عندما يسخن ماء الخزان طيلة النهار بأشعة الشمس القوية، ولكنه لا يحدث الآن؛ لأن الفصل، في المقام الأول، ليس صيفًا، وثانيًا لأن الليل بدأ يخيم. فتحت عينيها خائفة من أن تكون حجرة

الاستحمام ستشتعل مرة أخرى، فكان ما اكتشفته أمامها وجه «بيدرو» في الجانب الآخر من الألواح الخشبية يتأملها بالتفصيل.

كانت عينا «بيدرو» تلمعان بطريقة من المستحيل معها عدم اكتشافهما في الظلام، كأنهما قطرتا ندى تافهتان لا يمكن ألا تلفتا الانتباه وهما مختبئتان بين الأعشاب لدى تلقيهما أول أشعة الشمس. ملعونة نظرة «بيدرو»! وملعون النجار الذي جعل حجرة الاستحمام مثل سابقتها بالضبط، أي بفواصل بين كل لوح خشبي وآخر! عندما رأت «بيدرو» يقترب منها والنوايا الشبقة في عينيه، خرجت مسرعة من الحجرة وهي ترتدي ملابسها بتعثر. وصلت إلى حجرتها بتسرع كبير وأغلقتها عليها.

وما كادت تنتهي من زينتها حتى جاءت «تشينتشا» لتخبرها بأن «جون» قد وصل وأنه ينتظرها في الصالة.

لم تستطع التوجه مباشرة لاستقباله؛ فما زال عليها إعداد المائدة. وقبل وضع الشرشف لا بد من تغطية المنضدة بسماط سميك لتفادي ما يصدر عن الكؤوس والأطباق من قرقعة عند اصطدامها بالمائدة. ويجب أن يكون السماط من صوف أبيض لإبراز بياض الشرشف. كانت «تيتا» تفرده بنعومة فوق المائدة الفسيحة التي تتسع لعشرين شخصًا ولا يستخدمونها إلا في مناسبات كهذه. وكانت تحاول عدم إحداث أي صوت، حتى وهي تتنفس، كي تتمكن من سماع مضمون الحديث الدائر في الصالة بين «روساورا» و«بيدرو» و«جون». كانت تفصل بين الصالة وحجرة الطعام ردهة طويلة، وهكذا لم يكن يصل إلى مسمع «تيتا» سوى همهمة صوتي «بيدرو» و«جون» الرجوليين،

وقد تمكنت مع ذلك من أن تلتقط منهما نبرة لها وقع الجدال. وقبل انتظار أن تصل الأمور إلى ما هو أكبر، وضعت بسرعة، وحسب الترتيب الواجب، الأطباقَ وأدوات المائدة الفضة والكؤوس والممالح وحمالات السكاكين. وعلى الفور وضعت الشموع تحت سخانات الأطباق الرئيسية، وأطباق البدء والوسط، وتركتها جميعها جاهزة فوق منضدة البوفيه. هرعت إلى المطبخ من أجل إحضار نبيذ «بوردو» الذي كانت قد تركته في حوض بخار. فأنبذة «بوردو» تُخرج من القبو قبل ساعات وتوضع في مكان دافئ كي تؤدي الحرارة اللطيفة إلى زيادة عبقها، ولكن «تيتا» نسيت إخراج النبيذ قبل وقت مناسب، فسرَّعت العملية بطريقة مصطنعة. الشيء الوحيد الذي كان ينقصها هو أن تضع في وسط المائدة سلة برونز مذهبة فيها زهور، ولكن هذه لا توضع إلا قبل لحظات من انتقال المدعوين إلى المائدة، كي تبقى الزهور محافظة على نضارتها الطبيعية، فكلفت «تشينتشا» بهذا العمل، واتجهت إلى الصالة بالسرعة التي يسمح لها بها فستانها المنشى.

المشهد الأول الذي رأته حين فتحت الباب هو الجدال المحتدم بين «بيدرو» و«جون» حول وضع البلاد السياسي. وقد بدا أن كليهما قد نسي أبسط قواعد اللياقة المتحضرة التي تقول بأنه في أثناء اجتماع عائلي يجب ألا يؤتى على ذكر مسائل حول شخصيات عامة أو موضوعات حزينة أو أحداث مؤسفة، سواء حول الدين أو السياسة. أوقف دخول «تيتا» النقاش واضطرهما إلى تجديد حديثهما بنبرة ودية.

وفي جو التوتر ذاك تقدم «جون» بطلب يد «تيتا». وأعطاه «بيدرو»، بصفته رجل البيت، موافقته بجفاء. وبدأ في إقرار تفاصيل الخطوبة. وعندما حاولَا تحديد موعد الزفاف، علمت «تيتا» برغبة «جون» في تأجيله قليلًا ليتمكن بذلك من السفر إلى شمالي الولايات المتحدة وإحضار عمته الوحيدة المتبقية التي يرغب في أن تكون حاضرة في حفل الزفاف. شكَّل ذلك مشكلة خطيرة لـ«تيتا». فهي ترغب في مغادرة المزرعة والابتعاد عن «بيدرو» بأسرع ما يمكن.

تمت الخطوبة رسميًّا حين قدم «جون» إلى «تيتا» خاتم ألماس بديع. استغرقت «تيتا» طويلًا في تأمل بريقه في يدها. الومضات التي تنبعث منه ذكَّرتها ببريق عيني «بيدرو» قبل لحظات، عندما كان ينظر إليها وهي عارية، ووردت إلى ذهنها قصيدة «أتوميه»[٦] علمتها إياها «ناتشا» حين كانت طفلة:

في قطرة الندى تلمع الشمس
تجف قطرة الندى
في عيني، وفي عيني تلمع أنت
وأنا، أنا أحيا...

تأثرت «روساورا» لرؤية الدموع في عيني أختها وفسرتها على أنها دموع سعادة، وأحست بالتخفف قليلًا من الشعور بالذنب الذي كان يعذبها أحيانًا لأنها تزوجت من حبيب «تيتا».

---

(٦) شعب من السكان الأصليين موطنه مناطق متفرقة في وسط المكسيك. (المترجم).

عندئذ بادرت، بحماسة شديدة، إلى توزيع كؤوس شمبانيا على الجميع ودعتهم إلى نخب سعادة العروسين. عندما فعل ذلك الأربعة المجتمعون في وسط الصالة، ضرب «بيدرو» كأسه بكؤوس الآخرين بقوة كسرت الكأس فتاتًا وتطاير الشراب من بقية الكؤوس إلى وجوههم وملابسهم.

وسط الارتباك الذي ساد في تلك اللحظة، بدا ظهور «تشينتشا» أمرًا مباركًا، وكذلك نطقها بالكلمتين السحريتين: «العشاء جاهز». أعاد إعلانها هذا إلى الحاضرين الهدوء والروح اللذين تتطلبهما اللحظة بعد أن كانوا على وشك فقدانهما. فعندما يدور الحديث عن الطعام، وهو أمر بالغ الأهمية، لا يمكن إلا للحمقى أو المرضى ألا يولوه ما يستحقه من الاهتمام. وبما أنهم ليسوا كذلك، فقد أبدى الجميع طيب المزاج وهم يتوجهون إلى قاعة الطعام.

وفي أثناء العشاء كان كل شيء أكثر سهولة، بفضل مداخلات «تشينتشا» الظريفة وهي تخدمهم على المائدة. لم يكن الطعام لذيذًا كما كان في مناسبات أخرى، ربما لأن سوء المزاج لازم «تيتا» وهي تُعده، ولكن لا يمكن القول كذلك بأنه كان منفرًا. فـ«التشامباندونجو» طبق ذو مذاق بالغ الرهافة إلى حد لا يمكن معه لأي مزاج سيئ أن يقلل من سموه أو يبدل من مذاقه. عند الانتهاء، رافقت «تيتا» «جون» حتى الباب وتبادلا هناك قبلة على سبيل الوداع. لأن «جون» كان يفكر في السفر في اليوم التالي كي يعود بأسرع ما يمكن.

حين عادت «تيتا» إلى المطبخ أمرت «تشينتشا» بأن تنظف

الحجرة والفراش حيث ستعيش الآن مع زوجها «خيسوس»، ولكنها شكرتها قبل ذلك على مساعدتها الكبيرة لها. كان على «تشينتشا» وزوجها أن يتأكدا، قبل أن يندسا في الفراش، من أنهما لن يجدا في الحجرة البق المزعج. فالخادمة الأخيرة التي نامت هناك خلَّفت الحجرة موبوءة بتلك الحشرات، ولم تستطع «تيتا» تعقيمها بسبب كثافة العمل التي اشتدت عليها مع مولد ابنة «روساورا».

أفضل طريقة لقطع دابر البق تكون بخلط كوب من روح النبيذ ونصف أوقية من خلاصة التربنتين ونصف أوقية من مسحوق الكافور. وبهذه التركيبة تُطلى الأمكنة التي يوجد فيها البق فتقضي عليه قضاء مبرمًا.

بعد أن رتبت «تيتا» المطبخ راحت تضع الأواني والقدور في أمكنتها، لم تكن تشعر بالنعاس، ورأت أنه من الأفضل استغلال الوقت في ذلك بدلًا من التقلب من دون جدوى في الفراش. كانت تنتابها مجموعة من المشاعر المتضاربة، وأفضل طريقة لترتيبها في رأسها هي في أن ترتب المطبخ أولًا. تناولت قِدرًا كبيرة من الفخار وحملتها لحفظها في ما صارت الآن حجرة الأمتعة والأشياء القديمة، وكانت الحجرة المظلمة من قبل. فبعد موت ماما «إيلينا» وجدوا أن أحدًا لن يفكر في استخدامها كمكان استحمام، لأن الجميع يفضلون الاستحمام تحت المرشة، ومن أجل الاستفادة منها حولوها إلى حجرة للأمتعة وأواني المطبخ الكبيرة.

كانت تحمل القدر في إحدى يديها وفي اليد الأخرى مصباح

كيروسين. دخلت الحجرة بحذر كيلا تصطدم بالأشياء الكثيرة التي في الطريق إلى مكان حفظ قدور المطبخ التي لا تستخدم بكثرة. كان ضوء المصباح يساعدها بصورة كافية، ولكن ليس بما يكفي لإضاءة ما وراءها حيث انسل شبح بصمت وأغلق باب الحجرة.

عند شعورها بحضور غريب، استدارت «تيتا» فأظهر الضوء بوضوح هيئة «بيدرو» وهو يضع عارضة لدعم إغلاق الباب.

ـ «بيدرو»! ماذا تفعل هنا؟

ومن دون أن يجيبها، اقترب «بيدرو» وأطفأ ضوء المصباح، جذبها إلى حيث السرير النحاسي الأصفر الذي كان فيما مضى لأختها «خيرترورديس»، ودفعها عليه وأفقدها عذريتها وجعلها تعرف الحب الحقيقي.

كانت «روساورا» في حجرتها تحاول تنويم ابنتها التي تبكي من دون كابح. تدور بها في أنحاء الحجرة من دون جدوى. ولدى مرورها بمحاذاة النافذة رأت ضوءًا غريبًا يخرج من الحجرة المظلمة. أشكال حلزونية فسفورية ارتفعت إلى السماء كأنها أضواء ألعاب نارية. على الرغم من صرخات التنبيه التي وجهتها إلى «تيتا» و«بيدرو» كي يريا ذلك، لم تجد استجابة إلا من «تشينتشا» التي كانت قد خرجت بحثًا عن ملاءات. وحين شهدت تلك الظاهرة الفريدة، أصيبت «تشينتشا» بالبكم لأول مرة في حياتها من هول المفاجأة، لم يُفلت من شفتيها صوت واحد. حتى «إسبرانثا» التي لا يفوتها أي تفصيل، توقفت عن البكاء. جثت «تشينتشا» على ركبتيها بينما هي ترسم إشارة الصليب وراحت تصلي:

ـ أيتها العذراء المقدسة التي في السماوات، خذي إليك روح سيدتي «إيلينا» كي تتوقف عن التسكع في ظلمات المطهر!

ـ ما الذي تقولينه يا «تشينتشا»، عمَّ تتكلمين؟

ـ وماذا سيكون، ألا ترين أنه شبح المرحومة! لا بد أن المسكينة تدفع ثمن خطيئة ما! أنا، بلا أي شكوك، لن أعود ولو مزاحًا إلى الاقتراب من ذلك المكان!

ـ ولا أنا.

لو أن ماما «إيلينا» المسكينة تعلم أن حضورها، حتى بعد موتها، ما زال يثير الخوف، وأن هذا الخوف من اللقاء بها يوفر لـ«تيتا» و«بيدرو» الفرصة المثالية ليدنسا من دون عقاب حرمة مكانها المفضل بتمرغهما الشهواني على سرير «خيرترووديس»، لعادت إلى الموت من جديد مائة مرة!

يتبع...

الوصفة التالية: شوكولاتة وكعكة عيد الملوك المجوس

٩

سبتمبر

شوكولاتة وكعكة عيد الملوك المجوس

المُكونات:

٢ رطل كاكاو «سوكونوسكو»
٢ رطل كاكاو «ماراكايبو»
٢ رطل كاكاو «كاراكاس»
٤-٦ رطل سكر (حسب الرغبة)

طريقة التحضير

أول عملية يجب القيام بها هي تحميص الكاكاو. ومن المناسب في عمل ذلك استخدام طبق تحميص من الصفيح وليس من الفخار، لأن الزيت الذي ينزُّ من الحبوب يضيع في مسامات طبق الفخار. من المهم جدًّا إيلاء اهتمام لهذه الأنواع من التوجيهات، لأن جودة الشوكولاتة تعتمد على ثلاثة أمور، هي: أن يكون الكاكاو المستخدم سليمًا ولم يلحق به أي أذى، وأن تخلط في صنعه أصناف مختلفة من الكاكاو، وتعتمد أخيرًا على درجة تحميصه.

درجة التحميص التي ينصح بها هي اللحظة التي يبدأ فيها الكاكاو بنز زيته. إذا ما رُفع عن النار قبل ذلك، فإنه سيكون عسير الهضم، فضلًا عن اللون الشاحب وغير المحبب الذي سيظهر به. وإذا ما تُرك، بالمقابل، لمزيد من الوقت على النار، فإن معظم الحبوب ستحترق ما يجعل الشوكولاتة لاذعة المذاق وحريفة.

استخلصت «تيتا» نصف ملعقة صغيرة فقط من ذلك الزيت

لتخلطه بزيت اللوز الحلو وتحضِّر منه مرهمًا ممتازًا للشفاه. فمهما تتخذ من احتياطات في الشتاء، فإن شفتيها تتشققان على الدوام. كان ذلك يسبب لها إزعاجًا كبيرًا في طفولتها، لأنها كلما ضحكت تتفتح شفتاها الممتلئتان وتنزفان مسببتين لها ألمًا شديدًا. ومع مرور الزمن راحت تأخذ الأمر باستسلام. وبما أنه لم تعد لديها الآن أسباب كثيرة للضحك، فإن المسألة لم تعد تسبب لها أدنى قلق. ويمكنها الانتظار بطمأنينة حتى مجيء الربيع كي تختفي التشققات. الهدف الوحيد الذي يدفعها إلى تحضير المرهم هو مجيء بعض الزوار إلى البيت ليلًا للمشاركة في تقطيع كعكة عيد الملوك المجوس.

إنها تريد، لمجرد الزهو، وليس لأنها ترغب في الضحك كثيرًا، أن تكون شفتاها ناعمتين ولامعتين خلال السهرة. فالشك في كونها حبلى يجعلها تشعر كما لو أن الضحكة غير بادية على شفتيها. لم يخطر ببالها قط هذا الاحتمال في إنجاز حبها عمليًّا مع «بيدرو». لم تخبره بالأمر بعد. وكانت تفكر في أن تخبره هذه الليلة، ولكنها لا تدري كيف تفعل ذلك. ما الموقف الذي سيتخذه «بيدرو» وماذا سيكون الحل لهذه المشكلة الكبيرة، إنها تجهل ذلك تمامًا.

كانت تفضل محاولة عدم تعذيب نفسها أكثر والسعي إلى حرف الأفكار في ذهنها نحو أمور أكثر تفاهة، مثل تحضير مرهم جيد. ومن أجل ذلك ليس هنالك ما هو أفضل من زبدة الكاكاو. ولكن قبل أن تبدأ بتحضيرها كان لا بد لها من إنهاء صنع الشوكولاتة.

بعد تحميص الكاكاو بالطريقة التي أُشير إليها، يُنظف باستخدام غربال من أجل فصل القشرة عن الحبة. ثم يوضع تحت صفيحة الهرس التي سيطحن الكاكاو عليها مِجمر جيد الحرارة، وعندما تسخن الصفيحة، يبدأ طحن الحبوب. تخلط حبوب الكاكاو بالسكر وبهرسان معًا بمدحاة خشبية. ثم تقسم العجينة على الفور إلى قطع. وتشكل منها باليد ألواح الشوكولاتة الصغيرة، إما دائرية أو مستطيلة، حسب الرغبة، وتترك لتجف معرضة للهواء. وبطرفِ سكينٍ يمكن تحديد التقسيمات المرغوبة. وبينما «تيتا» تعطي لألواح الشوكولاتة شكلها، أحست بحنين حزين إلى أيام عيد الملوك المجوس في طفولتها، حيث لم تكن تعاني من مشاكل بهذه الجدية. كان قلقها الأعظم في ذلك الحين هو أن أولئك الملوك المقدسين لا يأتونها أبدًا بالهدية التي تطلبها، وإنما بما ترى ماما «إيلينا» أنه أنسب لها. ولم تعلم إلا منذ بضع سنوات أن المرة الوحيدة التي حصلت فيها على الهدية المأمولة كانت بفضل أن «ناتشا» قد ظلت توفر من أجرها بعض الوقت كي تشتري لها «ثينيتو» رأته في واجهة أحد المتاجر. ويسمونه «ثينيتو» لأنه جهاز يعرض على الجدار صورًا باستخدام مصباح كيروسين كمصدر للضوء، معطيًا بذلك تأثيرًا شبيهًا بتأثير السينما، لكن اسمه الحقيقي هو «زوتروبو». يا للسعادة التي شعرت بها حين رأته إلى جانب حذائها لدى استيقاظها في الصباح! وكم من أمسيات استمتعت فيها مع شقيقتيها برؤية توالي الصور المتسلسلة التي تأتي مرسومة على شرائح من زجاج، وتمثل حالات متنوعة ممتعة جدًّا. كم تبدو لها الآن بعيدة تلك

الأيام السعيدة، عندما كانت «ناتشا» إلى جانبها. «ناتشا»! إنها تحن إلى رائحتها... رائحة حساء الشعيرية و«التشيلاكيلي» و«التشامبورَّادو»، وصلصة «المولكَخيته»، والخبز بالقشدة، ورائحة الأزمنة الغابرة. سيظل مذاق مأكولاتها متفوقًا لا يعلى عليه إلى الأبد، وكذلك أصناف «أتوليها» وشايها وضحكتها وكماداتها على الصدغين، وطريقتها في تضفير شعرها وتغطيتها في الليل والعناية بها عند مرضها وطبخها لها ما ترغب فيه، وخفق الشوكولاتة! لو أن بالإمكان استرجاع لحظة واحدة من ذلك الزمن لعلها تستعيد قليلًا من سعادة تلك اللحظات وتتمكن من إعداد كعكة عيد الملوك المجوس بحماسة تلك الأيام نفسها! لو أنها تستطيع أن تأكلها بعد ذلك مع أختيها كما في الزمن الغابر، وسط اللعب والمزاح، حين لم يكن عليها هي و«روساورا» التنافس على حب رجل، وحين كانت تجهل أن الزواج محظور عليها في هذه الحياة، مثلما لم تكن «خيرترووديس» تعرف أنها ستهرب من البيت وتعمل في ماخور، وحين كانت تأمل، عند إخراج دمية من كعكة عيد الملوك المجوس، أن يتحقق ما تتمناه حرفيًّا بصورة إعجازية. لقد علمتها الحياة أن الأمور ليست بالغة السهولة، وأن قلة هم الذين يتذاكون للتوصل إلى تحقيق رغباتهم على حساب أي شيء، وأن الحصول على الحق في تحديد حياتها سيكلفها جهدًا أكبر مما تصورته. عليها أن تخوض هذا الصراع وحدها، وهذا يثقل عليها. لو أن أختها «خيرترووديس» إلى جانبها على الأقل! ولكن كان يبدو أن عودة ميت إلى الحياة محتملة أكثر من عودة «خيرترووديس» إلى البيت.

لم تعد إلى تلقي أية أخبار عنها منذ أن أوصل إليها «نيكولاس» ملابسها في الماخور الذي هوت فيه. وأخيرًا، بعد تركها ألواح الشوكولاتة التي أعدتها لتتهوى جنبًا إلى جنب مع ذكرياتها، تأهبت «تيتا» لإعداد كعكة عيد الملوك المجوس.

المُكونات:

٣٠ ج خميرة طازجة
١ و١\٤ كج دقيق
٨ بيضة
١ ملعقة ملح
٢ ملعقة ماء زهر البرتقال
١ و١\٢ فنجان حليب
٣٠٠ ج سكر
٣٠٠ ج زبد
٢٥٠ ج فواكه مجففة
١ دمية من الخزف

طريقة التحضير

تفرط الخميرة باليدين أو باستخدام شوكة في ربع كيلوجرام من الدقيق، ويضاف إليه قليلًا قليلًا نصف فنجان حليب دافئ. عندما يتم خلط المكونات جيدًا تعجن قليلًا وتترك لتتخمر على شكل كرة، إلى أن يكبر العجين إلى ضعف حجمه.

في الوقت الذي تركت «تيتا» فيه العجين ليختمر بالضبط، ظهرت «روساورا» في المطبخ. كانت آتية لطلب مساعدتها في كيفية تمكنها من تنفيذ نظام الحمية الذي وصفه لها «جون». فقد كانت لديها منذ أسابيع مشاكل هضم خطيرة: تعاني من غازات ورائحة أنفاس كريهة. لقد شعرت «روساورا» بالحرج من تلك الاضطرابات، حتى إنها اضطرت إلى اتخاذ القرار بأن تنام هي و«بيدرو» في حجرتين منفصلتين. وقد خففت بهذه الطريقة من معاناتها بتمكنها من إخراج الغازات على هواها. كان «جون» قد نصحها بالامتناع عن أغذية مثل النباتات الدرنية والبقول، وممارسة عمل بدني فعال. وهذا الأمر الأخير صعب عليها لبدانتها المفرطة. لم تجد تفسيرًا لكونها بدأت تسمن كثيرًا منذ عودتها إلى المزرعة، مع أنها ما زالت تأكل مثلما اعتادت على الدوام. ولكن المسألة أنها صارت تتجشم مشقة كبيرة جدًّا في تحريك جسدها الضخم والهلامي. وكانت هذه الأمراض كلها تأتيها بما لا حصر له من المشاكل، ولكن الأخطر هو أن «بيدرو» كان يبتعد عنها أكثر فأكثر. ليست تلومه: فحتى هي نفسها لا تتحمل نتانة بخرها. لم تعد قادرة على تحمل المزيد.

إنها المرة الأولى التي تفتح فيها «روساورا» قلبها لـ«تيتا» وتبحث هذه الموضوعات معها. حتى إنها اعترفت لها بأنها لم تتقرب منها من قبل لغيرتها منها، وأنها كانت تظن بأن هناك علاقة حب نابضة، ومستترة وراء المظاهر، بينها وبين «بيدرو». ولكنها الآن بعد رؤيتها كم هي مغرمة بـ«جون»، وكم هو قرب موعد زواجها منه، أدركت مدى سخف استمرارها في هذا النوع من

الشكوك. وقالت إنها واثقة من أن الوقت ما زال مناسبًا لبدء علاقة طيبة بينهما. الحقيقة أن العلاقة بين «روساورا» و«تيتا» كانت حتى الآن أشبه بعلاقة الماء بزيت يغلي! توسلت إليها والدموع في عينيها راجية ألا تحقد عليها لأنها تزوجت من «بيدرو»، وطلبت «روساورا» منها النصيحة لاستعادته إليها. وكأن «تيتا» في وضع يتيح لها أن تقدم مثل هذا النوع من النصائح! وأخبرتها «روساورا» بأسى أن «بيدرو» لم يقترب منها بنوايا غرامية منذ شهور، وأنه يتجنبها عمليًّا. وهذا لا يقلقها كثيرًا، لأن «بيدرو» لم يكن قط ميالًا إلى الإفراط الجنسي. ولكن الأمر لم يعد يقتصر على ذلك مؤخرًا، بل صارت تلمس في تصرفاته رفضًا صريحًا لشخصها.

حتى إنها تستطيع، فوق ذلك، أن تحدد بالضبط منذ متى بدأ بهذا، فهي تتذكره تمامًا. منذ الليلة التي بدأ فيها شبح ماما «إيلينا» بالظهور. فقد كانت مستيقظة تنتظر عودة «بيدرو» من نزهة خرج للقيام بها. وعندما رجع لم يكد يولي اهتمامًا لقصتها عن الشبح، بدا كما لو أنه غائب الذهن. وقد حاولت خلال الليل معانقته، ولكنه... إما كان مستغرقًا في النوم، أو يتظاهر بأنه كذلك، لأنه لم يأت بأي رد فعل على تلميحاتها. ثم سمعته بعد ذلك يبكي بصوت خافت، وتظاهرت بدورها أنها لا تسمعه.

كانت تشعر أن بدانتها وريح بطنها ورائحة أنفاسها الكريهة أخذت تُبعد «بيدرو» عنها يومًا بعد يوم بصورة نهائية ليس لها من حلٍّ. وبالتالي طلبت منها أن تساعدها. إنها بحاجة إليها أكثر من أي وقت آخر وليس لديها أحد سواها تلجأ إليه. وموقفها يزداد حرجًا مع كل يوم. لم تكن تعرف كيف سيكون رد فعلها على ما

«سيقال» إذا ما هجرها «بيدرو»، لن تتحمل ذلك. العزاء الوحيد المتبقي لها هو أن لديها على الأقل ابنتها «إسبرانثا» التي عليها واجب البقاء إلى جانبها إلى الأبد.

كل شيء كان يمضي على ما يرام حتى تلك اللحظة، فكلمات «روساورا» الأولى أحدثت أثرًا في ضمير «تيتا»، ولكنها حين سمعت، للمرة الثانية، ما سيكون عليه مصير «إسبرانثا»، اضطرت إلى بذل مجهود كبير كيلا تصيح في وجه أختها بأن هذه الفكرة من أخبث ما سمعته في حياتها. لم يكن بإمكانها أن تبدأ في تلك اللحظات جدالًا معها يمكن له أن يقوض النوايا الطيبة التي تشعر بها تعويضًا لـ«روساورا» عن الأذى الذي تسببه لها. وهكذا، بدلًا من أن تعلن عن أفكارها، وعدت أختها بأن تُعدَّ لها نظام حمية خاصًّا لمساعدتها على خفض وزنها. وزودتها بكل لطف بوصفة بيتية ضد رائحة النَّفَس الكريهة:

ـ تنشأ رائحة النفَس الكريهة من المعدة، وعديدة هي الأسباب التي تساهم فيها. وللتخلص منها لا بد أولًا من الغرغرة بماء مملح، واستنشاقه في الوقت نفسه من الأنف، وأن يخلط ببضع قطرات من خل الكافور المسحوق. وبالتوازي مع ذلك يجب مضغ أوراق النعناع باستمرار. ويمكن للمواظبة على الوصفة المقترحة بحد ذاتها أن تطهر أشد روائح النفَس نتانة.

شكرتها «روساورا» بلا حدود لمساعدتها وخرجت بسرعة إلى الحديقة لجمع أوراق نعناع، ولكن ليس قبل أن تتوسل إليها بأن تتكتم تكتمًا مطلقًا على هذا الموضوع الحساس. كان وجه «روساورا» يعكس ارتياحًا كبيرًا. أما «تيتا» في المقابل فكانت

محطمة. ما الذي فعلته؟! كيف يمكنها تعويض ما ألحقته من ضرر «بروساورا» و«بيدرو» وبنفسها و«بجون»؟ بأي وجه ستستقبله بعد أيام، عند عودته من رحلته؟ «جون»، الشخص الذي لا وجود فيه إلا لأشياء يشكر عليها، «جون» الذي أعاد الرشد إليها، «جون» الذي بيَّن لها طريق الحرية.

«جون» السلام والسكينة والعقل. الحقيقة أنه لا يستحق ذلك! ماذا ستقول له، وما العمل؟ من الأفضل لها حاليًّا مواصلة إعداد كعكة عيد الملوك المجوس، فالعجينة التي تركتها مع الخميرة قد اختمرت بينما هي تتبادل الحديث مع «روساورا»، وصارت جاهزة للخطوة التالية.

تُشكَّل من كيلوجرام من الدقيق بركة دائرية على المنضدة. وفي منتصفها توضع المُكونات الأخرى كافة، ويُؤخذ بعجنها ابتداء من الوسط بأخذ قليل فقليل من دقيق الدائرة، إلى أن ينتهي الأمر بمزجه كله. وعندما يكون حجم العجين الذي أضيفت إليه الخميرة قد تضاعف، يخلط مع هذه العجينة الجديدة الأخرى، وتمزجان مزجًا تامًّا إلى حدِّ التوصل إلى أن الخليط صار ينفصل عن اليدين بكل سهولة. تُستخدم أداة كشط لانتزاع العجين الذي يظل ملتصقًا بالمنضدة، لإضافته إلى كتلة العجين أيضًا. عندئذ تُفرغ العجينة في وعاء عميق ومطلي بالسمن. ثم يُغطى بفوطة ويُنتظر أن يرتفع العجين مجددًا إلى ضعف حجمه. لا بد من الأخذ في الاعتبار أن العجين يحتاج إلى ساعتين تقريبًا كي يتضاعف حجمه، ومن الضروري أن يتم ذلك ثلاث مرات، قبل التمكن من إدخاله إلى الفرن.

بينما كانت «تيتا» تغطي بفوطةٍ الإناءَ الذي وضعت فيه العجين ليختمر، عصفت هبة ريح قوية بباب المطبخ وفتحته على مصراعيه وسمحت لبرد قارس بمداهمة المكان. طوح الهواء بالفوطة وسرت في ظهر «تيتا» قشعريرة جليدية. استدارات بجسدها، وبذهول وجدت نفسها وجهًا لوجه أمام ماما «إيلينا» التي كانت تنظر إليها بقسوة.

ـ لقد قلت لك مرات كثيرة ألا تقتربي من «بيدرو». لماذا فعلت ذلك؟

ـ . . . حاولتُ ذلك يا مامي. . . ولكن. . .

ـ لكن لا شيء! ما فعلتِه لا اسم له! لقد نسيتِ ما هي الأخلاق، وما هو الاحترام والعادات الحميدة! لستِ تساوين شيئًا، ما أنت إلا منحطة لا تحترم حتى نفسها. لقد لوثت اسم العائلة كلها، من أول أسلافي حتى هذا الكائن الرجيم الذي تحملينه في أحشائك!

ـ لا! ابني ليس ملعونًا!

ـ بل هو كذلك! أنا ألعنه! ألعنه وألعنك إلى الأبد!

ـ لا، أرجوكِ.

دخول «تشينتشا» إلى المطبخ جعل ماما «إيلينا» تستدير وتخرج من الباب نفسه الذي دخلت منه.

ـ أغلقي الباب يا ابنتي، ألا ترين برودة الجو؟ إنني أراك مهمومة جدًّا في الآونة الأخيرة. ما الذي حدث لك؟

لا شيء. لم يحدث لها شيء سوى أن دورتها الشهرية قد تأخرت شهرًا، والشك في أن تكون حبلى؛ عليها أن تخبر

«جون» فور عودته للزواج منها، عليها أن تلغي هذا الزواج، عليها أن تغادر هذه المزرعة إذا كانت تريد وضع وليدها من دون مشاكل، عليها أن تنكر «بيدرو» إلى الأبد؛ لأنه لا يمكن لها إلحاق مزيد من الآلام بـ«روساورا».

هذا هو كل ما يحدث لها! لكنها لا تستطيع قوله. وإذا ما فعلت، وهي التي تعرف مدى ثرثرة «تشينتشا»، فإن القرية كلها ستكون في اليوم التالي على علم بالأمر. فضلت عدم تقديم أي جواب لها وتغيير موضوع الحديث من دون مزيد من اللغط، بالطريقة نفسها التي تتبعها معها «تشينتشا» كلما فاجأتها مرتكبة أي خطأ.

ـ يا للهول! لقد طفح العجين. دعيني أكمل الكعكة، وإلا سيداهمنا الليل من دون أن نكون قد انتهينا.

لم تكن العجينة قد طفحت بعد من الوعاء الذي وضعتها فيه لتختمر، ولكنها كانت حجة مثالية لجذب انتباه «تشينتشا» نحو موضوع آخر.

عندما يتضاعف حجم العجينة للمرة الثانية، تُفرغ على المنضدة، ويصنع منها شريط طويل. يوضع في وسطها، لمن يرغب، بعض الفواكه المجففة المقطعة. ومن لا يرغب فيها، يكتفي بوضع الدمية الخزفية فقط في مكان غير محدد. يُلف الشريط بدس أحد طرفيه في الطرف الآخر، ثم يوضع فوق صفيحة معدنية مطلية بالسمن والدقيق على أن يكون موضع وصل الطرفين إلى أسفل. تُعطى شكل كعكة لولبية مع ترك مسافة لا بأس بها بينها وبين حافة الصفيحة المعدنية، لأن حجم العجين

سيتضاعف مرة أخرى. وفي هذه الأثناء يجري إشعال الفرن للحفاظ على درجة حرارة لطيفة في المطبخ، إلى أن تنتهي عملية تحول قوام العجينة إلى إسفنجي.

قبل إدخال الدمية الخزفية في الكعكة، تفحصتها «تيتا» بإمعان. ففي ليلة السادس من يناير، حسب التقاليد، تقطَّع الكعكة، والشخص الذي تخرج له الدمية المخبأة داخلها يكون مجبرًا على إقامة حفلة في الثاني من فبراير، يوم «لاكانديلاريا»، عيد تقديم الطفل يسوع إلى الهيكل. وقد تحول هذا التقليد منذ طفولتهن، هي وأختاها، إلى نوع من المنافسة بينهن. فكانت تعتبر محظوظة جدًّا من يحالفها الحظ بالحصول على الدمية. ويمكن لها في الليل أن تطلب أمنية وهي تشد على الدمية بقوة بين يديها.

وبينما هي تتأمل بدقة تقاطيع الدمية الحساسة، راحت تفكر في كم كان طلب الأمنيات سهلًا في الطفولة. لم يكن ثمة مستحيلات آنذاك. حين يكبر المرء يعي كل ما لا يمكن له أن يتمناه لأنه محرم، آثم... غير محتشم.

ولكن ما هو الاحتشام؟ أهو إنكار كل ما يرغب فيه أحدنا في الحقيقة؟ ليتها لم تكبر، ولم تعرف «بيدرو»، ولم تكن مضطرة إلى تمني ألا تكون حبلى منه. ليت أمها تتوقف عن تعذيبها، وعن مواجهتها في كل ركن والصراخ بها لشناعة تصرفها. ليت «إسبرانثا» تتزوج، من دون أن تتمكن «روساورا» من منعها، ولا تعرف أبدًا مثل هذه الهموم والآلام! ليت هذه الطفلة تمتلك القوة التي امتلكتها «خيرترووديس» كي تهرب من

البيت، إذا ما تطلب الأمر ذلك! ليت «خيرترووديس» ترجع إلى البيت لتمنح «تيتا» الدعم الذي تحتاج إليه كثيرًا في هذه الأوقات! وبينما هي تتمنى هذه الأمنيات دستِ الدميةَ في الكعكة وتركتها فوق المنضدة، حتى يتواصل تضخم حجمها.

عندما يتضاعف حجم العجينة للمرة الثالثة، تُزين بالفواكه المجففة، ويُلمع سطحها بطلائه ببيضة مخفوقة، ويوضع فوقها السكر. وتُدخل إلى الفرن مدة عشرين دقيقة وتترك بعدها لتبرد.

حين صارت الكعكة جاهزة، طلبت «تيتا» من «بيدرو» أن يساعدها في حملها إلى المنضدة. كان يمكن لها طلب المساعدة من أي شخص، ولكنها كانت بحاجة إلى التحدث معه بعيدًا عن العيون.

ـ «بيدرو»، إنني بحاجة إلى التحدث إليك على انفراد.

ـ هذا سهل جدًّا. لماذا لا تذهبين إلى الحجرة المظلمة؟ هناك يمكننا أن نفعل ذلك من دون أن يزعجنا أحد. منذ أيام وأنا أنتظر ذهابك إلى هناك.

ـ ما أريد قوله لك يتعلق بذهابنا إلى هناك تحديدًا.

قطع دخول «تشينتشا» حديثهما، جاءت لتخبرهما بأن آل «لوبو» قد وصلوا للتو وأن الجميع ينتظرون مجيئهما فقط من أجل قطع الكعكة. فلم يبق أمام «تيتا» و«بيدرو» عندئذ مفر من وقف حديثهما وحمل الكعكة إلى قاعة الطعام، حيث كانت تُنتظر بلهفة. وبينما هما يجتازان الردهة، رأت «تيتا» أمها واقفة إلى جانب باب قاعة الطعام، وكانت توجه إليها نظرة غاضبة. توقفت «تيتا» مشلولة. بدأ «بولكيه» النباح على ماما «إيلينا» التي راحت

تتقدم نحو «تيتا» بصورة متوعدة. كان وبر ظهر الكلب منتصبًا من الخوف وكان يتراجع بوضع دفاعي إلى الوراء. وقد أدى ذهوله إلى إدخاله إحدى قائمتيه الخلفيتين في المبصقة النحاسية الموضوعة في نهاية الردهة، بجوار نبتة السرخس، ولدى محاولته الهروب راكضًا دفعها بقائمته على الأرض لتبلل كل الأنحاء بمحتوياتها.

استثارت القرقعة التي أحدثتها قلقَ الاثني عشر مدعوًّا الذين كانوا متجمعين في الصالون. أطلوا على الردهة مذعورين وكان على «بيدرو» أن يوضح لهم أن «بولكيه»، ربما بسبب الشيخوخة، صار يقوم مؤخرًا بهذا النوع من الأعمال التي لا تفسير لها، ولكن كل شيء تحت السيطرة. ومع ذلك، فقد انتبهت «باكيتا لوبو» إلى أن «تيتا» تكاد أن يُغمى عليها. طلبت أن يساعد شخص آخر «بيدرو» في حمل الكعكة إلى قاعة الطعام، لأنها ترى أن «تيتا» متوعكة جدًّا، ثم أخذتها من ذراعها واقتادتها إلى الصالون. جعلوها تشم أملاحًا وبعد لحظات استعادت وعيها تمامًا. عندئذ قرروا التوجه إلى قاعة الطعام. وقبل الخروج، أوقفت «باكيتا» «تيتا» هنيهة وسألتها:

ـ هل تشعرين بأنك أحسن حالًا الآن؟ ألاحظ أنك ما زلت شبه دائخة، ويا لنظرتك هذه! لولا أنني أعرف جيدًا أنك فتاة محتشمة لأقسمت أنك حبلى.

فحاولت «تيتا» ضاحكة إبداء عدم اهتمام بقولها، وردت بالقول:

ـ حبلى؟ هذا أمر لا يخطر إلا لك! وما علاقة النظرة بذلك؟

ـ أنا أستطيع أن أرى في عيني المرأة فورًا متى تكون حبلى.

أحست «تيتا» بالامتنان تجاه «بولكيه» الذي أنقذها مجددًا من موقف صعب، لأن الضجة الشيطانية التي كان لا يزال يثيرها في الفناء حالت من دون مواصلتها الحديث مع «باكيتا». وفضلًا عن نباح «بولكيه» كانت تُسمع أصوات يثيرها عدو عدة أحصنة. كان المدعوون جميعهم قد صاروا في البيت. فمن يمكن أن يكون القادم الآن؟ توجهت «تيتا» مسرعة إلى الباب، فتحته ورأت كيف كان «بولكيه» يحتفي بالشخص القادم على رأس فرقة من الثوار. لم تستطع أن تتبين، إلا بعد اقترابهم بصورة كافية، أن من يقود الفرقة ليس إلا أختها «خيرترووديس». وإلى جانبها كان يمضي على حصانه من صار الآن الجنرال «خوان أليخاندريث»، الشخص نفسه الذي كان قد اختطفها في وقت سابق. ترجلت «خيرترووديس» عن الحصان، وكما لو أن الزمن لم يمض، قالت بصخب إنها لمعرفتها بأن اليوم هو يوم تقطيع كعكة عيد الملوك المجوس، تعمدت المجيء لتناول فنجان جيد من الشوكولاتة المخفوقة للتو. عانقتها «تيتا» بتأثر واقتادتها مباشرة إلى المائدة لتحقق لها رغبتها. لقد كانوا يحضرون الشوكولاتة المخفوقة في البيت بطريقة لا يجاريهم فيها أحد، فهم يُبدون حرصًا كبيرًا في كل الخطوات المتبعة في تحضيرها، ابتداء من صنع الشوكولاتة وحتى خفقها، وهذا فصل آخر بالغ الأهمية. إذ يمكن لعدم الكفاءة في خفقها أن يتسبب في تحول شوكولاتة من نوعية ممتازة إلى كريهة المذاق، إما بسبب نقص في غليها أو لزيادة في غليانها، ما يؤدي إلى كثافة قوامها أو احتراقها.

الطريقة لتفادي كل الأخطاء السابقة بسيطة جدًّا: يوضع على النار لوح شوكولاتة مع الماء. كمية الماء يجب أن تكون أكبر بقليل من التي يتطلبها ملء الوعاء الذي ستغلى فيه. وعند أول غليان، تبعد عن النار ويذاب لوح الشوكولاتة جيدًا، تخفق الشوكولاتة بمضرب خشبي حتى تختلط بالماء اختلاطًا تامًّا. ثم تعاد إلى الموقد. وعندما تغلي مرة أخرى وتوشك على الفوران، ترفع عن النار. ثم تُعاد إليها مباشرة من جديد وهكذا إلى أن يبدأ غليانها الثالث. عندئذ ترفع من فوق النار للمرة الأخيرة وتخفق. يسكب نصفها في وعاء ويخفق ما تبقى مرة أخرى. عندئذ تسكب كلها، بحيث يظل السطح مغطى بالرغوة. ويمكن صنعها بالحليب أيضًا بدلًا من الماء. ولكنها في هذه الحالة تغلى مرة واحدة فقط، وحين توضع للمرة الثانية على النار تُخفق كيلا يصبح قوامها كثيفًا جدًّا. الشوكولاتة المعدة بالماء تكون أسهل هضمًا من التي بالحليب.

كانت «خيرترووديس» تغمض عينيها مع كل رشفة تتناولها من فنجان الشوكولاتة الذي أمامها. إن الحياة تصبح أكثر بهجة لو كان بإمكان أحدنا أن يحمل أينما شاء نكهات وروائح بيت الأم. حسن، لم يعد هذا بيت أمها. فأمها قد ماتت من دون أن تعلم بخبر موتها.

شعرت بحزن شديد عندما أخبرتها «تيتا». فقد عادت كي تُري ماما «إيلينا» أنها قد حققت الفوز في الحياة. فهي الآن «جنرالة» في الجيش الثوري. لقد نالت هذا اللقب بقوة ذراعها، بالقتال كما لم يقاتل أحد في ميدان المعركة. لقد كانت تحمل

موهبة القيادة في دمائها، ولهذا ما إن انضمت إلى الجيش حتى بدأت ترتقي بسرعة سلم مناصب السلطة إلى أن وصلت إلى أفضل موقع. وليس هذا وحسب، بل عادت وقد وفقت بالزواج من «خوان». فقد وجدته بعد فراق لم تره خلاله لأكثر من عام، وتجدد بينهما الوله نفسه الذي عاشاه يوم تعارفا. ما الذي يمكن للمرء أن يطلبه أكثر من ذلك! كم كان سيروق لها لو أن أمها استطاعت رؤيتها، وكم كانت هي راغبة في أن تعود لرؤية أمها، ولو لمجرد أن تراها تومئ لها بنظرها أن تستخدم الفوطة لتمسح بقايا الشوكولاتة عن شفتيها.

لقد أُعدت هذه الشوكولاتة كما في الأيام القديمة.

صلَّت «خيرترووديس» بصمت وبعينين مغمضتين طالبة أن تعيش «تيتا» سنوات طويلة أخرى لتظل تطبخ وصفات أطعمة العائلة. لأنها هي و«روساورا» لا تمتلكان المعارف لعمل ذلك. وبالتالي فإن اليوم الذي ستموت فيه «تيتا» سيموت معها ماضي عائلتها. عندما انتهى الجميع من تناول العشاء انتقلوا إلى الصالون، حيث بدأ الرقص. كان الصالون مضاءً جيدًا بكمية كبيرة من الشموع. أذهل «خوان» المدعوين بعزفه البديع على الجيتار، والهارمونيكا، والأكورديون. وكانت «خيرترووديس» تتابع إيقاع المقطوعات التي يعزفها «خوان» بالضرب على الأرض بطرف جزمتها العسكرية. كانت تنظر إليه بفخر من أقصى الصالة، حيث أحاطت بها كوكبة من المعجبين، وحاصرتها بأسئلة حول مشاركتها في الثورة. فكانت «خيرترووديس» تروي لهم بطلاقة كبيرة، بينما هي تدخن، قصصًا خيالية عن المعارك

التي شاركت فيها. وفي تلك اللحظة خلَّفتهم مفتوحي الأفواه من الدهشة وهي تخبرهم كيف كانت أول عملية إعدام رميًا بالرصاص أمرتْ بها. ولكنها حين لم تعد قادرة على كبح نفسها، قطعت الحكاية واندفعت إلى وسط الصالون حيث بدأت ترقص برشاقة رقصة البولكا «خيسوسيتا في تشيهواهوا» التي كان «خوان» يعزفها ببراعة على الأكورديون الشمالي. وراحت ترفع تنورتها بخفة حتى الركبة، مبدية كثيرًا من الاستهتار.

أثار سلوكها هذا تعليقات استنكار النساء المجتمعات هناك.

وهمست «روساورا» في أذن «تيتا»:

ـ لا أدري من أين خرجت «خيرترووديس» بهذه الإيقاعات. فماما «إيلينا» لم يكن يروقها الرقص، ويقال إن بابا كان يرقص بصورة سيئة جدًّا.

هزت «تيتا» كتفيها كإجابة، مع أنها كانت تعرف جيدًا ممن ورثت «خيرترووديس» إيقاعات الرقص وأشياء أخرى. وكانت تظن أنها ستحمل هذا السر معها إلى القبر، لكنها لم تستطع ذلك. فبعد عام وضعت «خيرترووديس» ابنًا خلاسيًّا. فثار غضب «خوان» وهدد بهجرها. لم يغفر لـ«خيرترووديس» عودتها إلى مسار السوء. عندئذ، ومن أجل إنقاذ ذلك الزواج، اعترفت «تيتا» بكل شيء. ولحسن الحظ أنها لم تكن قد تجرأت على إحراق الرسائل، فمع ماضي أمها «الأسود»، أفادتها تلك الرسائل الآن تمامًا كدليل لإثبات براءة «خيرترووديس».

لقد كانت صدمة يصعب على كل حال تقبلها، ولكنهما لم

ينفصلا على الأقل، بل عاشا معًا إلى الأبد وأمضيا أوقاتًا سعيدة أكثر مما أمضياه من خصام.

ومثلما كانت تعرف سبب رقص «خيرترووديس»، فإنها كانت تعرف كذلك سبب إخفاق زواج أختها وسبب حبلها هي نفسها.

إنها ترغب الآن في أن تعرف ما هو أفضل الحلول. هذا هو المهم. لحسن الحظ أن لديها الآن من يمكنها أن تأتمنه على عذاباتها. كانت تأمل في بقاء «خيرترووديس» في المزرعة وقتًا كافيًا لتسمع منها وتقدم لها النصح. أما ما تتمناه «تشينتشا» بالمقابل، فكان عكس ذلك تمامًا. لقد كانت غاضبة من «خيرترووديس»، حسن، ليس منها بالذات، وإنما من العمل الذي يعنيه القيام على خدمة جنودها. فبدلًا من أن تستمتع بالحفلة، في تلك الساعات من الليل، كان عليها أن تضع منضدة كبيرة في الفناء وأن تصنع شوكولاتة للخمسين جنديًّا في فرقتها.

يتبع...

الوصفة التالية: أقراص «توريخاس» بالقشدة المحلاة

١٠

أكتوبر

أقراص «توريخاس» بالقشدة المحلاة

المُكونات:

١ فنجان قشدة محلاة
٦ بيضة
قرفة
قَطر

طريقة التحضير

يُؤخذ البيض ويكسر لاستبعاد الزلال منه. يخلط صفار البيضات الست مع فنجان القشدة المحلاة. تخفق هذه المكونات إلى أن يصبح المزيج متجانسًا. وعندئذ يسكب في قِدر مطلية مسبقًا بمادة دهنية. ويجب ألا تزيد سماكة هذا الخليط في القدر عن ارتفاع إصبع. يوضع فوق الموقد، على نار خافتة جدًّا، ويترك إلى أن يتخثر.

كانت «تيتا» تعد هذه الحلوى بناء على طلب محدد من «خيرترووديس»، لأنها تحليتها المفضلة. وقد مر زمن طويل من دون أن تتناولها، وهي تريد فعل ذلك قبل أن تغادر المزرعة في اليوم التالي. لقد أمضت في البيت أسبوعًا واحدًا فقط، ولكن هذا أكثر بكثير مما خططت له. بينما كانت «خيرترووديس» تطلي القدر الذي ستسكب فيها «تيتا» القشدة المخفوقة، لم تكن تتوقف عن الكلام. لديها أمور كثيرة ترويها لأختها، فحتى لو ظلت تتكلم شهرًا، طيلة النهار والليل، لن يكون بإمكانها استنفاد

أحاديثها. وكانت «تيتا» تستمع إليها باهتمام كبير. بل إنها كانت تخشى أن تتوقف عن الكلام، لأن ذلك يعني أن دورها في الكلام حينئذ سيكون قد جاء. كانت تعلم أنه لم يبق أمامها سوى هذا اليوم فقط كي تخبر «خيرترووديس» بمشكلتها، وعلى الرغم من أنها تموت لهفة للبوح بما لديها لأختها، فقد كانت قلقة بشأن الموقف الذي ستتخذه تلك منها.

لقد وفرت إقامة «خيرترووديس» وفرقتها في البيت حالة هائلة من السلام لـ«تيتا» من دون أن تثقل عليها بالعمل.

فمع كل أولئك الناس في أنحاء البيت والأفنية كافة، كان من المستحيل التحدث إلى «بيدرو»، ناهيك عن إمكانية اللقاء به في الحجرة المظلمة. فكان ذلك يطمئن «تيتا»، لأنها لم تكن مستعدة بعد للتحدث إليه. لأنها تريد، قبل ذلك، أن تدرس الحلول المحتملة لمشكلة حملها، وأن تتخذ قرارًا. فهناك من جهة هي و«بيدرو»، وهناك من جهة أخرى أختها في حالة سيئة تمامًا. «روساورا» بلا شخصية، وأكثر ما يهمها هو الظهور في المجتمع، وما زالت بدينة ونتنة الرائحة. فحتى العلاج الذي أعطتها إياه «تيتا» لم يستطع التخفيف من مشكلتها الحادة. ما الذي يمكن أن يحدث إذا ما هجرها «بيدرو» بسببها؟ كم سيُؤثر ذلك على «روساورا»؟ وماذا سيكون حال «إسبرانثا»؟

ـ لقد ضجرتِ من حديثي. أليس كذلك؟

ـ لم أضجر طبعًا يا «خيرترووديس». لماذا تقولين هذا؟

ـ لا لشيء سوى لأني أرى نظرتك شاردة منذ بعض الوقت. هيا، أخبريني ماذا أصابك؟ الأمر يتعلق بـ«بيدرو»، أليس كذلك؟

ـ أجل.

ـ إذا كنت لا تزالين تحبينه. كيف إذن ستتزوجين من «جون»؟

ـ لن أتزوج منه، لا أستطيع ذلك.

عانقت «تيتا» «خيرترووديس» وبكت على كتفها بصمت.

داعبت «خيرترووديس» شعر أختها بحنان، ولكن من دون أن تهمل مراقبة حلوى «التوريخاس» التي كانت على النار. سيكون محزنًا ألا تتمكن من تناولها. وحين بدت الحلوى على وشك الاحتراق، أزاحت «تيتا» جانبًا وقالت لها بعذوبة:

ـ دعيني فقط أرفع هذا عن النار وتتابعي بعد ذلك البكاء، ما رأيك؟

لم يسبب ذلك لـ«تيتا» إلا الضحك، وهي ترى في تلك اللحظات أن «خيرترووديس» قلقة على مستقبل «التوريخاس» أكثر من قلقها على مستقبلها. وقد كان تصرفها مفهومًا بالطبع، فـ«خيرترووديس» تجهل، من جهة، خطورة مشكلة أختها، ومن جهة أخرى لديها رغبة كبيرة في تناول «التوريخاس».

وبينما «تيتا» تمسح دموعها، قامت بنفسها برفع القدر عن النار، لأن «خيرترووديس» أحرقت يدها وهي تحاول عمل ذلك.

عندما تبرد القشدة المحلاة، تقطَّع إلى مربعات صغيرة، بحجم لا يجعلها قابلة للكسر. يخفق بياض البيضات الست كي تغمس فيه مربعات القشدة، وبعد ذلك تُقلى في الزيت. وأخيرًا تلقى في القَطر وتنثر عليها القرفة المطحونة.

وبينما تركتا القشدة لتبرد من أجل التمكن من التحكم

بإمساكها فيما بعد، اعترفت «تيتا» لـ«خيرترووديس» بكل مشاكلها. أرتها في البدء انتفاخ بطنها، وكيف أن فساتينها وتنانيرها قد ضاقت عليها. ثم أخبرتها كيف أنها تشعر عند استيقاظها في الصباح بدوار وغثيان. وكيف أن صدرها يؤلمها كثيرًا ولا تطيق أن يلمسها أحد. وأخيرًا، وكمن لا يرغب في الأمر، قالت لها إن ذلك ربما يكون... من يدري؟... من المحتمل جدًّا، لأنها حبلى قليلًا. استمعت إليها «خيرترووديس» بهدوء ومن دون أن تتأثر في أي لحظة. فقد رأت في الثورة وسمعت أشياء أسوأ بكثير من هذه.

ـ أخبريني، هل تعلم «روساورا» بالأمر؟

ـ لا، ولا أعرف ما الذي ستفعله إذا عرفت الحقيقة.

ـ الحقيقة! الحقيقة! انظري يا «تيتا»، الحقيقة الخالصة لا وجود لها في الحقيقة، إنها تعتمد على وجهة نظر كل شخص. فالحقيقة في حالتك، على سبيل المثال، يمكن أن تكون أن «روساورا» قد تزوجت من «بيدرو»، بخبث، من دون أن تهتم لحظة بأنكما متحابان حبًّا حقيقيًّا، أليس حقيقيًّا أنني لا أكذب؟

ـ أجل. ولكن القضية أنها هي الزوجة الآن، ولست أنا.

ـ وما أهمية ذلك! هل غيَّر ذلك الزفاف شيئًا مما كان «بيدرو» وأنتِ تشعران به حقًّا؟

ـ لا.

ـ أليس حقًّا لا؟ طبعًا! لأن هذا هو أحد أكثر الحقائق التي رأيتها في حياتي حقيقية. وقد ارتكبتِ أنت و«بيدرو» الخطأ بكتم الحقيقة، ولكن الوقت لم يفتكما بعد. انظري، لقد ماتت ماما،

وحقيقة الرب أنها لم تكن تتفهم أسبابًا، لكن الأمر مختلف مع «روساورا»، فهي تعرف الحقيقة جيدًا ويجب أن تتفهمها، بل وأكثر من ذلك، أظن أنها كانت في أعماقها تتفهمها على الدوام. وهكذا لم يبق أمامكما سوى إنجاز حقيقتكما، ونقطة على السطر.

ـ أتنصحينني إذن بالتحدث إليها؟

ـ انظري، فيما أقوله لك، ما كنت سأفعله لو كنت مكانك، لماذا لا تبدئين بتهيئة القطر من أجل «التوريخاس»؟ أقول هذا، كي أستعجل الأمر، لأن الوقت في الحقيقة آخذ بالمضي.

وافقت «تيتا» على الاقتراح وبدأت في تحضير القطر، من دون أن تضيع أي تفصيل من كلمات أختها. كانت «خيرترووديس» تجلس قبالة باب المطبخ المؤدي إلى الفناء الخلفي، أما «تيتا» فكانت على الجانب الآخر من المنضدة وظهرها للباب، وكان مستحيلًا عليها رؤية «بيدرو» آتيًا باتجاه المطبخ حاملًا كيس فاصوليا لإطعام فرقة الجند. عندئذ قدَّرت «خيرترووديس» إستراتيجيًّا، من خلال ممارستها الكبيرة في ميدان المعركة، الزمن الذي سيستغرقه «بيدرو» لاجتياز عتبة الباب، لتوجه في تلك اللحظة الحاسمة كلماتها إلى أختها:

ـ . . . وأظن في هذه الحالة أنه سيكون من الجيد أن يعلم «بيدرو» أنك تنتظرين ابنًا منه.

لقد أصابت الهدف بنجاح كبير! فقد أفلت «بيدرو» الكيس، مصعوقًا، وتركه يسقط على الأرض. كان يموت حبًّا بـ«تيتا». والتفتت هذه مذعورة واكتشفت وجود «بيدرو» ينظر إليها متأثرًا إلى حدِّ البكاء.

ـ «بيدرو»! يا لمصادفة مجيئك! لدى أختي ما تقوله لك، لماذا لا تذهبان إلى البستان لتتحدثا، وسأكمل أنا تحضير القطر؟

لم تدرِ «تيتا» إن كان عليها أن تؤنب تدخل «خيرترووديس» أم تشكرها عليه؟ ستتحدث إليها فيما بعد، أما الآن فلم يعد أمامها سوى الذهاب للتحدث مع «بيدرو». وبصمت، أعطت «تيتا» لـ«خيرترووديس» الإناء الذي كان بين يديها حيث بدأت تحضر فيه القطر، ثم أخرجت من درج المنضدة ورقة مجعدة عليها وصفة القطر مكتوبة وتركتها لـ«خيرترووديس» تحسبًا لاحتياجها إليها. وخرجت من المطبخ يتبعها «بيدرو».

لقد كانت «خيرترووديس» بحاجة، طبعًا، للوصفة المكتوبة، فمن دونها ستكون عاجزة عن عمل أي شيء! بدأت تقرأها بإمعان وتحاول اتباع خطواتها: يخفق بياض بيضة في نصف «كوارتييو» ماء لكل رطلين من السكر، وبياض بيضتين في «كوارتييو» ماء من أجل خمسة أرطال سكر، وبالنسبة نفسها من أجل كمية أكبر أو أقل. يُغلى القطر إلى أن يفور ثلاث مرات، ويُهدَّأ الغليان بقليل من الماء البارد يضاف عند كل فوران. وبعدئذ يُرفع عن النار ويترك ليبرد وتُزال رغوته، يضاف إليه بعد ذلك قليل من الماء مع قطعة قشر برتقال وبانسون وقرنفل، حسب الرغبة، ويترك ليغلي. تُزال رغوته مرة أخرى، وعندما يصل إلى درجة الطهو المسماة حد التكور، يُصفى في مصفاة أو قطعة قماش مشدودة على إطار. كانت «خيرترووديس» تقرأ الوصفة وكأنها تقرأ كتابة هيروغليفية. لم تفهم ما تعنيه كمية السكر عند القول خمسة أرطال، ولا ما يعنيه «كوارتييو»، وأقل من ذلك بكثير كان فهمها لما هو حدُّ التكور.

فما تحول في الحقيقة إلى تكور إنما هي نفسها! خرجت إلى الفناء لتطلب المساعدة من «تشينتشا».

كانت «تشينتشا» تنهي توزيع الفاصوليا على أفراد تلك الأخوية في خامس جماعة على مائدة الفطور، وهي آخر جماعة عليها خدمتها، ولكنها ما إن تنتهي من تقديم الفطور لهذه الجماعة حتى يكون عليها البدء بإعداد المائدة للوجبة التالية، كي يتمكن الثوار الذين ابتلعوا طعامهم المقدس على مائدة الفطور الأولى من الانتقال إلى تناول وجبة الغداء، وهكذا على التوالي، إلى أن تنتهي من خدمة مائدة العشاء الأخيرة في الساعة العاشرة ليلًا. ولهذا كان مفهومًا بكل وضوح أنها في منتهى العنف والنزق ضد كل من يقترب ليطلب منها القيام بعمل إضافي. ولم تكن «خيرترووديس» استثناء مهما كانت أهمية «جنراليتها». رفضت «تشينتشا» رفضًا قاطعًا أن تقدم لها المساعدة. فهي ليست عضوًا من جيشها، وليس لديها ما يجبرها على طاعتها طاعة عمياء كما يفعل جميع الرجال الذين هم تحت إمرتها.

حاولت «خيرترووديس» اللجوء إلى أختها، ولكن حسها السليم منعها من ذلك. لا يمكن لها بأي حال أن تقطع حديث «تيتا» و«بيدرو» في تلك اللحظات التي ربما تكون أشد لحظات حياتهما مصيرية.

كانت «تيتا» تسير بتمهل بين أشجار الفاكهة في البستان، وكانت رائحة زهر البرتقال تختلط بعبق الياسمين الذي يميز رائحة جسدها. وكان «بيدرو»، إلى جوارها، يمسك ذراعها برقة غير متناهية.

ـ لماذا لم تخبريني بذلك؟

ـ لأنني كنت أريد اتخاذ قرار أولًا.

ـ وهل اتخذته؟

ـ لا.

ـ أرى أنه من المناسب أن تعلمي، قبل أن تتخذي القرار، أن إنجابي ابنًا منك هو أعظم سعادة يمكنني بلوغها، ولكي أستمتع بها كما يجب أرغب في أن نذهب بعيدًا جدًّا عن هذا المكان.

ـ لا يمكننا أن نفكر في نفسينا وحسب، هنالك في هذا العالم «روساورا» و«إسبرانثا»، ماذا سيحل بهما؟

لم يستطع «بيدرو» الرد. لم يكن قد فكر فيهما حتى الآن، والحقيقة أنه لم يكن يرغب في إيذائهما ولا في التخلي عن رؤية ابنته الصغيرة. يجب أن يكون هنالك حل لمصلحة الجميع، وعليه هو أن يجده. لقد كان واثقًا من أمر واحد على الأقل: «تيتا» لن تغادر المزرعة مع «جون براون».

استثار حذرهما صوتٌ وراءهما. هنالك من يمشي خلفهما، أفلت «بيدرو» ذراع «تيتا» على الفور والتفت برأسه خفية ليرى من هناك. إنه «بولكيه»، فقد ملَّ الكلب من سماع صرخات «خيرترورديس» في المطبخ وخرج بحثًا عن مكان أفضل ينام فيه. ولكنهما قررا على كل حال أن يؤجلا حديثهما إلى وقت آخر. فهنالك أناس كثيرون في كل أرجاء البيت ومن المجازفة الحديث في هذه الأمور بالغة الخصوصية.

وفي المطبخ، لم تتوصل «خيرترووديس» إلى جعل الرقيب «تريبينيو» يُعدُّ القطر كما ترغب، على الرغم من الأوامر التي كانت توجهها إليه. أحست بالندم لأنها وضعت ثقتها في «تريبينيو» في مهمة على ذلك القَدر من الأهمية. فما جرى هو أن «خيرترووديس»، بعد أن سألت مجموعة من الثوار عمن يعرف منهم ما الذي يعنيه «رطل» وأجابها هو بسرعة أن الرطل يساوي ٤٦٠ جرامًا وأن «الكوارتييو» يعني ربع لتر، ظنتْ أنه يعرف كثيرًا في شؤون المطبخ، ولم يكن كذلك في الواقع.

والحقيقة أن تلك هي المرة الأولى التي يخطئ فيها «تريبينيو» في أمر تكلفه به. تتذكر أنه كان عليها ذات يوم أن تكتشف جاسوسًا تسلل إلى صفوف الفرقة.

وكانت جندية، هي عشيقته، قد علمت بنشاطاته فعمد عندئذ إلى إطلاق الرصاص عليها من دون رحمة قبل أن تشي به. كانت «خيرترووديس» عائدة من الاستحمام في النهر ووجدتها تحتضر. وقد تمكنت الجندية من إعطائها علامة للتعرف عليه. فللخائن شامة حمراء لها شكل عنكبوت بين فخذيه.

لم يكن بإمكان «خيرترووديس» أن تقوم بفحص جميع الرجال، ففضلًا عن أن ذلك سيعرضها لتأويلات خبيثة، فإنه يمكن للخائن أن يرتاب في الأمر ويهرب قبل أن يجدوه. عندئذ كلفت «تريبينيو» بالمهمة. لم تكن المهمة بالنسبة إليه سهلة أيضًا. فما كان يمكن أن يُظن به سيكون أسوأ مما يمكن أن يُظن بـ«خيرترووديس» إذا ما راح يفتش ما بين فخذي كل رجل في الفرقة. حينئذ انتظر «تريبينيو» بصبر حتى الوصول إلى «سالتيُو».

وفور دخولهم إلى المدينة انهمك بمهمة الطواف على كل المقاهي الموجودة فيها، والتودد إلى جميع الرعاع في كل منها مستغلًا في ذلك فنونًا لا حصر لها. ولكن الفن الأساسي الذي استخدمه «تريبينيو» هو معاملتهم كسادة محترمين، وجعلهم يشعرون بأنهم ملوك. لقد كان مهذبًا ولطيفًا معهم. لم يكن هنالك واحد منهم إلا ويقع في حبائله ويبدي استعداده للعمل من أجل القضية الثورية.

وبهذه الطريقة، لم يكن بحاجة إلى أكثر من ثلاثة أيام للوصول إلى الخائن ونصب كمين له بتواطؤ أصدقائه المبتذلين. فقد دخل الخائن إلى حجرة مع شقراء أُكسجينية تدعى «لارونكا». ووراء الباب كان «تريبينيو» بانتظاره.

أغلق هذا الأخير الباب بركلة، وفي حفلة عنف لم يُعرف لها مثيل قتل الخائن ضربًا. وبعد أن فارق الحياة طعنه بسكين.

عندما سألته «خيرترووديس»: لماذا قتلته بكل تلك الضراوة وليس بإطلاق رصاصة عليه ببساطة؟ أجابها بأنه كان فعل ثأر. فمنذ زمن قام رجل له بين فخذيه شامة على شكل عنكبوت باغتصاب أمه وأخته. وهذه الأخيرة هي من اعترفت له بذلك قبل موتها. لقد غسل بهذه الطريقة عار أسرته. كان ذلك هو التصرف الوحشي الوحيد الذي قام به «تريبينيو» في حياته، وباستثناء ذلك كان الشخص الأكثر تهذبًا وتأنقًا حتى في القتل. فهو يفعل ذلك على الدوام باعتزاز كبير بالنفس. ومنذ إلقاء القبض على الجاسوس شاعت شهرة «تريبينيو» كزير نساء متماد، وهو ما لم يكن بعيدًا جدًا عن الحقيقة، إلا أن حب حياته على الدوام كانت

«خيرترووديس». وقد حاول طوال سنوات نيل حبها من دون جدوى، ولكن من دون أن يفقد الأمل كذلك. إلى أن التقت «خيرترووديس» مجددًا بـ«خوان». عندئذ أدرك أنه قد فقدها إلى الأبد. وهو يقوم الآن على خدمتها مثل كلب حراسة، يحمي ظهرها، من دون أن يبتعد عنها ثانية واحدة.

كان أحد أفضل جنودها في ميدان المعركة، ولكنه في المطبخ لا يصلح لعمل أي شيء. ومع ذلك كانت «خيرترووديس» ستشعر بالأسى لو أنها طردته من المطبخ، لأن «تريبينيو» عاطفي جدًّا، وكلما أنبته على أمر ينغمس في الشرب. هكذا لم يكن يبقى لها من خيار سوى تقبُّل خطئها في الاختيار ومحاولة أن يتم كل شيء بأفضل ما يمكن. قرأ كلاهما الوصفة خطوة خطوة بانتباه في محاولة لترجمتها:

إذا ما أُريد للقطر أن يكون أكثر نقاء، كما في حالة استخدامه في تحلية «الليكور»، يتم بعد العمليات المذكورة سابقًا إمالة القدر أو الإناء الذي يحتويه، ويترك ليترسب ويصفى، أو بعبارة أخرى: يفصل القطر عن الرواسب بأخف حركة ممكنة.

لم يكن في الوصفة شرح لما يعنيه بلوغ حد التكور، وهكذا أمرت «خيرترووديس» الرقيب بأن يبحث عن الجواب في كتاب طبخ ضخم كان موضوعًا فوق خزانة الأواني.

بذل «تريبينيو» جهدًا ليجد المعلومة المطلوبة، ولأنه يكاد لا يتقن القراءة إلا بصعوبة، فقد راح يمر بإصبعه على كلمات

الكتاب ببطء، أمام نفاد صبر «خيرترووديس»:

يمكن التمييز بين درجات متعددة لطهو القطر: قطر ناعم، وقطر عالي النعومة، وقطر لؤلؤي، وقطر عالي اللؤلؤية، وقطر منتفخ، وقطر درجة الريشة، وقطر مضبوط، وقطر كرميلا، وقطر عند حد التكور...

ـ أخيرًا! ها هو قطر التكور يا «جنرالتي»!

ـ لِنَر، هات هنا! لقد أصبتني باليأس.

قرأت «خيرترووديس» للرقيب التعليمات بتدفق وبصوت عال.

ـ «من أجل معرفة إن كان القطر قد وصل إلى هذه الدرجة، تبلل الأصابع في دلو أو إبريق ماء بارد ويمسك بها القطر، ثم يعاد وضعها سريعًا في الماء. فإذا شكَّل القطر كرة لدى تبريده وصار له ملمس العجين، فهذا يعني أنه قد طهي إلى درجة أو نقطة التكور». هل فهمت؟

ـ أجل، أظن أنني فهمت يا «جنرالتي».

ـ هذا أفضل لك لأنك إن لم تفهم فأقسم بأنني سآمر بإعدامك رميًا بالرصاص!

توصلت «خيرترووديس» أخيرًا إلى جمع كل المعلومات التي بحثت عنها، ولم يعد ينقصها الآن سوى أن يُعدَّ الرقيب القطر جيدًا، وتتمكن أخيرًا من تحقيق لهفتها إلى تناول «التوريخاس» المنشودة.

أما «تريبينيو»، وبوضعه نصب عينيه التهديد الذي يثقل على

رأسه إذا هو لم يطهُ بصورة صائبة لقائدته، فقد أنجز مهمته على أحسن وجه على الرغم من انعدام خبرته.

احتفى الجميع بنجاحه كثيرًا. وكان «تريبينيو» بمنتهى السعادة. وقد حمل بنفسه إلى «تيتا» في حجرتها قرص «توريخاس» أرسلته إليها «خيرترورديس» كي تصادق على حسن صنعه. لم تكن «تيتا» قد نزلت لتناول الغداء، وأمضت فترة ما بعد الظهر كلها في السرير. دخل «تريبينيو» إلى الحجرة ووضع لها الطبق على منضدة صغيرة تستخدمها «تيتا» لهذا الغرض تحديدًا عندما ترغب في تناول طعامها هناك وليس في قاعة الطعام. شكرته كثيرًا لاهتمامه وهنأته، لأن أقراص «التوريخاس» لذيذة بالفعل. أعرب «تريبينيو» عن أسفه لتوعك «تيتا» لأنه كان يود أن يطلب منها أن تمنحه سعادة مرافقتها في رقص إحدى المعزوفات خلال الحفل الراقص الذي سيقام لوداع «الجنرالة خيرترورديس». وعدته «تيتا» بأنها ستكون سعيدة بالرقص معه إذا ما استطاعت النزول إلى الحفلة. انسحب «تريبينيو» سريعًا ليخبر جنود الفرقة بفخر بما قالته له «تيتا».

ما إن خرج الرقيب حتى اضطجعت «تيتا» مجددًا في السرير، لم تكن تشعر بأي رغبة في التحرك من هناك، فانتفاخ بطنها لا يتيح لها البقاء جالسة لوقت طويل.

فكرت «تيتا» في عدد المرات التي عملت فيها على إنبات حبوب قمح وفاصوليا وبرسيم وبذور أو حبوب أخرى، من دون أن تكون لديها فكرة عما تشعر به تلك البذور حين تنمو وتتبدل بصورة جذرية. إنها تقدر الآن الاستعداد الذي تفتح به

بذور قشرتها وتسمح للماء بأن يتغلغل فيها بحرية، إلى أن يفلقها من أجل فتح طريق للحياة. بأي زهو تفتح البذور المجال ليخرج من داخلها أول طرف للجذر، وبأي تواضع تفقد شكلها السابق، بأي رشاقة تكشف للعالم أوراقها. «تيتا» تود بافتتان أن تكون مجرد بذرة، وألا تلفت اهتمام أحد بما يعتمل بداخلها، وأن يكون بمقدورها أن تكشف للعالم نمو بطنها من دون أن تتعرض لاستنكار المجتمع. لا وجود لدى البذور لمثل هذا النوع من المشاكل، وليس لديها، بصورة خاصة، أمٌّ تخشاها، ولا خوف من أن يحاكموها. حسن، ليس لدى «تيتا» أيضًا أمٌّ بالمعنى المادي، ولكنها ما زالت غير قادرة على أن تزيح عن كاهلها الإحساس بأن عقابًا عظيمًا سيحل بها بين لحظة وأخرى، من عالم الغيب، بإشراف ماما «إيلينا». إنه إحساس مألوف جدًّا لديها: تربط بينه وبين الخوف الذي تشعر به في الطبخ عندما لا تتقيد بحذافير الوصفات تمامًا. لقد كانت تفعل ذلك دائمًا وهي على يقين من أن ماما «إيلينا» ستكتشفها، وأنها بدلًا من أن تحتفي بإبداعها ستؤنبها بشدة لعدم احترامها القواعد. لكنها لم تكن قادرة على تفادي الرغبة في انتهاك الصيغ المتيبسة التي تريد أمها فرضها في المطبخ... والحياة.

ظلت تستريح لوقت لا بأس به وهي مستلقية على السرير، ولم تنهض إلا عندما سمعت «بيدرو» يغني أغنية حب تحت نافذتها. وبقفزة واحدة وصلت «تيتا» إلى النافذة وفتحتها. كيف يمكن أن تخطر لـ«بيدرو» مثل تلك الجرأة! وما إن رأته حتى

عرفت السبب. لقد كان يبدو عن بُعد فراسخ أنه مخمور جدًّا، وإلى جانبه كان «خوان» يرافقه على الجيتار.

شعرت «تيتا» بذعر شديد، ليت «روساورا» تكون نائمة، وإلا يا للمشكلة التي ستُثيرها!

دخلت ماما «إيلينا» غاضبة إلى الحجرة وقالت لها:

ـ أترين ما تتسببين فيه؟ أنت و«بيدرو» شخصان عديمَا الحياء. إذا كنت لا تريدين للدم أن يراق في هذا البيت، فانصرفي إلى حيث لا يمكنك إلحاق الأذى بأحد، قبل أن يفوت الأوان.

ـ من عليها أن تنصرف هي أنت. لقد سئمت من تعذيبك لي. اتركيني بسلام مرة وإلى الأبد!

ـ لن أفعل إلى أن تتصرفي كامرأة صالحة، أي أن تتصرفي بطريقة محترمة!

ـ وما هو التصرف بطريقة محترمة؟ أهو ما كنت تفعلينه أنت؟

ـ أجل.

ـ إنه ما أفعله! أم إنك لم تنجبي ابنة غير شرعية؟

ـ إنك تحكمين على نفسك باللعنة الأبدية لأنك تكلمينني بهذه الطريقة!

ـ ليس أكثر من اللعنة التي أنت فيها!

ـ اخرسي! من تظنين نفسك؟

ـ أظن أنني من أنا عليه! إنسانة لها كل الحق في أن تعيش

الحياة على أفضل نحو يبدو لها. دعيني وشأني مرة وإلى الأبد، لم أعد قادرة على تحملك! بل أكثر من ذلك! إنني أكرهك وكنت أكرهك على الدوام!

تلفظت «تيتا» بكلمات سحرية كي تختفي ماما «إيلينا» إلى الأبد. فبدأت هيئة أمها المهيمنة تتضاءل إلى أن تحولت إلى نقطة ضوء صغير جدًّا. وكلما كان شبحها يتلاشى كانت الراحة تنمو متعاظمة في جسد «تيتا». بدأ انتفاخ بطنها وألم نهديها بالتراجع. تراخت عضلات منتصف بدنها مفسحة المجال لخروج دماء حيضها باندفاع.

خفف من آلامها ذلك التفريغ المكبوح منذ أيام طويلة. تنفست بعمق واطمئنان. لم تكن حبلى.

ولكن مشاكلها لم تنته بذلك. فالضوء الضئيل الذي اختُزلت إليه هيئة ماما «إيلينا» بدأ يدور بسرعة.

اخترق زجاج النافذة وخرج مندفعًا نحو الفناء، مثل لعبة نارية منفلتة أصابها الجنون. لم ينتبه «بيدرو»، في سكرته، إلى الخطر. كان يغني بسعادة كبيرة، تحت نافذة «تيتا»، أغنية «مانويل م. بونثي» «نجمتي الصغيرة»، محاطًا بثوار سكارى مثله. لم تشم «خيرترووديس» وكذلك «خوان» رائحة النكبة. كانا يرقصان مثل مراهقين عاشقين حديثًا تحت ضوء أحد مصابيح الزيت الموزعة في أنحاء الفناء لإضاءة الحفلة. وفجأة، اقتربت اللعبة النارية من «بيدرو» وهي تدور بسرعة تبعث على الدوار، وبغضب جعل أقرب مصباح منه يتفجر فتاتًا. ونثر النفطُ اللهبَ بسرعة هائلة على وجه «بيدرو» وجسده.

كانت «تيتا» تنهي اتخاذ الإجراءات المطلوبة لاستقبال طمثها، وسمعت الضجة التي أثارها حادث «بيدرو». سارعت بالوصول إلى النافذة، فتحتها ورأت «بيدرو» يجري في أنحاء الفناء وقد تحول إلى شعلة بشرية. عندئذ لحقت به «خيرترووديس»، ونزعت عنها بقوة تنورة فستانها وغطت بها «بيدرو» وهي تطرحه أرضًا.

لم تدرِ «تيتا» كيف نزلت الأدراج، ولكنها وصلت إلى جوار «بيدرو» خلال عشرين ثانية. وكانت «خيرترووديس» تخلع عنه في تلك اللحظة ملابسه التي يتصاعد منها الدخان. كان «بيدرو» يولول من الألم. وكانت هناك حروق في كل أنحاء جسده. تعاون عدة رجال على حمله بحذر لنقله إلى حجرته. أمسكت «تيتا» بيد «بيدرو» الوحيدة التي لم تصبها الحروق ولم تبتعد عنه. وبينما هم يصعدون الدرج، فتحت «روساورا» باب حجرتها.

فقد شمت على الفور رائحة ريشٍ محروق نفاذة. فاقتربت من الدرج تريد النزول لترى ما الذي يجري، وهناك التقت مواجهة مع الجماعة التي تحمل «بيدرو» يلفه الدخان. وكانت «تيتا» إلى جانبه تبكي بحرقة. أول رد فعل قامت به «روساورا» كان الركض لمساعدة زوجها. حاولت «تيتا» ترك يد «بيدرو» لتتيح لـ«روساورا» الاقتراب منه، لكن «بيدرو»، صرخ وسط أنينه، متوجهًا إليها أول مرة من دون كلفة:

ـ لا تذهبي يا «تيتا»، لا تتركيني.

ـ لا يا «بيدرو»، لن أتركك.

تناولت «تيتا» يد «بيدرو» من جديد. تبادلت «روساورا»

و«تيتا» النظرات بتحدٍّ لحظة. عندئذ أدركت «روساورا» أنه ليس لديها ما تفعله هناك، فدخلت إلى حجرتها وأغلقتها بالمفتاح. ولم تخرج من هناك طوال أسبوع.

ولأن «تيتا» لم تستطع ولم تشأ الابتعاد عن «بيدرو»، أمرت «تشينتشا» بأن تأتيها بزلال بيض مخفوق مع زيت وكمية جيدة من البطاطس النيئة والمهروسة جيدًا. وكانت تلك هي أفضل طريقة تعرفها من أساليب علاج الحروق. يطلى الجزء المصاب بزلال البيض باستخدام ريشة ناعمة، وتكرر العملية كلما جف الطلاء. ويجب أن توضع بعد ذلك لبخة من البطاطس المهروسة لتخفيف الالتهاب وتهدئة الألم.

أمضت «تيتا» الليل كله وهي تعالجه بتلك العلاجات البيتية.

وبينما هي تضع له لبخة البطاطس، كانت تتأمل وجه «بيدرو» المحبوب. لم يبق أي أثر من حاجبيه الكثيفين ورموشه الطويلة. والذقن المربعة صار شكلها الآن بيضويًا بسبب التورم. لم يكن يهم «تيتا» أن تظل فيه بعض آثار الندوب، ولكن ربما كان ذلك يقلق «بيدرو». ماذا تضع له لتفادي بقاء أية ندوب؟ قدمت لها «ناتشا» الجواب الذي كانت «نور الفجر» بدورها قد قدمته إليها: أفضل علاج لهذه الحالات هو أن تضع لـ«بيدرو» لحاء شجرة «التيثكويتيه». خرجت «تيتا» راكضة إلى الفناء، ومن دون أن تبالي بأن الليل قد تقدم كثيرًا، أيقظت «نيكولاس» وأمرته بالحصول على لحاء تلك الشجرة، من أفضل ساحر في المنطقة. وقرابة الفجر كانت قد تمكنت من تسكين آلام «بيدرو» قليلًا، وجعله ينام هنيهات. فاستغلت ذلك في الخروج لوداع

«خيرترووديس»، فقد كانت تسمع منذ بعض الوقت وقع خطوات جنود فرقتها وأصواتهم وهم يجهزون الخيول للانسحاب.

تبادلت «خيرترووديس» الحديث طويلًا مع «تيتا»، وأبدت أسفها لعدم قدرتها على البقاء لمساعدتها في المحنة، ولكن الأوامر قد وصلتها لمهاجمة بلدة «ثاكاتيكاس». شكرتها «خيرترووديس» على اللحظات السعيدة التي أمضتها بجوارها، ونصحتها بعدم التخلي عن الصراع من أجل «بيدرو»، وقبل أن تودعها قدمت إليها وصفة تستخدمها الجنديات لمنع الحبل: بعد كل علاقة حميمة يقمن بعملية غسل بماء مغلي مع بضع قطرات خل. اقترب «خوان» منهما وقطع المحادثة ليخبر «خيرترووديس» بأن ساعة الرحيل قد أزفت.

عانق «خوان» «تيتا» بشدة وبعث لـ«بيدرو»، من خلالها، بأفضل تمنياته له بالشفاء. تعانقت «تيتا» و«خيرترووديس» بتأثر. ثم امتطت «خيرترووديس» حصانها ومضت. لم تكن تمتطي الحصان وحدها، بل كانت تحمل إلى جانبها، في الخرج، طفولتها محبوسة في برطمان من حلوى «توريخاس» بالقشدة.

رأتهم «تيتا» يغادرون والدموع في عينيها. وكذلك «تشينتشا»، ولكن دموعها، خلافًا لـ«تيتا»، كانت دموع السعادة. فقد صار بإمكانها أخيرًا أن تستريح!

وعندما همَّت «تيتا» بالدخول إلى البيت من جديد سمعت صرخة أطلقتها «تشينتشا»:

ـ غير ممكن! إنهم يرجعون.

بالفعل، بدا كما لو أن أحدًا من الفرقة يعود إلى المزرعة،

إنما لم يكن ممكنًا رؤية من يكون بسبب سحابة الغبار التي تثيرها الخيول في انسحابها.

وبإمعانهما النظر، تعرفتا بسعادة على عربة «جون» آتية. ها هو يعود. ولدى رؤيته أحست «تيتا» بارتباك كامل. لم تعد تدري ماذا ستفعل وما الذي ستقول له. فرؤيته تمنحها بهجة عظيمة من جهة، ومن جهة أخرى، تشعر باستياء كبير لأنها مضطرة إلى فسخ خطوبتها به. وصل «جون» وتقدم نحوها بباقة ورد كبيرة. عانقها متأثرًا وحين قبَّلها تنبه إلى أن شيئًا في أعماق «تيتا» قد تغير.

يتبع...

الوصفة التالية: فاصوليا عريضة بالفلفل على الطريقة «التيكوكانية»

١١

نوفمبر

فاصوليا عريضة بالفلفل على الطريقة «التيئكوكانية»

المُكونات:

فاصوليا عريضة
لحم خنزير
شحم
فلفل أحمر عريض
بصل
جبن مبشور
خس
أفوكادو
فجل
فلفل «تورناتشيلي»
زيتون

طريقة التحضير

يجب أن تسلق الفاصوليا أولًا مع ملح «تيكيسكيتيه»[٧]، ثم توضع، بعد غسلها، لتُطهى مجددًا مع قطع من لحم الخنزير والشحم.

كان وضع الفاصوليا لتُسلق هو أول ما فعلته «تيتا» لدى استيقاظها في الخامسة صباحًا.

لقد دعت اليوم إلى الغداء «جون» وعمته «ماري» التي جاءت من بنسلفانيا من أجل حضور حفل زفاف «تيتا» و«جون». كانت العمة «ماري» متلهفة للتعرف على خطيبة ابن أخيها المفضل، ولكنها لم تستطع المجيء حتى الآن لأن مجيئها سيبدو غير مناسب بسبب ظروف «بيدرو» الصحية. انتظرا أسبوعًا ريثما تتحسن حالته كي يقوما بزيارة رسمية. كانت «تيتا» مغمومة جدًّا لعدم قدرتها على إلغاء ذلك التعارف، لأن عمة «جون» في

---

(٧) ملح صخري طبيعي يستخدم في المكسيك ويضم كيميائيًّا عدة عناصر ملحية تتبدل حسب المنطقة التي يستخرج منها. (المترجم).

الثمانين من عمرها وقد جاءت من بعيد جدًّا لمجرد رغبتها في التعرف عليها. وتقديم وجبة جيدة للعمة «ماري» هو أقل ما يمكن لـ«تيتا» أن تفعله للعجوز العذبة و«جون»، ولكن ليس لديها ما تقدمه إليهما سوى خبر أنها لن تتزوج من «جون»! كانت تشعر بأنها خاوية تمامًا، مثل صينية لم يبق فيها سوى فتات مما كان قالب حلوى بديعًا. بحثت في مستودع المؤن عما هو متوفر من أغذية، ولكن المستودع كان يتألق بخوائه التام. الحقيقة أنه لم يكن لديها أي شيء. لقد اكتسحت زيارة «خيرترووديس» للمزرعة المخزون كله. والشيء الوحيد المتبقي في مستودع الحبوب، فضلًا عن الذرة التي يمكن أن تصنع منها أقراص عجة لذيذة، هو الأرز والفاصوليا. ولكن يمكن للنية الطيبة والمخيلة أن تُحضِّرا منها وجبة محترمة. فقائمة طعام مكونة من أرز مع موزٍ «ماتشو» وفاصوليا على الطريقة «التيثكوكانية» لن تضعها في موقف سيئ بأي حال.

وبما أن الفاصوليا لم تكن طازجة جدًّا كما في مناسبات أخرى، وتخوفًا من أن يستغرق نضجها وقتًا أطول مما هو معهود، عمدت إلى وضعها على النار باكرًا، وبينما هذه تنضج، انهمكت في نزع عروق الفلفل الأحمر العريض وبذوره.

بعد نزع عروق الفلفل، يُنقع في ماء ساخن ثم يطحن أخيرًا.

ما إن تركت الفلفل منقوعًا، حتى بادرت على الفور إلى إعداد الفطور لـ«بيدرو» وحملته إليه في حجرته.

كان قد شفي إلى حد كبير من حروقه. فـ«تيتا» لم تتوقف لحظة واحدة عن علاجها بلحاء شجر «التيثكويتيه»، وتفادت

بذلك بقاء أي ندوب في جسد «بيدرو». وقد صادق «جون» على العلاج بالكامل. والمثير للفضول أنه هو بنفسه كان يواصل التجارب منذ بعض الوقت على استخدام لحاء تلك الأشجار التي كانت قد بدأت باستخدامها جدته «نور الفجر». كان «بيدرو» ينتظر مجيء «تيتا» بلهفة. ففضلًا عن المأكولات الشهية التي تحملها إليه يوميًّا، هنالك مظهر كاشف آخر أثَّر في سرعة شفائه المذهلة: الأحاديث التي كان يتبادلها معها بعد تناوله الأطعمة. ولكن ليس لدى «تيتا» هذا الصباح متسع من الوقت تكرسه له، لأنها تريد تحضير الطعام لـ«جون» بأفضل ما يمكن. غير أن «بيدرو» انفجر بالغيرة، وقال لها:

ـ ما كان عليك أن تفعليه بدلًا من دعوته إلى الطعام، هو أن تخبريه مرة واحدة وإلى الأبد أنك لن تتزوجي منه، لأنك تنتظرين ابنًا مني.

ـ لا أستطيع أن أخبره بذلك يا «بيدرو».

ـ ماذا؟ أتخافين جرح مشاعر الدكتور العزيز؟

ـ ليست مسألة خوف، وإنما لن يكون عدلًا معاملة «جون» بهذه الطريقة، فهو جدير بكل احترامي وعليَّ أن أنتظر أفضل لحظة مناسبة لأتحدث إليه.

ـ إذا لم تفعلي ذلك أنت، سأفعله أنا نفسي.

ـ لا، لن تقول له شيئًا؛ أولًا لأنني لن أسمح لك، وثانيًا لأني غير حبلى.

ـ ماذا؟ ما الذي تقولينه؟ .

ـ ما كنت أظنه حملًا لم يكن سوى حالة اختلال فقط، ولكنني عدت إلى حالتي الطبيعية.

ـ هكذا إذًا؟ الآن بدأت أفهم تمامًا ما حدث لك. لا تريدين التحدث إلى «جون»، لأنك ربما ما زلت مترددة ما إذا كنتِ ستبقين إلى جانبي أم تتزوجين منه. أليس كذلك؟ لم تعودي مرتبطة بي الآن، لأني مجرد مريض مسكين.

لم تفهم «تيتا» تصرف «بيدرو» هذا: بدا كأنه طفل صغير غاضب، يتكلم كما لو أنه سيظل مريضًا طوال ما تبقى من حياته، مع أن حالته لم تكن سيئة إلى ذلك الحد، فهو سيشفى تمامًا بعد وقت قصير. لا شك في أن الحادث الذي تعرض له قد أثر على عقله. ربما امتلأ رأسه بالدخان الذي انبعث من جسده عند احتراقه، وهكذا مثلما يُفسد رغيفُ خبزٍ محروق رائحةَ البيت كله ويحولها إلى رائحة كريهة. يطلق عقل «بيدرو» المدخن هذه الأفكار السوداء ويبدل كلماته اللطيفة المعهودة بأخرى لا تطاق. من غير الممكن أن يرتاب فيها، ولا في أن تكون لديها نية التصرف خلافًا لما كان على الدوام سمة مميزة لسلوكها مع الآخرين: الوقار.

خرجت من الحجرة منزعجة جدًّا، وقبل أن تغلق الباب صرخ بها «بيدرو» بأنه لا يريدها أن تأتيه بالطعام مرة أخرى، وأن ترسل «تشينتشا»، كي يتوفر لها ما يكفي من الوقت لرؤية «جون» من دون أي مشكلة.

دخلت «تيتا» إلى المطبخ غاضبة واستعدت لتناول الفطور، لم تكن قد تناولت فطورها مسبقًا لأن اهتمامها الأول كان خدمة

«بيدرو» وبعد ذلك يأتي عملها اليومي، وكل ذلك لماذا؟ من أجل أن يأتيها «بيدرو» برد فعل كالذي صدر عنه ويهينها بكلماته وتصرفاته بدلًا من أن يأخذ ما تفعله بعين الاعتبار. إن «بيدرو» يتحول نهائيًا إلى مسخ أناني وغيور.

أعدت وجبة خفيفة من «التشيلاكيلي» وجلست إلى منضدة المطبخ لتأكلها. لم يكن يروق لها تناول الطعام وحدها، غير أنه لم يعد أمامها في الفترة الأخيرة سوى عمل ذلك، لأن «بيدرو» غير قادر على التحرك من الفراش، و«روساورا» لا تريد الخروج من حجرتها وتظل معتكفة فيها من دون تلقي أي طعام، و«تشينتشا» أخذت بضعة أيام للراحة، بعد أن وضعت طفلها الأول.

وبالتالي لم يكن مذاق «التشيلاكيلي» مثلما هو في مناسبات سابقة أخرى: إنه يفتقد الصحبة. وفجأة سمعتْ وقع خطوات. فُتح باب المطبخ وظهرت «روساورا».

فوجئت «تيتا» حين رأتها. فهي نحيفة مثلما كانت قبل زواجها. كيف يمكن حدوث هذا بعد أسبوع واحد فقط بلا طعام! من شبه المستحيل أن تفقد ثلاثين كيلوجرامًا في سبعة أيام فقط، ولكن هذا ما حدث. وقد حدث لها الشيء نفسه عندما ذهبت للعيش في «سان أنطونيو»: نحفت بسرعة، ولكنها بمجرد رجوعها إلى المزرعة عادت إلى السمنة!

دخلت «روساورا» بتكبر وجلست قبالة «تيتا». لقد حانت ساعة المواجهة مع أختها، ولكن لن تكون «تيتا» هي من يبدأ النزاع. سحبت الطبق، تناولت رشفة من قهوتها، وبدأت تقطع

إلى قطع صغيرة، بكل حرص، حواف أقراص العجة التي استخدمتها في إعداد «التشيلاكيلي».

لقد اعتدن على انتزاع حواف أقراص العجة التي يأكلنها من أجل إلقائها للدجاج. وكن يُفتِّتن لُباب الخبز أيضًا للهدف نفسه. كانت كل من «روساورا» و«تيتا» تنظر بثبات في عيني الأخرى، وظلتا على تلك الحال إلى أن فتحت «روساورا» الجدال:

ـ أظن أن هنالك حديثًا مؤجلًا بيننا، ألا تعتقدين ذلك؟

ـ بلى، هذا ما أظنه. وأظن أنه مؤجل منذ تزوجتِ من خطيبي.

ـ لا بأس، إن كان هذا ما تريدينه، فلنبدأ من هناك. كان لديك خطيب غير شرعي. ولم يكن مناسبًا لك الحصول عليه.

ـ ومن الذي يقرر ذلك؟ أهي ماما أو أنت من تقرر ذلك؟

ـ بل تقاليد العائلة، التي كسرتِها أنت.

ـ وسوف أكسرها كلما تطلب الأمر كسرها، ما دامت هذه التقاليد اللعينة لا تقيم لي أي اعتبار. لقد كان لي الحق بالزواج مثلك، وأنت من ليس لها الحق بحشر نفسها بين شخصين متحابين بعمق.

ـ لم يكن بالعمق الذي تتخيلين. فقد رأيتِ كيف استبدلك «بيدرو» واختارني في أول فرصة. لقد تزوجتُ منه، لأنه هو من أراد ذلك. ولو كان لديك أدنى قدر من الكرامة لكنتِ نسيته إلى الأبد.

ـ فلتعلمي إذًا أنه لم يتزوج بك إلا ليكون قريبًا مني. لم يكن يحبك، وكنت تعلمين ذلك جيدًا.

ـ انظري، من الأفضل ألا نتكلم عن الماضي، فأنا لا تهمني أسباب زواج «بيدرو» مني. لقد تزوج بي وانتهى الأمر. ولن أسمح لكما بأن تخدعاني، اسمعي هذا جيدًا! لست مستعدة للسماح لكما بذلك.

ـ لا أحد يحاول خداعك يا «روساورا»، إنك لا تفهمين شيئًا.

ـ لا، أي كلام هذا! إنني أفهم جيدًا المقام الذي تضعينني فيه، عندما يراك جميعُ من في المزرعة تبكين بجوار «بيدرو» وتمسكين يده بحب؟ أتدرين ما هو الدور الذي تضعينني فيه؟ إنه دور الأضحوكة! أنت لن تنالي مغفرة الرب حقًّا! واسمعي. لا يعنيني بأي حال إذا كنت أنت و«بيدرو» ستذهبان إلى الجحيم لتبادلكما القبلات في كل ركن. بل أكثر من ذلك، يمكنكما من الآن فصاعدًا أن تفعلا ذلك كما تشاءان. فأنا لا يهمني ذلك، طالما لا يعلم أحد بالأمر؛ لأن «بيدرو» سيحتاج إلى فعله مع أي واحدة، أما أنا فلن يلمسني مرة أخرى. فأنا لدي كرامتي! وليبحث عن رخيصة مثلك لقذارته، ولكن يجب أن تعلمي أنني سأظل أنا الزوجة في هذا البيت. وأمام أعين الآخرين كذلك. لأنه في اليوم الذي يراكما أحد فيه وتجعلانني أضحوكة من جديد، أقسم لك أنكما ستندمان.

اختلط صياح «روساورا» ببكاء «إسبرانثا» اللجوج. كانت الطفلة تبكي منذ بعض الوقت، لكن صوت نحيبها راح يتعالى تدريجيًّا إلى أن بلغ مستويات لا تُحتمل. من المؤكد أنها تريد أن تأكل. نهضت «روساورا».ببطء وقالت:

ـ سأذهب لإطعام ابنتي. ولا أريدك أن تفعلي لها ذلك منذ اليوم، لأنك ستلوثينها بوحلك. ولن تتلقى منك سوى المثل الخبيث والنصائح الخبيثة.

ـ يمكنك أن تكوني على ثقة من هذا. لن أسمح بأن تتسمم ابنتك بأفكار عقلك المريض. ولن أسمح بأن تدمري حياتها بإجبارها على مواصلة تقليد غبي!

ـ هكذا إذًا؟ وكيف ستمنعين ذلك؟ لا بد أنك تظنين أنني سأسمح لك بالاقتراب منها كما كانت الحال حتى الآن. اعلمي يا صغيرة أن ذلك لن يحدث. منذ متى رأيتِ أنه يُسمح لنساء الشوارع بالبقاء إلى جانب بنات العائلات المحترمة؟

ـ لا تقولي لي إنك تصدقين بالفعل أن عائلتنا محترمة؟

ـ عائلتي الصغيرة نعم. ولكي تبقى كذلك فإنني أحظر عليك الاقتراب من ابنتي، وإلا سأجد نفسي مضطرة إلى طردك من هذا البيت، فقد أورثتني إياه أمي. أفهمت؟

خرجت «روساورا» من المطبخ حاملة الهلام الذي كانت «تيتا» قد أعدته لـ«إسبرانثا» وذهبت لإطعامها. ما كان يمكن عمل ما أسوأ من ذلك لـ«تيتا». فقد عرفت كيف تؤذيها في أعمق أعماقها. فـ«إسبرانثا» هي أحد أهم الكائنات في هذا العالم بالنسبة إليها. يا للألم الذي أحست به! بينما كانت تقطع القطعة الأخيرة من أقراص العجة التي بين يديها، تمنت من أعماق روحها أن تبتلع الأرض أختها. فهذا هو أقل ما تستحقه.

بينما هي تتجادل مع «روساورا»، لم تتوقف عن إعادة تقطيع أجزاء العجة إلى قطع أصغر، وهكذا حولتها إلى فتات صغير جدًّا.

وضعتها «تيتا»، وهي غاضبة، في طبق وخرجت لتلقي بها للدجاج، كي تواصل بعد ذلك طبخ الفاصوليا. كان منشر الغسيل في الفناء مشغولًا بكامله بحفاظات «إسبرانثا» وأقمطتها ناصعة البياض. إنها أقمطة جميلة جدًّا. فقد أمضين جميعهن أمسيات كاملة في تطريز حوافها. وكان الهواء يهدهدها فتبدو كأنها موجات زبد. حرفت «تيتا» نظرها عن الأقمطة. فإذا كانت تريد الانتهاء من إعداد الطعام، عليها أن تنسى الطفلة التي كانت تأكل أول مرة من دونها. دخلت إلى المطبخ وواصلت تحضير الفاصوليا.

يجب أن يقلى البصل المقطع في السمن. وحين يكتسب لونًا ذهبيًّا يضاف إليه عندئذ بالضبط الفلفل العريض مطحونًا والملح حسب الذوق.

وما إن ينضج الخليط حتى تضاف إليه الفاصوليا مع اللحم والشحم.

لم تكن محاولة نسيان «إسبرانثا» مجدية. فعندما أفرغت «تيتا» الفاصوليا في القدر تذكرت كم كان مرق الفاصوليا يروق للطفلة. ولإطعامها إياه، كانت تُجلسها على ركبتيها، وتضع لها فوطة كبيرة على صدرها وتعطيها المرق بملعقة فضية صغيرة. يا للسعادة التي شعرت بها يوم سمعت صوت اصطدام الملعقة بطرف أول سن ظهرت لـ«إسبرانثا». لقد ظهر لها الآن سنَّان أخريان. كانت «تيتا» تحاذر بحرص شديد من إيذاء تلك الأسنان عند إطعامها. ليت «روساورا» تفعل الشيء نفسه. ولكن كيف لتلك أن تعرف؟! فهي لم تفعل ذلك قط من قبل. ولن تعرف كذلك أن تحضِّر لها حمامها بماء ورق الخس لتضمن لها نومًا

هادئًا في الليل، ولن تعرف كيف تُلبسها، ولا كيف تقبِّلها وتحتضنها وتهدهد لها، مثلما كانت هي تفعل. فكرت «تيتا» في أنه ربما من الأفضل لها أن تغادر المزرعة. فقد خيب «بيدرو» أملها، ويمكن لـ«روساورا»، من دون وجودها في البيت، أن تعيد صياغة حياتها. سيكون على الطفلة أن تعتاد، عاجلًا أو آجلًا، على رعاية أمها الحقيقية. وإذا ما واصلت «تيتا» التعلق بها أكثر فأكثر فسوف تعاني مثلما حدث لها مع «روبرتو». لا أهمية لها، فهذه ليست أسرتها، ويمكن لهم في أي لحظة انتزاعها من بينهم بالسهولة نفسها التي تنتزع بها حصاة من بين الفاصوليا حين يقوم أحدهم بتنظيفها. أما «جون» في المقابل، فيعرض عليها بناء أسرة جديدة، لا ينتزعها أحد منها. وهو رجل رائع، ويحبها كثيرًا. لن يكون من الصعب عليها أن تحبه إلى حدِّ الجنون مع مرور الوقت. لم تستطع الاستمرار في تأملاتها لأن الدجاجات بدأت بإحداث صخب عظيم في الفناء. بدا كما لو أن مسًّا من جنون قد حلَّ بها أو أن لديها عقدة ديك المصارعة. فقد راحت كل دجاجة تنقر غيرها في محاولة لانتزاع آخر قطع العجة المتبقية على الأرض. كانت الدجاجات تتقافز وتتطاير بفوضى في كل الأنحاء، وينقض بعضها على بعض بعنف. إحدى الدجاجات، وهي أشدها هيجانًا، فقأت بمنقارها عيني كل من وصلت إليه من دجاج، ملوثة بالدماء أقمطة «إسبرانثا» البيضاء. حاولت «تيتا» المذعورة أن توقف ذلك الشجار برشها الدجاجات بدلو ماء. لكن ما توصلت إليه هو جعلها أشد نزقًا وزادت من عراكها. شكلت الدجاجات دائرة، وراح الدجاج بداخلها يطارد بعضه

بعضًا بسرعة دوارية. وفجأة وجدت الدجاجات نفسها عالقة من دون مفر في القوة التي ولَّدتها بنفسها في ركضها الأرعن، ولم تعد قادرة على الإفلات من زوبعة الريش والتراب والدماء التي بدأت تدور بقوة متعاظمة إلى أن تحولت إلى إعصار هائل يكتسح كل ما يجده في طريقه، بدءًا بأقرب الأشياء منها، وهي في هذه الحالة أقمطة «إسبرانثا» المنشورة في الفناء. حاولت «تيتا» إنقاذ بعض الأقمطة، ولكنها عندما بدأت بجمعها، وجدت نفسها مكتسحة بقوة الإعصار الهائل الذي رفعها عدة أمتار عن الأرض، ولفها ثلاث لفات جهنمية وسط نقر المناقير الهائجة لترتمي بعد في أقصى الفناء، حيث سقطت مثل كيس بطاطس.

ظلت «تيتا» منبطحة على الأرض بذعر شديد لا تريد التحرك. إذا ما أمسكت بها الزوبعة مجددًا ستكون عرضة لخطر أن تفقأ لها الدجاجات إحدى عينيها. راح إعصار الدجاج ذاك يثقب أرض الفناء محدثًا بئرًا عميقة اختفت فيها معظم الدجاجات من هذا العالم. لقد ابتلعتها الأرض. لم ينج من ذلك الصراع سوى ثلاث دجاجات منتوفة الريش وعوراء. أما أقمطة «إسبرانثا» فلم ينج منها شيء.

نفضت «تيتا» الغبار عنها، وتفحصت الفناء. لم يكن هناك أي أثر للدجاج. ما أقلقها أكثر هو اختفاء الأقمطة التي طرزتها بحب شديد. يجب التعويض عنها بأقصى سرعة بأخرى جديدة. حسن، هذه المشكلة، إذا ما فكرت مليًّا، لم تعد مشكلتها. فقد قالت «روساورا» إنها لا تريدها أن تقترب من «إسبرانثا»، أليس كذلك؟ فلتتولَّ هي إذًا حلَّ مشكلتها وستتولى «تيتا» بدورها حل

مشكلتها المتمثلة في تلك اللحظة بإعداد الطعام لـ«جون» والعمة «ماري».

دخلت إلى المطبخ وتأهبت للانتهاء من تحضير الفاصوليا، وكيف يمكن لها ألا تفاجأ حين رأت أن الفاصوليا لم تُسلق بعد، على الرغم من مرور كل تلك الساعات من وجودها على النار؟

شيءٌ غير عادي كان يحدث. تذكرت «تيتا» أن «ناتشا» كانت تقول لها على الدوام إنه حين يتجادل شخصان أو أكثر في أثناء تحضير «التمال»، تظل هذه نيئة. وقد تنقضي أيام وأيام من دون أن تنضج، لأن «التمال» تكون غاضبة. ويصبح من الضروري في هذه الحالات الغناء لها، كي تبتهج وتتمكن من النضج. افترضت «تيتا» أن الشيء نفسه قد حدث للفاصوليا التي شهدت نزاعها مع «روساورا». لم يبق أمامها عندئذ إلا محاولة تعديل مزاج الفاصوليا والغناء لها بحب، إذ لم يعد لديها سوى وقت قصير جدًّا من أجل إعداد الطعام لضيفيها.

لهذا، من المناسب أن تبحث في ذاكرتها عن لحظة سعادة كبيرة وأن تستعيد عيشها وهي تغني. أغمضت عينيها وبدأت تغني «الفالس» تقول كلماته: «إنني سعيد مذ رأيتك، مذ أعطيتك حبي وفقدت روحي...». توافدت إلى ذهنها بتسارع صور أول لقاء لها مع «بيدرو». كان الدم يفور في عروقها. القلب يطلق فقاعات غليان العاطفة. وشيئًا فشيئًا راح الهيجان يتراجع مفسحًا المجال لعذوبة غير متناهية تمكنت من تهدئة روحيهما المضطربتين.

وبينما «تيتا» تغني، كان مرق الفاصوليا يغلي باحتدام. سمحت الفاصوليا للسائل الذي تسبح فيه بأن يتخللها وبدأت

بالانتفاخ حتى كادت تتشقق. وعندما فتحت «تيتا» عينيها وأخرجت حبة فاصوليا لفحصها، تبين لها أن الفاصوليا قد بلغت حدَّ النضج المناسب بالضبط. وهذا سيوفر وقتًا كافيًا تكرسه لزينتها الشخصية، قبل مجيء العمة «ماري». غادرت المطبخ سعيدة بالحياة وتوجهت إلى غرفتها تريد التجمل. كان أول ما عليها عمله هو تنظيف أسنانها. فالتمرغ في الأرض الذي تعرضت له بقوة الريح التي أثارتها زوبعة الدجاج، ملأ أسنانها بالتراب. أخذت بعض مسحوق التنظيف وفرَّشت أسنانها بقوة.

لقد علموها كيفية إعداد ذلك المسحوق في المدرسة. إنه يحضَّر بنصف أونصة من حمض الطرطريك ونصف آخر من السكر ونصف من عظم الحبار، إلى جانب درهمين من خلاصة زنبق «فلورنسا» ودم التنين (دم الأخوين). تُحوَّل المكونات كلها إلى مسحوق وتخلط معًا. كانت المعلمة «خوبيتا» هي المكلفة بتعليمهم ذلك. وقد كانت معلمتها خلال ثلاثة أعوام متتالية. إنها امرأة قصيرة وضئيلة جدًّا. يتذكرها الجميع ليس للمعارف التي نقلتها إليهم وحسب، وإنما لأنها كانت ذات شخصية بكل معنى الكلمة. يقال إنها ترملت وهي في الثامنة عشرة ولديها ابن. ولم تشأ أن تقدم لابنها زوج أمٍّ قط، وهكذا أمضت حياتها طوعًا في عزوبية مطلقة. حسن، من يدري إلى أي حد كانت مقتنعة بذلك القرار وإلى أي حد أثَّر عليها، ذلك أن المسكينة راحت تفقد عقلها مع مرور السنين. كانت تعمل نهارًا وليلًا لتستبعد عنها الأفكار الخبيثة. فكانت عبارتها المفضلة: «البطالة هي أم الرذائل كلها». وهكذا لم تكن تستريح ثانية واحدة طيلة اليوم. وفي كل

يوم كانت تعمل أكثر وتنام أقل، إلى أن لم يعد العمل داخل بيتها كافيًا، مع مرور الوقت، لتهدئة روحها، وهكذا صارت تخرج إلى الشارع في الخامسة صباحًا لتكنس الرصيف. رصيفها ورصيف جارتها. ثم وسعت دائرة عملها بعد ذلك إلى كتل الأبنية الأربع المحيطة ببيتها، وشيئًا فشيئًا راح الأمر يتزايد حتى وصلت إلى كنس «بييدراس نجراس» كلها قبل ذهابها إلى المدرسة. كانت تظل في بعض الأحيان بقايا من القمامة عالقة بشعرها، فكان الصغار يسخرون من ذلك. وبينما «تيتا» تنظر في المرآة، اكتشفت أن هيئتها تشبه هيئة معلمتها. ربما بسبب ريش الدجاج العالق بشعرها إثر تمرغها على الأرض وحسب، ولكن «تيتا» أحست بالرعب. فهي لا تريد بأي حال أن تتحول إلى «خوبيتا» أخرى. نفضت الريش وسرَّحت شعرها بضربات قوية بالفرشاة، ثم نزلت لاستقبال «جون» و«ماري» اللذين كانا يصلان في تلك اللحظات. فنباح «بولكيه» يعلن عن وجودهما في المزرعة.

استقبلتهما «تيتا» في الصالون. كانت العمة «ماري» مثلما تخيلتها: سيدة رقيقة ولطيفة متقدمة في السن. وعلى الرغم من السنوات التي تحملها على كاهلها لم تكن تشوب تأنق هندامها شائبة.

كانت تضع قبعة زهور وقورة، لها ألوان الباستيل، تشكل ضدًّا لبياض شعرها. ويتوافق قفازاها مع لون شعرها بتألقهما الناصع. ومن أجل المشي، تستند إلى عكاز من خشب الماهوجني بمقبض من الفضة له شكل بجعة. كان الحديث معها من أمتع ما يمكن! وقد افتتنت العمة بـ«تيتا» وهنأت ابن أخيها بانشراح على

حسن اختياره، وهنأت «تيتا» على إنجليزيتها التي تتكلمها بإتقان.

اعتذرت «تيتا» عن عدم حضور أختها، لأنها تشعر بالتوعك، ودعتهما إلى قاعة الطعام.

أُعجبت العمة بالأرز مع الموز المقلي وأطرت كثيرًا على طهو الفاصوليا.

عند تقديمها يوضع فوقها الجبن المبشور وتزين بأوراق خس طازجة وشرائح أفوكادو وفجل مفروم وفلفل «تورناتشيلي» وزيتون.

كانت الجدة معتادة على نوع آخر من الطعام، ولكن ذلك لم يحل من دون تمكنها من تقدير لذة مذاق طبخ «تيتا».

ـ مممم. إنه لذيذ جدًّا يا «تيتا».

ـ شكرًا جزيلًا.

ـ يا لك من محظوظ يا «جوني»، من الآن فصاعدًا سوف تأكل جيدًا بالفعل، لأن طبخ «كاتي» سيئ جدًّا في الحقيقة. بل إنك سوف تسمن بهذا الزواج.

لاحظ «جون» أن «تيتا» مضطربة.

ـ هل حدث لكِ شيء يا «تيتا»؟

ـ أجل، ولكنني لن أستطيع قوله لك الآن، إن عمتك ستشعر بالاستياء إذا توقفنا عن الكلام بالإنجليزية.

فأجابها «جون» متكلمًا بالإسبانية:

ـ لا، لا تقلقي، إنها صماء تمامًا.

ـ كيف يمكنها تبادل الحديث إذًا بهذه الجودة؟

ـ لأنها تقرأ حركة الشفاه، ولكن بالإنجليزية فقط، لا

تقلقي. ثم إنها لا تهتم بأحد عندما تأكل، لذا أرجوكِ أن تخبريني بما يحدث لك. لم يُتح لنا الوقت للحديث، وحفل الزواج سيكون خلال أسبوع.

ـ أظن أنه من الأفضل إلغاء الزواج يا «جون».

ـ ولكن... لماذا؟

ـ لا تطلب مني أن أخبرك بذلك الآن.

وفي محاولة منها لجعل العمة لا تنتبه إلى أنهما يناقشان موضوعًا شديد الحساسية، ابتسمت لها «تيتا». وفعلت العمة الشيء نفسه، كانت تبدو بمنتهى السعادة والطمأنينة وهي تأكل طبقها من الفاصوليا. ما قاله «جون» صحيح، فهي لا تقرأ الشفاه بالإسبانية بالفعل. يمكن لها التحدث إلى «جون» من دون خطر. وألح «جون» على الموضوع نفسه.

ـ ألم تعودي تحبينني؟

ـ لا أعرف.

كم كان صعبًا على «تيتا» مواصلة التحدث بعد أن رأت إيماءة الألم التي صدرت عن «جون» والتي حاول كبحها على الفور.

ـ في أثناء غيابكَ أقمتُ علاقة مع رجل كنت مغرمة به على الدوام، وفقدت عذريتي. لهذا لم يعد بإمكاني الزواج منك.

فسألها «جون» بعد صمت طويل:

ـ هل تحبينه أكثر مني؟

ـ لا أستطيع إجابتك على هذا السؤال، لأني لا أعرف الجواب أيضًا. عندما لا تكون هنا، أفكر في أنني أحبه هو، ولكنني حين أراك، يتغير كل شيء. إلى جوارك أشعر بالطمأنينة،

بالأمن، بالأمان... لكنني لا أعرف، لا أعرف... اعذرني لأني أقول لك هذا كله.

سالت دمعتان على خدي «تيتا». فأمسكت العمة «ماري» بيدها وقالت لها بالإنجليزية وبتأثر عمق:

ـ كم هو جميل رؤية امرأة محبة تبكي تأثرًا. لقد فعلتُ مثل هذا أيضًا مرات ومرات عندما كنت على وشك الزواج.

تنبه «جون» إلى أنه يمكن لتلك الكلمات أن تؤدي إلى انفجار «تيتا» في البكاء وإلى خروج الوضع عن السيطرة.

مدَّ يده، وأمسك يد «تيتا» وقال لها وهو يبتسم تأييدًا لقول العمة:

ـ «تيتا»، لا يهمني ما فعلتِه، هناك أفعال في الحياة يجب عدم إعطائها كبير اهتمام إذا هي لم تبدل ما هو جوهري. ما قلتِه لي لم يغير طريقتي في التفكير، وأكرر لك إنه لمما يسعدني أن أكون شريككِ مدى الحياة، ولكنني أريدك أن تفكري جيدًا إذا كان الرجل الذي تريدين هو أنا أم لا. إذا كان ردك بالإيجاب، فسنقيم حفل زفافنا خلال أيام. وإذا كان ردك غير هذا، فسأكون أول من يهنئ «بيدرو» ويطلب منه إعطاءك المكانة التي تستحقين.

لم تستغرب «تيتا» سماع كلمات «جون». فهي متوافقة مع شخصيته. لكن ما فاجأها هو أنه يعرف بالضبط أن منافسه هو «بيدرو». لم تكن قد وضعت شدة حدسه في الاعتبار.

كان من المستحيل على «تيتا» أن تبقى على المائدة. اعتذرت، وخرجت لحظات إلى الفناء، وبكت إلى أن هدأت. ثم عادت من فورها لتقدم التحلية في موعدها. نهض «جون» ليقرِّب

لها الكرسي، وعاملها بالتهذيب والاحترام المعهودين منه على الدوام. كان رجلًا رائعًا بالفعل. كم كبر في نظرها! وكم تنامت الشكوك في رأسها! شراب الياسمين الذي قدمته كتحليةٍ بعث فيها شعورًا كبيرًا بالراحة. فعندما تتناوله يُنعش جسدها ويفتح ذهنها. أعجبت العمة إلى حدِّ الجنون بالتحلية. لم يخطر لها قط أن يمكن استخدام الياسمين كطعام. ولافتتانها أرادت أن تعرف كل تفاصيل تحضير مثل هذا الشراب في بيتها. أعطتها «تيتا» الوصفة ببطء شديد، كي تتمكن العمة من قراءة حركة شفتيها بوضوح.

ـ تهرس باقة ياسمين وتوضع في ثلاثة «كوارتييو» من الماء ونصف رطل سكر، ثم يخلط ذلك كله جيدًا. وبعد ذوبان السكر تمامًا يصفى المزيج بقطعة قماش سميكة، ثم يترك في ثلاجة المشروبات ليبرد.

أمضوا بقية المساء على أروع ما يرام. وعند انسحاب «جون»، طبع قبلة على يد «تيتا» وقال لها:

ـ لا أريد أن أضغط عليك، أريد أن أؤكد لك فقط أنك ستكونين سعيدة معي.

ـ أعرف ذلك.

لقد كانت تعرف ذلك بالطبع. وستأخذه في الاعتبار طبعًا عندما تتخذ قراراها، القرار النهائي الذي سيحدد مستقبلها كله.

يتبع...

الوصفة التالية: فلفل بصلصة الجوز

١٢

ديسمبر

فلفل بصلصة الجوز

المُكونات:

٢٥ حبة فلفل «بوبلانو»
٨ حبة رمان
١٠٠ حبة جوز «كاستيليا»
١٠٠ ج جبن «أنيخو» طازج
١ كج لحم عجل مفروم
١٠٠ ج زبيب
١\٤ كج لوز
١\٤ كج جوز
١\٢ كج كاكا (خرما)
٢ بصلة متوسطة
٢ حبة ليمون
١ حبة دراق
١ تفاحة
كمون، فلفل أبيض، ملح، سكر

طريقة التحضير

يجب البدء بتقشير الجوز قبل عدة أيام، لأن عمل ذلك يمثل مهمة مجهدة جدًّا تتطلب ساعات وساعات من التفرغ لها. وبعد الانتهاء من انتزاع قشور الجوز الخارجية، يجب أن تُنتزع كذلك القشرة التي تغطي لب الجوز. ولا بد من إيلاء ذلك عناية خاصة كيلا تظل ملتصقة بها ولو أدنى قطعة من القشر، لأنها عند طحنها وخلطها بالكريمة تضفي مذاقًا مرًّا على صلصة الجوز، ما يحول الجهد السابق كله إلى هباء.

انتهت «تيتا» و«تشينتشا» من تقشير الجوز وهما جالستان إلى منضدة قاعة الطعام. وسيستخدم هذا الجوز في صنع الفلفل في صلصة الجوز ليقدَّم طبقًا رئيسيًّا في حفل الزفاف في اليوم التالي. تركهما جميع أفراد الأسرة وحدهما وغادروا منضدة قاعة الطعام، كل واحد منهم متعللًا بحجة أو بأخرى. ولم يبق أحد سوى هاتين المرأتين البارزتين تواصلان العمل من دون هوادة. والحقيقة أن «تيتا» لم تُجرمهم. لقد ساعدوها كثيرًا خلال

الأسبوع كله، وهي تتفهم جيدًا أنه ليس من السهل تقشير ألف جوزة من دون إنهاك. الشخص الوحيد الذي عرفته وكان قادرًا على عمل ذلك من دون أي تململ هو ماما «إيلينا».

فماما «إيلينا» لم تكن قادرة على تقشير أكياس وأكياس من الجوز خلال أيام قليلة وحسب، بل إنها كانت تجد متعة كبيرة وهي تمارس هذا العمل. فالعصر والتهشيم والسلخ كانت من ممارساتها المفضلة. وكانت الساعات تمر عليها من دون أن تنتبه لمرورها حين تجلس في الفناء وبين ساقيها كيس جوز ولا تنهض إلا بعد الانتهاء منه.

لا بد أن تقشير هذه ألف الحبة من الجوز ستبدو لها مجرد لعب أطفال، بينما هم جميعهم يتكلفون مشقة كبيرة في تقشيرها. الحاجة إلى هذه الكمية يستدعيها أن كل خمس وعشرين حبة فلفل تتطلب تقشير مائة جوزة، ومن المنطقي أن تحتاج مائتان وخمسون حبة فلفل إلى ألف حبة جوز. فقد دعوا إلى حفل الزفاف ثمانين شخصًا من الأقارب والأصدقاء المقربين. ويمكن لكل شخص أن يأكل، إذا رغب، ثلاث حبات فلفل، وبهذا فإن تقدير الكمية محترم جدًّا. إنه حفل زفاف عائلي وضيق، ولكن «تيتا» تريد تقديم وليمة من عشرين طبقًا مختلفًا، مما لم يعد يقدم الآن، ولا يمكن أن يغيب عن المأدبة الفلفل في صلصة الجوز طبعًا، لأن مثل هذه الحفلة التاريخية تستحقه، على الرغم مما يعنيه من عمل مجهد. لم تكن «تيتا» تهتم باصطباغ أصابعها بالأسود بعد تقشير كل ذلك القدر من الجوز. فحفل الزفاف هذا يستحق التضحية، لأن له معنى خاصًّا جدًّا في نظرها. وكذلك

الأمر بالنسبة إلى «جون» أيضًا. لقد كان سعيدًا إلى حد تحول معه إلى أحد أكثر معاونيها حماسة في الإعداد للمأدبة. وقد كان هو بالتحديد آخر من انسحب للراحة. وكان يستحق استراحة مناسبة بالفعل.

كان «جون» يغسل يديه في حمام بيته وهو يكاد يموت من التعب. وأظفاره تؤلمه لكثرة ما قشر من الجوز. وكان يستعد للنوم وهو يشعر بحالة من الانفعال الشديد. فبعد ساعات قليلة سيصير أكثر قربًا من «تيتا»، وهذا أمر يسعده سعادة هائلة. لقد جرت برمجة حفل الزفاف ليكون في الساعة الثانية عشرة ظهرًا. تفحص بنظره بدلة «السموكنج» الموضوعة على كرسي. الملابس التي سيرتديها في اليوم التالي كانت مرتبة كلها بعناية في انتظار أفضل لحظة للظهور بها. فالحذاء يلمع كما لم يلمع من قبل، وربطة العنق، على شكل شريط معقود، وكذلك الحزام والقميص، جميعها في حالة لا تشوبها شائبة. ولشعوره بالرضا لأن كل شيء على ما يرام، أخذ نفَسًا عميقًا، واستلقى على الفراش، وما إن وضع رأسه على الوسادة حتى استغرق في نوم عميق.

أما «بيدرو» في المقابل، فلم يجد إلى النوم سبيلًا. إذ إن غيرة شيطانية كانت تسري في أعماقه. لم يكن يروق له بأي حال أن يضطر إلى حضور حفل الزفاف وأن يتحمل رؤية «تيتا» إلى جوار «جون».

لم يكن يفهم بأي حال تصرفات «جون»، بدا كما لو أن «أتوليه» في عروقه! كان يعرف تمام المعرفة ما بينه وبين «تيتا».

وعلى الرغم من ذلك فإنه ما زال يتصرف كأنه لا وجود لأي شيء! ففي ذلك المساء بالذات، عندما حاولت «تيتا» أن تشعل الفرن، ولم تجد أعواد الثقاب في أي مكان. سارع عندئذ «جون»، المتودد الأبدي، وقدم إليها المساعدة. ولم يكن هذا هو كل شيء! فبعد أن أشعل النار، أهدى إلى «تيتا» علبة الكبريت ممسكًا بيديها بين يديه. ماذا وراء سعيه إلى تقديم ذلك النوع من الهدايا الغبية لـ«تيتا»؟ ليست سوى ذريعة مناسبة لـ«جون» من أجل أن يداعب يدي «تيتا» أمامه. لا شك في أنه يعتبر نفسه متحضرًا، لكنه سيذهب بنفسه ليعلِّمه ما الذي يفعله الرجل عندما يحب امرأة حبًّا حقيقيًّا. تناول سترته واستعد للذهاب بحثًا عن «جون» ليحطم له وجهه.

لكنه توقف عند الباب. يمكن له أن يفسح المجال للتقولات بأن زوج أخت «تيتا» قد تشاجر مع «جون» قبل يوم من الحفلة.

لن تغفر له «تيتا» ذلك. ألقى بالسترة على السرير بنزق وراح يبحث عن قرص دواء يخفف آلام رأسه. فالضجيج الذي تحدثه «تيتا» في المطبخ يتضاعف ألف مرة بسبب الألم.

كانت «تيتا» تفكر في أختها بينما هي تنتهي من تقشير حبات الجوز القليلة المتبقية على المنضدة. كان يمكن لـ«روساورا» أن تكون سعيدة جدًّا بحضور حفل الزفاف. لقد ماتت المسكينة منذ عام. وتكريمًا لذكراها انتظروا انقضاء كل هذا الوقت لإقامة طقوس الزفاف الدينية. كان موتها من أغرب الغرائب. فقد تناولت العشاء مثلما تفعل عادة وانسحبت بعد ذلك مباشرة إلى مخدعها. ظلت «إسبرانثا» و«تيتا» تتبادلان الحديث في قاعة

الطعام. وصعد «بيدرو» لوداع «روساورا» قبل أن يذهب للنوم. لم تسمع «تيتا» و«إسبرانثا» أي شيء بسبب بُعد قاعة الطعام عن حجرات النوم. لم يستغرب «بيدرو» في البدء سماعه، حتى وهو أمام الباب المغلق، صوت خروج رياح بطن «روساورا». ولكنه بدأ ينتبه إلى تلك الأصوات الكريهة عندما امتد أحدها لوقت أطول من المعهود. بدا كما لو أنه بلا نهاية. حاول «بيدرو» التركيز على الكتاب الذي يحمله بين يديه مفكرًا في أنه من غير الممكن أن يكون ذلك الصوت الطويل نتيجة مشاكل سوء هضم زوجته. كانت الأرضية تهتز ومصباح الضوء ينوس. ظن «بيدرو» لدى سماعه تلك المدافع أن الثورة قد اندلعت مجددًا، ولكنه استبعد هذا الاحتمال لأن البلاد تنعم الآن بهدوء شديد. ربما يكون محرك سيارة الجيران. ولكن السيارات ذات المحركات، عند الإمعان في الأمر، لا تُصدر مثل تلك الرائحة المقززة. ومن الغريب أن يشم تلك الرائحة على الرغم من أنه قد اتخذ الاحتياطات بالمرور على كل أنحاء الحجرة بملعقة فيها قطعة فحم مشتعلة وقليل من السكر.

هذه الطريقة هي الأكثر فاعلية ضد الروائح الكريهة.

ففي طفولته، كانوا معتادين على فعل ذلك في الحجرة التي يكون مريض بالمعدة قد تغوط فيها، ويتوصلون دائمًا إلى تطهير الجو بنجاح كبير. ولكن ذلك لم يفده في شيء الآن. اقترب بقلق من الباب الذي يصل بين الحجرتين، وسأل «روساورا» وهو يطرق الباب بمفاصل أصابعه، إن كانت بخير. وحين لم يتلق جوابًا فتح الباب ووجد أمامه «روساورا» بنفسجية الشفتين،

وجسدًا مفرغًا من الغازات، وعينين زائغتين ونظرة شاردة. كانت تطلق زفرتها الأخيرة، وكان تشخيص «جون» للحالة بأنها احتقان معوي حاد.

قلة هُم من شاركوا في مراسم الدفن. فبعد الموت ازداد زخم الرائحة الكريهة المنبعثة من جثمان «روساورا». ولهذا السبب لم تتحمس سوى قلة قليلة لحضور الجنازة. غير أن سربًا من الديوك الرومية البرية لم يتخلف عن الحضور، وحلق فوق الموكب حتى انتهاء الدفن. ولكنه انسحب خائب الرجاء عندما رأى أنه لا وجود لأي مأدبة، وترك «روساورا» ترقد بسلام.

ولكن راحة «تيتا» لم يحن موعدها بعد. جسدها يطلب منها ذلك صارخًا، ولكن ما زال عليها أن تنهي صلصة الجوز قبل أن تخلد للراحة. ولهذا فإن الأنسب لها، بدلًا من استذكار أمور مضت وانقضت، أن تسرع في أعمال المطبخ كي تتمكن من نيل قسط من الراحة المستحقة.

بعد أن صار الجوز كله مقشورًا، يدق في المهراس مع الجبن والكريمة. ثم يضاف إليه أخيرًا الملح والفلفل الأبيض حسب الرغبة. ثم تغطى بصلصة الجوز هذه حباتُ الفلفل المحشوة وتُزين بعد ذلك بالرمان.

حشو ثمرات الفلفل الحار:

يقلى البصل في قليل من الزيت. وعندما يصير طريًّا يضاف إليه اللحم المفروم والكمون وقليل من السكر. وحين يتحمر

اللحم يضاف إليه الدرَّاق والتفاح والجوز والزبيب واللوز والكاكا المقطعة ويترك حتى ينضج. بعد نضجه، يضاف إليه الملح حسب الرغبة ويترك ليجف قبل رفعه عن النار.

وبصورة منفصلة، يشوى الفلفل ويُقشر. ثم تفتح كل حبة من جانب منها وتُسحب منها البذور والعروق.

أنهت «تيتا» و«تشينتشا» تزيين الصواني الخمس والعشرين بالفلفل ووضعتاها في مكان بارد. وفي صباح اليوم التالي، سيحملها الخدم من ذلك المكان بالذات وهي في أفضل حال وينقلونها إلى مائدة المأدبة.

كان الخدم يتنقلون من مكان إلى آخر لتلبية طلبات المدعوين المتحمسين. وقد لفت اهتمام الجميع مجيء «خيرترووديس» إلى الحفلة. لقد وصلت في سيارة «فورد تي» مكشوفة، إحدى أولى السيارات التي صنعوها بسرعات متعددة. وعند ترجلها من السيارة أوشكت أن تسقط عن رأسها قبعتها الكبيرة ذات الحواف العريضة وريش النعام. كان فستانها ذو الكتافات من أحدث الموديلات وأكثرها لفتًا للأنظار. ولم يكن «خوان» أقل تأنقًا. فقد ظهر ببدلة أنيقة ضيقة، وقبعة دائرية وطماق. وكان ابنهما الأكبر قد صار شابًّا خلاسيًّا وسيمًا. ملامح وجهه بالغة النعومة، ولون بشرته القاتم يتعارض مع لون عينيه الزرقاوين. فلون بشرته موروث عن جده، وزرقة عينيه موروثة عن ماما «إيلينا». وعيناه مطابقتان تمامًا لعيني جدته. ووراءهم يمضي الرقيب «تريبينيو» الذي تعاقدا معه، منذ انتهاء الثورة، كحارس شخصي لـ «خيرترووديس».

وعند مدخل المزرعة كان «نيكولاس» و«روساليو» بملابس التشريفات الصقيلة البراقة، يتسلمان بطاقات الدعوة من الأشخاص الذين ما زالوا يتوافدون. إنها بطاقات جميلة للغاية. قام «أليكس» و«إسبرانثا» بصنعها بنفسيهما. فورق البطاقات والحبر الأسود الذي كتباها به وحبر تزيين حواف المغلفات الذهبي والشمع الأحمر الذي ختماها به كلها من عمل أيديهما ومصدر اعتزاز لهما. كل شيء كان مُعدًّا وفق العادات وباستخدام وصفات آل «لا جارثا». حسنٌ، لم تكن هنالك حاجة إلى صنع الحبر الأسود، إذ تبقت كمية كافية مما حضَّروه يوم حفل زفاف «بيدرو» و«روساورا». وقد كان حبرًا جافًّا لا يحتاج إلا لإضافة قليل من الماء إليه ليصبح كما لو أنه صُنع للتو. يُحصل على هذا الحبر بمزج ثمانية أونصات صمغ عربي وخمس أونصات ونصف أونصة من العفص وأربع أونصات من كبريتات الحديد وأونصتين ونصف من صبغة خشب البقم ونصف أونصة من كبريتات النحاس. ومن أجل تحضير الحبر الذهبي الذي يوضع على حواف المغلفات، تؤخذ أونصة من الرهج الأصفر وكمية مماثلة من الحجر البلوري المطحون جيدًا. توضع هذه المساحيق في زلال خمس أو ست بيضات مخفوق جيدًا حتى يصبح مثل الماء. أما الشمع الأحمر فيحضر بإذابة رطل من صمغ اللك ونصف رطل من لبان جاوة، ونصف رطل من «الكالافونا» ورطل من صبغة «الزنجفر».

عندما يصبح المزيج سائلًا يُفرغ فوق منضدة مطلية بزيت لوز حلو، وقبل أن يبرد يُقولب على شكل عيدان أو سبائك.

لقد أمضى «أليكس» و«إسبرانثا» أمسيات كثيرة وهما يتبعان هذه الوصفات بحذافيرها كي يتمكنا من عمل بطاقات فريدة بتميزها، وقد توصلا إلى ذلك. فقد كانت كل بطاقة منها عملًا فنيًّا. إنها نتاج عمل حرفي يدوي آخذ بالتحول، للأسف، إلى موضة قديمة، مثله مثل الفساتين الطويلة والرسائل الغرامية ورقصات «الفالس». ولكن «فالس» «عيون شابة» لن يتحول أبدًا إلى موضة قديمة بنظر «تيتا» و«بيدرو»، وهو «الفالس» الذي كانت تعزفه في تلك اللحظة الفرقة الموسيقية بطلب صريح من «بيدرو». وانزلق كلاهما على حلبة الرقص وهما يفيضان رشاقة. بدت «تيتا» باهرة الجمال. بدا كما لو أن السنوات الاثنتين والعشرين التي انقضت منذ زواج «بيدرو» من «روساورا» لم تمر عليها ولم تؤثر فيها بالمطلق. فهي ما زالت نضرة ومشرقة مثل خيارة قُطفت للتو مع بلوغها التاسعة والثلاثين من العمر.

كانت عينا «جون» تلاحقانهما وهما يرقصان مبديين حنانًا تشوبه ومضة إذعان للقَدر. كان «بيدرو» يلامس بخده خد «تيتا» برفق، بينما هي تشعر بأن يد «بيدرو» على خصرها تحرقها كما لم يحدث من قبل قط.

ـ هل تتذكرين يوم سمعنا هذه المعزوفة أول مرة؟

ـ لن أنسى ذلك أبدًا.

ـ لم أنم في تلك الليلة وأنا أفكر في أن أطلب يدك فورًا. لم أكن أعلم أنه علينا انتظار مرور اثنين وعشرين عامًا كي أعود وأسألك إن كنت توافقين على أن تكوني زوجتي.

ـ أتقول هذا بجد؟

ـ طبعًا! لا أريد أن أموت قبل أن تصيري كذلك. لقد حلمتُ على الدوام بأنني أدخل معك إلى كنيسة تملؤها زهور بيضاء وأنت وسطها كأجمل زهرة بينها.

ـ مرتدية البياض؟

ـ طبعًا! لا شيء يحول بينك وبين ذلك. أتعرفين؟ بعد أن نتزوج، أريد أن أنجب ابنًا منك. ما زال بإمكاننا ذلك، ألستُ محقًّا؟ فسوف نحتاج الآن، بعد أن تركتنا «إسبرانثا»، إلى من يرافقنا.

لم تستطع «تيتا» الرد على «بيدرو». منعتها من ذلك غصة في حلقها. وتدحرجت بعض الدموع ببطء على خديها. إنها أول دموع سعادتها.

ـ وأريد أن تعلمي أنك لن تقنعيني بعدم فعل ذلك. لا يهمني ما يمكن أن تفكر فيه ابنتي أو أي أحد سواها. لقد أضعنا سنوات طويلة محاذرين مما يمكن أن يقولوه، ولكن أحدًا لن يستطيع أن يبعدني عنك منذ هذه الليلة.

والحقيقة أنه بعد وصول الأمور إلى ما وصلت إليه، لم يعد يهم «تيتا» قَدر قلامة ظفر ما يمكن أن يفكر فيه الناس بالإعلان عن العلاقة العاطفية التي بين «بيدرو» وبينها.

ظلت عشرين عامًا تحافظ على احترامها للاتفاق الذي عقداه كلاهما مع «روساورا»، وقد تعبت من ذلك. فالاتفاق يتلخص بوجوب الأخذ في الاعتبار أن الأمر الحيوي في نظر «روساورا» هو مواصلة الحفاظ في المظاهر على أن زواجها يمضي على ما

يرام، وأنه من المهم جدًّا بالنسبة إليها أن تترعرع ابنتها ضمن مؤسسة الأسرة المقدسة، باعتبارها المؤسسة الوحيدة حسب رأيها التي تمنح ابنتها تكوينًا أخلاقيًّا متينًا. وقد التزم «بيدرو» و«تيتا» بأقصى التكتم في لقاءاتهما وبالحفاظ على إخفاء حبهما، وأن يكونوا جميعهم أمام أعين الآخرين أسرة عادية جدًّا. ولهذا يجب على «تيتا» الامتناع عن إنجاب ابن غير شرعي. ومن أجل تعويضها عن ذلك، توافق «روساورا» على أن تتقاسم معها «إسبرانثا» بالطريقة التالية: تتولى «تيتا» تغذية الطفلة وتتولى «روساورا» تربيتها.

ويكون على «روساورا» من جهتها أن تتعايش معها بصورة ودية، مع تجنب الغيرة والشكوى.

وقد احترموا جميعهم الاتفاق بصورة عامة، باستثناء ما يتعلق بتربية «إسبرانثا». فكانت «تيتا» تريد لـ«إسبرانثا» تربية مختلفة جدًّا عما تخططه لها «روساورا». هكذا كانت «تيتا» تستغل لحظات وجود «إسبرانثا» معها لتقدم للطفلة، على الرغم من أن ذلك ليس من اختصاصها، نوعًا مختلفًا من المعارف عن تلك التي تعطيها إياها أمها.

وكانت تلك اللحظات تشكل معظم اليوم، لأن المطبخ هو مكان «إسبرانثا» المفضل، و«تيتا» هي أفضل صديقة تبوح لها بأسرارها.

وفي واحدة من تلك الأمسيات التي كانتا تمضيانها معًا في المطبخ بالتحديد، علمت «تيتا» أن «أليكس»، ابن «جون براون»، يتودد إلى «إسبرانثا». «تيتا» هي أول من علم بذلك.

فقد عادا للقاء، بعد سنوات طويلة، في حفل المدرسة التحضيرية التي تدرس فيها «إسبرانثا». وكان «أليكس» على وشك إنهاء دراسته كطبيب. وقد انجذب كل منهما إلى الآخر منذ اللحظة الأولى. عندما قالت «إسبرانثا» لـ«تيتا» إنها حين تلقت نظرة «أليكس» على جسدها أحست كما لو أنها قطعة من عجين الزلابية تسقط في زيت يغلي، فأدركت «تيتا» أن ارتباط «أليكس» و«إسبرانثا» سيكون أمرًا محتمًا لا مفر منه.

حاولت «روساورا» الحيلولة من دون ذلك بالسبل كافة. فعارضت الأمر منذ البدء بصورة صريحة وحاسمة. توسط «بيدرو» و«تيتا» لـ«إسبرانثا»، وبدأت بينهم بذلك حرب موت أو حياة حقيقية. كانت «روساورا» تطالب بحقوقها صارخة. فـ«بيدرو» و«تيتا» يخلان بالاتفاق، وهذا غير عادل.

لم تكن المرة الأولى التي يتجادلون فيها بسبب «إسبرانثا». فالمرات الأولى كانت المشادات تقع بسبب سعي «روساورا» إلى الحيلولة من دون ذهاب ابنتها إلى المدرسة، لأنها تعتبر ذلك إضاعة للوقت. فإذا كانت مهمة «إسبرانثا» الوحيدة في هذه الحياة رعاية أمها إلى الأبد، فليست لها من حاجة إلى معارف أرفع، ومن الأفضل لها أن تتعلم العزف على البيانو والغناء والرقص. فإتقانها هذه الأنشطة سيكون ذا فائدة كبيرة لها في الحياة. أولًا، لأن «إسبرانثا» ستتمكن من أن تقدم لـ«روساورا» أمسيات تسلية ومتعة رائعة. وثانيًا، لأن مشاركتها في الحفلات الاجتماعية ستكون أكثر بروزًا واستعراضية. وستستحوذ بذلك على اهتمام الجميع، وتكون مقبولة على الدوام ضمن الطبقة

الراقية. وقد بذلا جهودًا كبيرة حتى تمكنا من إقناع «روساورا»، بعد مناقشات طويلة، بأنه من المهم لـ«إسبرانثا»، إلى جانب الغناء والرقص والعزف على البيانو ببراعة، أن تكون قادرة على التحدث في أمور مهمة حين يتقربون منها، ولهذا فإن ذهابها إلى المدرسة مسألة حيوية. وافقت «روساورا»، على مضض، على إرسال الطفلة إلى المدرسة، ولكن لأنها قد اقتنعت بأن «إسبرانثا»، فضلًا عن أنها ستتمكن من التحدث بطريقة لطيفة وجذابة، فإنها ستخالط قبل ذلك كله النخبة الراقية في «بييدراس نجراس». عندئذ أدخلت «إسبرانثا» في أفضل مدرسة لصقل ذكائها. وتولت «تيتا»، من جانبها، تعليمها شيئًا ليس أقل أهمية: أسرار الحياة والحب عن طريق المطبخ.

الانتصار الذي حققاه على «روساورا» كان كافيًا لعدم العودة إلى مشادة كبيرة أخرى حتى الآن، حين ظهر «أليكس» في الأفق وظهرت معه إمكانية خطوبة. استشاطت «روساورا» غضبًا حين رأت أن «بيدرو» و«تيتا» يساندان «إسبرانثا» من دون تحفظ. ناضلت كلبوة، وبكل ما في متناول يديها من وسائل، للدفاع عما هو حق لها في التقاليد: ابنة تسهر على رعايتها حتى وفاتها. صرخت، ضربت الأرض بقدميها، زعقت، بصقت، تقيأت، هددت بيأس. وخرقت الاتفاق أول مرة مطلقة اللعنات على «بيدرو» و«تيتا» وحمَّلتهما مسؤولية كل ما عانته من عذابات.

تحول البيت إلى ميدان معركة، وصار صفق الأبواب بنزق أمرًا معهودًا. ولكن تلك النزاعات لم تستمر لوقت طويل لحسن الحظ، فبعد ثلاثة أيام من أعنف المعارك وأشدها تماديًا بين

الفريقين، أدت مشاكل هضمية عويصة إلى موت «روساورا»، فقد ماتت بـ... الطريقة التي ماتت بها.

كان التوصل إلى تزويج «أليكس» و«إسبرانثا» هو أكبر انتصار لـ«تيتا». وكم كانت فخورة برؤيتها «إسبرانثا» بتلك الثقة بالنفس، وبذلك الذكاء والاستعداد، مفعمة بالسعادة والمقدرة. ولكنها في الوقت نفسه امرأة في غاية الأنوثة بأوسع ما في الكلمة من معنى. بدت باهرة الجمال بفستان زفافها وهي ترقص مع «أليكس» «فالس» «عيون شابة».

عند توقف الموسيقى، اقترب الزوجان «لوبو»، «باكيتا» و«خورخيه»، لتهنئة «بيدرو» و«تيتا».

ـ مبارك يا «بيدرو»، ما كان لابنتك أن تجد عريسًا أفضل من «أليكس» في دائرة قطرها عشرة آلاف ميل.

ـ أجل، «أليكس براون» فتى ممتاز. الشيء السيئ الوحيد أنهما سيغادراننا. فقد حصل «أليكس» على منحة لنيل الدكتوراه من جامعة «هارفارد»، واليوم بالذات، بعد حفل الزفاف، سيتوجهان إلى هناك.

علقت «باكيتا» بكثير من السمِّ:

ـ يا لهذه الفظاعة يا «تيتا»! وماذا ستفعلين الآن؟ فمن دون وجود «إسبرانثا» في البيت لن تتمكني من مواصلة العيش إلى جانب «بيدرو». أي... قبل ذهابك للعيش في مكان آخر، أعطيني وصفة الفلفل في صلصة الجوز. فهذا الطبق يبدو لذيذًا جدًّا!

لم يكن الفلفل في صلصة الجوز يبدو جيدًا جدًّا وحسب، بل كان بالغ اللذة حقًّا. لم تُحضره «تيتا» بمثل هذه اللذة قط من قبل. فالفلفل يتألق بزهو ألوان راية البلاد: خضرة الفلفل، وبياض صلصة الجوز، وحُمرة الرمان.

تلك الأطباق الكبيرة، ثلاثية الألوان لم تدم إلا لوقت قصير. ففي غمضة عين اختفى الفلفل من الصواني... كم هو بعيد اليوم الذي أحست فيه «تيتا» بأنها مثل حبة فلفل في صلصة الجوز تُترك بلياقة، من أجل عدم إبداء النهم.

كانت «تيتا» تتساءل إن كان واقع عدم بقاء حبة فلفل واحدة يشكل إشارة إلى أن الناس قد أخذوا ينسون العادات الحميدة أم لأن الفلفل كان رائعًا بالفعل.

بدا أن المدعوين مفتونون. يا للفرق بين هذا الزفاف وزفاف «بيدرو» و«روساورا» المنحوس، حين انتهى الأمر بتسمم المدعوين جميعهم. أما الآن في المقابل، فما إن يتذوقوا حبة فلفل في صلصة الجوز حتى ينتاب الجميعَ، بدلًا من الإحساس بحنين وإحباط شديدين، إحساسٌ يشبه ما شعرت به «خيرترووديس» حين أكلت وجبة السمان ببتلات الورد. وقد كانت «خيرترووديس»، مع التغيير، هي أول من شعرت مجددًا بتلك الأعراض. فقد كانت في وسط الفناء ترقص مع «خوان» على موسيقى «أيها الكابتن الحبيب»، وكانت تترنم بكلمات الأغنية وهي ترقص كما لم ترقص من قبل. وفي كل مرة تنطق فيها الـ«آي، آي، آي، أيها الكابتن الحبيب»، كانت تتذكر الزمن البعيد حين كان «خوان» ما يزال كابتنًا وكانت معه في

وسط الحقول. وعلى الفور أحست بمشاعر عارمة، فقررت الانسحاب مع زوجها قبل أن تصل الأمور إلى ما هو أعظم. كانت «خيرترووديس» هي أول من بدأ التشتت. وتوالى بعد ذلك المدعوون جميعهم، بذريعة أو بأخرى وبنظرات شهوانية، في طلب الاعتذار أيضًا والانسحاب. وقد شكرهم العروسان في أعماقهما لأنهما صارا حرين ويمكنهما تناول حقائب أمتعتهما والمغادرة في أسرع وقت، يحركهما التعجل للوصول إلى الفندق.

عندما تنبه «بيدرو» و«تيتا» إلى ما يحدث، لم يكن قد بقي في المزرعة أحد سواهما ومعهما «جون» و«تشينتشا». أما الآخرون جميعهم، بمن فيهم عمال المزرعة، فكانوا في أبعد مكان استطاعوا الوصول إليه.

ومن جانبهما، كان «بيدرو» و«تيتا» يبذلان جهودًا جبارة كيلا ينفلت زمام اندفاعاتهما الجنسية، ولكن تلك الاندفاعات كانت قوية إلى حد تجاوزت معه حاجز جلدهما وبرزت خارجًا على شكل حرارة ورائحة فريدتين. انتبه «جون» إلى ذلك، وحين رأى أنه يشكل طرفًا ثالثًا مزعجًا، استأذن وانصرف. تألمت «تيتا» لرؤيته يذهب وحيدًا. كان على «جون» أن يتزوج من إحداهن عندما رفضت هي أن تكون زوجته. ولكنه لم يفعل ذلك قط.

وما إن غادر «جون» حتى طلبت «تشينتشا» إذنًا للذهاب إلى قريتها. فقد كان زوجها قد ذهب منذ بضعة أيام ليعمل بنَّاء طوب وهي تشعر فجأة برغبة قوية في رؤيته.

لو أن «بيدرو» و«تيتا» قد خططا للبقاء وحدهما في شهر

عسل لما توصلا إلى ذلك بمجهود أقل من هذا. فقد صار بإمكانهما، لأول مرة في الحياة، أن يتصرفا بحرية كاملة.

ومن دون الحاجة إلى الكلام، أمسك كل منهما بيد الآخر وتوجها إلى الحجرة المظلمة. وقبل أن يدخلا حملها «بيدرو» بين ذراعيه، وفتح الباب ببطء وتبدت الحجرة المظلمة لعينيه متحولة تمامًا. اختفت الأمتعة المهملة كلها. ولم يكن هناك إلا السرير النحاسي ممتدًّا بجلال في وسط الحجرة. وكانت الملاءات الحريرية كلها، ومثلها اللحاف، بيضاء اللون كما السجادة المزينة بأزهارٍ التي تغطي الأرضية والمائتين والخمسين شمعة التي تضيء الحجرة المسماة خطأً الآن بالحجرة المظلمة. تأثرت «تيتا» وهي تفكر في الجهد الذي بذله «بيدرو» لتزيين الحجرة بتلك الطريقة، وتأثر «بيدرو» أيضًا وهو يفكر في كيف تدبرت «تيتا» الأمر لتنجز ذلك كله في الخفاء.

كانا مفعمين باللذة إلى حد لم ينتبها معه إلى «ناتشا» في أحد أركان الحجرة وهي تشعل آخر شمعة، ثم تتلاشى بصمت.

أنزل «بيدرو» «تيتا» على السرير، وتبادلا نظرات حنان غير متناهٍ.

امتزج صوت ارتطام حافة رأس السرير المعدني بالجدار وأصوات حلقية تفلت من كليهما مع صخب طيران آلاف الحمائم فوقهما في أسراب مغادرة. فالحاسة السادسة التي تتمتع بها الحيوانات أشارت إلى الحمائم أنه عليها الهرب بسرعة من المزرعة. وهو الشيء نفسه الذي فعلته الحيوانات الأخرى كافة: الأبقار، الخنازير، الدجاج، السمان، الخراف والخيول.

لم تستطع «تيتا» الانتباه لأي شيء. وفي تلك اللحظة تذكرت الكلمات التي قالها لها «جون» ذات يوم: «إذا ما أدت عاطفة قوية جدًّا إلى اشتعال أعواد الثقاب كلها التي نحملها في داخلنا دفعة واحدة، فإنها تُنتج وميضًا قويًّا إلى حد يضيء معه ما هو أبعد مما يمكننا رؤيته بصورة عادية، وعندئذ يظهر أمام أعيننا نفق متألق يكشف لنا الطريق الذي نسيناه في لحظة مولدنا والذي يدعونا للعودة إلى اللقاء بأصلنا الإلهي الضائع. فالروح ترغب في الارتداد إلى المكان الذي جاءت منه وتترك الجسد خامدًا»... فكبحت «تيتا» انفعالها.

إنها لا تريد الموت، بل تريد أن تجرب هذا التفجر للعواطف مرات كثيرة. فهذه ليست سوى البداية.

حاولت إعادة تنفسها الهائج إلى طبيعته، وكانت تسمع حتى تلك اللحظة خفق أجنحة آخر سرب حمام في مغادرته. وباستثناء هذا الصوت لم تسمع سوى صوت قلبيهما. كانت خفقات القلبين قوية جدًّا، بل كان بإمكانها الإحساس بقلب «بيدرو» يصطدم بجلد صدرها. وفجأة توقفت تلك الخفقات بصورة مباغتة. خيم على الحجرة صمت قاتل، وقد احتاجت إلى وقت قصير جدًّا لتدرك أن «بيدرو» قد مات.

بموت «بيدرو» ماتت إمكانية إعادة إشعال نارها الداخلية؛ فقد ذهبت معه أعواد الثقاب كلها. كانت تعرف أن الحرارة الطبيعية التي تشعر بها الآن ستأخذ بالتلاشي شيئًا فشيئًا ملتهمة قوامها نفسه حين لا تجد غذاء يُبقي عليها.

لقد مات «بيدرو» بكل تأكيد في لحظة النشوة وولوجه النفق

المضيء. ندمت لأنها لم تفعل هي نفسها ذلك أيضًا. لقد صار من المستحيل عليها الآن أن ترى مجددًا ذلك الضوء، لأنها لم تعد قادرة على الإحساس بأي شيء. ستظل تهيم على وجهها في الظلمات إلى أبد الآبدين، وحيدة، وحيدة جدًّا. عليها أن تجد وسيلة، ولو وسيلة صناعية، لاستثارة نار تمكِّنها من إضاءة ذلك الطريق للعودة إلى مَنشئها وإلى «بيدرو». ولكن لا بد أولًا من تهدئة البرودة الجليدية التي بدأت تشلُّها. نهضت، مضت راكضة لإحضار اللحاف الهائل الذي حاكته ليلة بعد ليلة في وحدتها وأرقها وألقت به فوقها. وبه غطت ثلاثة الهكتارات التي تشكلُ المزرعةَ بمجملها. أخرجت من درج مكتبها علبة أعواد الثقاب التي أهداها إليها «جون». كانت بحاجة إلى كثير من الفسفور في جسدها. بدأت تأكل واحدًا فواحدًا أعواد الثقاب التي تضمها العلبة. وكلما مضغت عودًا منها كانت تغمض عينيها بقوة وتحاول إعادة إنتاج أشد الذكريات عاطفة بينها وبين «بيدرو»: النظرة الأولى التي تلقتها منه، ملامسة أيديهما الأولى، باقة الورد الأولى، القبلة الأولى، المداعبة الأولى، العلاقة الحميمة الأولى. وتوصلت إلى ما ابتغته. فعند ملامسة عود الثقاب الذي تمضغه للصورة المضيئة التي تستحضرها، كان الثقاب يشتعل. وشيئًا فشيئًا راحت رؤيتها تتضح إلى أن ظهر أمام عينيها النفق مجددًا. هنالك، عند المدخل، كانت صورة «بيدرو» المضيئة تنتظرها. لم تتردد «تيتا». انقادت للقائه وذابا معًا في عناق طويل وعرفا مجددًا ذروة النشوة الغرامية وهما ينطلقان معًا نحو جنة عدن المفقودة. ولم ينفصلا بعدها قط.

في تلك اللحظة بدأ جسدا «بيدرو» و«تيتا» المتأججان بإطلاق شرر مضيء. أشعل الشررُ اللحافَ الذي أشعل بدوره المزرعة كلها. يا للوقت المناسب الذي كانت الحيوانات قد هجرت فيه المكان لتنجو من الحريق! تحولت الحجرة المظلمة إلى بركان هائل. بركان يقذف أحجارًا ورمادًا في كل الأنحاء. وما إن تبلغ الأحجار ارتفاعًا معينًا حتى تنفجر متحولة إلى أضواء بكل الألوان. كان سكان القرى القريبة يرون المشهد عن بُعد عدة كيلومترات معتقدين أنها الألعاب النارية في حفل زفاف «أليكس» و«إسبرانثا». ولكن عندما تواصلت تلك النيران لأسبوع اقتربوا منها بدافع الفضول.

كانت طبقة رماد بارتفاع عدة أمتار تغطي المزرعة كلها. وعندما رجعت «إسبرانثا»، أمي، من رحلة الزفاف، لم تجد تحت بقايا ما كان مزرعة سوى كتاب الطبخ هذا الذي أورثتني إياه عند موتها، والذي تروي كل واحدة من وصفاته قصة الحب المدفونة هذه.

يقال إن كل أنواع الحياة قد أزهرت وتفتحت تحت ذلك الرماد محولة تلك الأرض إلى أكثر أراضي المنطقة خصوبة.

خلال طفولتي حالفني الحظ بالتمتع بالفواكه والخضار اللذيذة التي كانت تنتج هناك. ومع مرور الوقت، أمرت أمي بأن يُشيد على تلك الأرض بناء شقق صغير. وفي واحدة من الشقق ما زال يعيش أبي «أليكس». وسيأتي اليوم إلى بيتي للاحتفال بعيد ميلادي. ولهذا أعكف على إعداد كعك عيد الميلاد، طبقي المفضل. كانت أمي تُعده لي كل عام. أمي...! كم أحنُّ

لمذاقها، لرائحة مطبخها، لأحاديثها وهي تُعد الطعام، ولكعك عيد الميلاد! لست أدري لماذا لا تخرج الكعكة معي مثلما كانت تصنعها هي، ولا أدري كذلك سبب ذرفي كثيرٍ من الدمع وأنا أعدها، ربما لأنني حساسة للبصل مثل «تيتا»، خالتي الجدة التي ستظل حية طالما هنالك من يطبخ وصفاتها.

«تيتا» هي الابنة الصغرى في عائلة «دي لا جارثا»، ولذلك تُحرم عليها التقاليد المكسيكية الزواج حتى ترعى والدتها. لكن «تيتا» تقع في حب «بيدرو» المغرم بها وبالأطباق الرائعة التي تعدها – أكلات شهية ذات روائح شذية وألوان مبهرة.

يقرر «بيدرو»، من يأسه، الزواج من شقيقة «تيتا» حتى يتمكن من البقاء بالقرب منها. وعلى مدى اثنين وعشرين عامًا يجبر القدر «تيتا» و«بيدرو» على الصبر، حتى يجمع شملهما – على عكس كل التوقعات – سلسلة عجيبة من المآسي وسوء الحظ وتصاريف القدر.

«كالماء للشوكولاتة» وليمة فاخرة تجمع مرارة الغرام والفراق وحلاوتهما. إنها عمل ساحر ومؤثر وخفيف الظل.

إنها واحدة من أهم روايات الأدب الأمريكي اللاتيني والواقعية السحرية، وأكثرها شهرة ومبيعًا. وقد تحولت إلى فيلم سينمائي حقق نجاحًا ساحقًا.

لاورا إسكيبيل من أهم الكُتاب المكسيكيين. ولدت عام ١٩٥٠ في مكسيكو، تكتب الرواية والمقال والسيناريو، وتمثل حزب الثورة الديمقراطية بالمجلس المحلي لمدينة مكسيكو.

www.bqfp.com.qa
ISBN 9789992195543
90100
9 789992 195543

لوحة الغلاف: عمرو الكفراوي